ليلى الصبّاغ

من الأدب النسائي المعاصر

العربي والغربي

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٦

الإشراف الفني زهير الحمو

دراســات فكريــة

« ٢٦ »

من الأدب النسائي المعاصر العربي والغربي / ليلى الصباغ . —
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٦ . — ٢٢١ ص ؛ ٢٤ سم . —
(دراسات فكرية ؛ ٢٦) .

١ — ٩٢٨ ص ب ا م ٢ — ٨٠٨٫٨ ص ب ا م
٣ — العنوان ٤ — الصباغ ٥ — السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع — ٢٠٨٨ /٩/ ١٩٩٦

الاهـــــداء

إلى جـميع أعضـاء الهيـئتين التـدريسـيـة والإدارية الأفـاضل، وإلى جـمـيع الطالبـات الغـوالي، فـيـما كـان يُسمى سابقاً «ثانويتي البنات الأولى والثانية بدمشق».

إذ عشت معـهم ومعهن، ومع تفـانيـهم وتفانيهن في اكـتـســاب المعـرفـة، وفي عطائهم وعطائهن التــربوي والعلمي، المخلص، والأمين، أزهى الأيام وأحــلاها، في الخمسينات والستينات من هذا القرن.

ليلى الصباغ

دمشق في ١٩ ربيع الثاني ١٤١٧هـ
الموافق الفاتح من أيلول ١٩٩٦ م

المقدّمة

يضم هذا الكتيّب سيرَ كوكبة من النساء ، لمعن في ميدان الأدب ، نثره أو شعره ، خلال القرن الذي خلا ، والقرن الذي نعيش . أي خلال المرحلة التي أخذت فيها المرأة ، إن في عالم الغرب أو في عالمنا العربي ، تمزق حجب العزلة التي فُرضت عليها ، وتحطم القيود التي حبست فكرها وصوتها ، فانطلقت تعبر بحرية عن ذاتها ومجتمعها ، فكراً وأحاسيس . وتسعى بثقة ، وكفاح عنيد ، لتتبوأ موقعها الطبيعي في مسيرة الحضارة الإنسانية المعاصرة . واستمعت الإنسانية هذه المرة ، وبعد لأي ، لفكرها ومشاعرها ، فأفسحت المجال لها ، لتأخذ مكانها في جميع مجالات الحياة ، ولتحقق وجودها الإنساني الخصب ، جنباً إلى جنب الرجل ، صنوها في الإنسانية .

واثنتان من هذه الكوكبة النسائية ، شاعرتان عربيتان معاصرتان ، إحداهما نبتت على أرض فلسطين العربية ، وعاشت مأساتها كامرأة في مجتمع مغلق ، ومأساة وطنها السليب ، فصدحت ثائرة ومناضلة ؛ وثانيتهما انطلقت من أرض العراق ، ونادت هي الأخرى في شعرها ،

بتجديد ثوري لحياة المرأة فيها ، وعملت جادة على بث روح حركية ، ونغم مبتكر ، لا في حياة المرأة وشعرها فحسب ، وإنما في حياة الشعر العربي ككل .

أما الأديبات الأربع المتبقيات ضمن هذه الكوكبة ، فهن من عالم الغرب : اثنتان منهما من العالم الأوربي ، ومن انكلترة بالذات ، والأخريان من العالم الأمريكي ، ومن الولايات المتحدة فيه . ولكل واحدة سيرتها الثائرة والمثيرة ، وعطاؤها المبتكر الفريد ، الذي سعت من خلاله ، كما فعلت شاعرتانا العربيتان ، لا لتحقق وجودها كامرأة فعّالة فحسب ، وإنما لتبث في حنايا مجتمعها إبداعاً خصيباً ، ولتمنح الحضارة الإنسانية قيمة حياتية خلاّقة ، ولتكون نموذجاً للأجيال في الكفاح والعطاء .

وحرصاً على الأمانة الفكرية ، لابد من القول بأن تدوين تلك السير ، وما حمل بعضها من دراسة لإنتاج بعض تلك الأديبات ، ليس هو ابن اليوم ، وإنما تم في الخمسينات والستينات من هذا القرن . وقد أُنجز آنذاك ليُلقى « محاضرات » من على منصة بعض الجمعيات الثقافية السورية ، أو « أحاديث » عبر الإذاعة . وأخص بالذكر من تلك الجمعيات ، « جمعية الندوة الثقافية النسائية » في دمشق ، التي تضم ثلة من النساء الأديبات والمدرسات ، والتي لا تزال ناشطة في ميدان الثقافة وخدمة المجتمع . وقد أبقيت تلك « المحاضرات » « والأحاديث » كما أُلقيت ، ودون أي تبديل . وما طرأ من جديد على سيرة بعض الأديبات المعاصرات ، أشير إليه ملحقاً في آخر السيرة . ومن ثمّ ، فإذا لوحظ بعض تفاوت في حجم الدراسة المقدمة عن كل

أدبية ، فإن ما ذكر بأنها قد أعدت لتُلقى إما محاضرة لمدة ساعة من الزمن ، أو حديثاً في الإذاعة ، لمدة زمنية أقل ، يفسر هذا التفاوت .

ولابد في خاتمة هذه « المقدمة » من التأكيد ، بأن من حق هؤلاء الأديبات ، وغيرهن من النساء اللاتي أفرزتهن مجتمعاتهن ، مكافحات لتثبيت قيم حضارية جديدة ذات نفع لتقدم تلك المجتمعات ، وتقدم الإنسانية بعامة ، أو لإحياء قيم حضارية أصيلة ومفيدة ، تنبثق من الحضارة الذاتية لتلك المجتمعات وغطاها الزمن ، وطغت عليها تطورات مستحدثة مزيّفة ، إن من حقهن على الأجيال ، مهما تلاحقت ، أن تَستذكر سيرهن ، وتدرس بإمعان عطاءاتهن ، ليكون ذلك دوماً ، أملاً وحافزاً لها للابتكار والإبداع ، ومن ثمّ المحافظة على ديمومة السير التقدمي للمجتمعات ، وللانسانية ، نحو الأفضل والأكمل وهذا هو الهدف من نشر هذا الكتيب .

والله ولي التوفيق .

ليلى الصباغ

الشاعرة الفلسطينية
فدوى طوقان

فتاة وثورة وشعر
الشاعرة فدوى طوقان

سمعتُ عنها ممن حولي رثّاءة بكّاءة ، تقول الشعر الرصين ، وتذرف الدمع السخين . سمعتُ عنها دون أن أقرأ لها سوى نتف من شعر ، مبعثرة هنا وهناك ، كانت بَيْن بَيْن . وشاءت الظروف أن تجمعني بها منذ عام وجهاً لوجه في دمشق ، في « منتدى سكينة » ، الذي كانت المناضلة السيدة « ثريا الحافظ »، قد كونته في بيتها، لاستقبال المفكرين والأدباء ، والاستماع إليهم ، وإلى محاوراتهم الغنية والخصيبة. فبدت لي فتاة عادية في منتصف العقد الثالث من العمر ، في قامتها توسط ، وفي جسمها امتلاء ، وعلى وجهها الأسمر الصافي لمحات من شباب ، ومسحة من كآبة ، وخطفة من شحوب ، وفي ثنايا فمها ظلال من بسمة وكبت ، وفي عينيها العسليتين الجميلتين ، اللتين تكتسحان وجهها ، نَعَس ، وأحلام ، وطيوف ، ويترجرج في روحها قلق صامت واستعار مكبوح : تصمت بنقاء ، وتتكلم بروية وصفاء ، وكأنها تهمس وسوسات ذاتها إلى من حولها ، إنما بتمهل وحياء . وكان طبعياً ، والجلسة شعرية ، وهي المحتفى بها ، أن تنطلق شعراً من أناها . فإذا في صوتها دفء ، وتهدج ، ورنم ، وإذا بنظمها حنين :

وأنين ، ونغم . وشعرت ، وهي تبعث بالكلمات روحاً ومعنى من فيها ، أنها تخرجها من أغوار عميقة خصبة وكأني بها ذاتها . وأحسست عندها أنها ليست الفتاة العادية التي طالعتني ، والتي كنت أظن أنها تشغل بقاءها بأن تحوم حوله أفقاً ، وتزينه شعراً باهتاً ... وآمنت أنها شاعرة : تتعمق في خفايا النفس ، ولجج العاطفة ، حتى يذوب شعرها من لفظ يُروى ، وفكرة تُستوعب ، إلى حس يُشعر ولذة تطغى ؛ وأنه يسري من روحها اللاثبة إلى الأرواح حولها ، سريان شعلة من لهب ، تضيء وتحرق ، ثم تفنى في جمال نفسي مُنْتشى .

وعدت إلى ديوانها « وحدي مع الأيام » ، الذي صدر منذ أعوام ، أستزيده عنها . وإذا بشاعرتي « فدوى طوقان » تبرز لي من خلاله لا فتاة تجيد فن الرثاء ، كما حدثتني عنها كثيرات من السيدات ، ولا امرأة تنجرف وراء الرمزية والغموض ، كما عرّفها كثير من الأدباء الرجال ، وإنما نغم حياتي صادح ضالّ ، فيه ثورة صاخبة ، وبكاء حاد ، ينطلق متصاعداً من وراء جدران مجتمع آسر ، لينسجم ويلتحم ، بعد أن يتخطى أسلاكه الشائكة ، مع لحن الكون . إنه دموع ، ولكنها من تلك التي قال عنها « أبو القاسم الشابي » :

فمنَ المدامعِ ما تَدَفَّعَ جارفاً حَسَكَ الحياه
يَرْمي لهاويةِ الوجود بِكلِ أشواكِ الطغاه !

واختفت عن ناظري صورة « الخنساء » التي كنت قد ربطتها بها ، ليتماسك ديوانها في ذهني تماسكاً غريباً وملحاً ، بكتاب كان قد صدر بالوقت نفسه تقريباً ، وهزّ الأوساط الأدبية العالمية ، وتداولته دور الكتب بالترجمة والنشر ، وسطرته هو الآخر نفسية امرأة ،

وأطلقت عليه عنوان «تخطّيت ُالأسوار» .فقد قصت علينا فيه الكاتبة « مونيكا بالدوين » محاولتها إبان الحرب العالمية الأولى ، الانخراط في سلك الرهبنة ؛ وكيف اندمجت فعلاً في نظام ديري قاسٍ ، وهي في ربيع العمر ، وفي فورة الجمال والارتباط بالدنيا . وتدخل الكاتبة في تفصيل أسرار الرهبنة والتقشف ، بروح أرضية ، وحب للحياة عميق . وتصل بنا في النهاية ، إلى أن ارتباطها بالدنيا ، واستغراقها في جمالها، وتشبثها بالحرية والانطلاق، دفعها إلى أن تتحلل بعد ثمانية عشر عاماً من حياة ديرية مغلقة ، ومن نذورها ، وأن تقفز فوق أسوار الدير إلى أرض الانسان الخاطىء أرض البشر وحياة الدنيا .

وهكذا بدت لي شاعرتنا من طيات ديوانها . وفي الواقع لا « فدوى طوقان » بلحمها ودمها فحسب ، وإنما جيل من المرأة العربية تجسّد فيها . جيل فيه شباب ، وجمال ، وحب ، وكان يتعشق الحياة بمعانيها الفوّارة ، ويتوقد إلى الانغمار في لججها الصاخبة ، ويحنّ إلى الانطلاق في تشعباتها الشتى ، وسجن وراء الأسوار ، لا بنزوة من نزواته ، كما فعلت « مونيكا بالدوين » ، وإنما بإرادة من كانت له الإرادة آنذاك . ولم تكن الأسوار التي احتُجز وراءها ، أسوراً مقدسة من الله ، كما كان يُدّعى ، وإنما أسوار ادّعى تقديسها مجتمع بشري ، مهلهل وعتيق ، سادته فردية الرجل الشرقي وجهله . وكما أن الحصون الديرية المقدسة التي كان يرن صوت الله في جنباتها ، لم تتمكن من خنق صيحة الحياة البشرية ، والتلهف عليها في نفس « مونيكا » ، فإن الأسوار التي رفعها مجتمعنا السابق ، بتقاليده الكبتية ، ومفاهيمه المغلقة ، وطوّق بها جيل المرأة ذاك ، جيل « فدوى طوقان » ، لم

تتمكن من اطفاء جذوة التعاطف الكوني ، والتعلق بمعاني الحياة في نفس ذاك الجيل . وكما أن « مونيكا » أثارت من حولها ، إذ كشفت للمرة الأولى أسراراً كان يتوق العالم لمعرفتها، فإن « فدوى طوقان » قد استثارت مجتمعنا المغلق ، بأن طرحت في ديوانها عليه أسرار عالم المرأة الانساني الخفي ، الذي يتلهف على أعماق الحياة بكل مساراتها ، لا على سطوحها التافهة . وفي ذلك تقول « فدوى طوقان » ذاتها :

كَمْ فتاةٍ رأتْ بشعريَ انتفاضاتِ
رؤاهـــا الحـــبيسةِ المكتومه
كان شعري مرآةَ كلِّ فتـــاةٍ
وَأدَ الظـــلمُ روحَها المَحْرومـــه

وحننتُ بعد قراءة ديوانها أن أعرّف بها ،لا لأنها عبقرية أدبية من عبقريات زماننا العربي هذا ، فهذا أترك الحكم فيه إلى أساطين الأدب والشعر ونقادهما ، ولا لأنني أريد أن أثبت عن طريقها — كما يفعل الكثيرون — مساواة المرأة بالرجل في ميدان الابتكار والإبداع ، فالموضوع غدا لا معنى له الآن ومن سقط المتاع ، إذ أن البديهيات لا تحتاج إلى برهان ، وإنما لأعرض مجهولاً ، ونمطاً من الحياة ، قام في ماضينا القريب ، ولا يزال يقوم في وقتنا الحاضر في بعض البيئات ، وخنق إمكانات كامنة كثيرة عند المرأة ، ضاعت على المجتمع ؛ ولأطرح في الوقت نفسه جمالاً شعرياً أثيرياً ، أبعدتنا عنه مادية العصر وآليته . واستحثتني أبياتها في قصيدتها « إلى مصر » التي تقول فيها :

يا ليتني يا مصرُ نجمٌ في سمائك يَخْفُقُ
يا ليتني في نيلِك الأزلي مـوجٌ يـدفقُ
يا ليتني لَغزٌ أبو الهَوْل احتواهُ مغلقُ
تهوي وتنسحقُ الدهورُ مواكباً ، وأنا هنا
بعضٌ خفيٌّ من كيانكِ لستُ أُدْرِكُ ما أنا

على فك رموز هذا اللغز ، واكتناه تلك الجدران المادية ، والمعنوية التي فُرضت عليها الحياة بين ظهرانيها ، فصخبت وضجّتْ ، ثم انفلتت شاعرة ثائرة ، تصدح ، وتهدم وتبني . وشاءت الظروف للمرة الثانية أن أجتمع بها في موطنها « نابلس » أثناء رحلة قامت بها « رابطة المدرسين » بدمشق ، وأن تهمس لي ببعض من ذاتها . وإذا بحياتها كحياة جيلها بأكمله :

حيـــاتهـــا قصيـــدةٌ فـــذّهْ
منبعُهـــا الحسّ ونيرانُـــهْ
وحُـــلُمٌ محـيَّـــرٌ تـــائـــهٌ
مـــن قَـلَـــقِ اللهفَـةِ ألوانُهْ
حيـاتُهـا كحياتِهن بحر نأى غَوْرُهُ
وإن بَدَتْ للعـــينِ شطـــآنُهْ

فقد طالعت « فدوى طوقان » الوجود ، بوجودها كأنثى في مدينة « نابلس » من أرض فلسطين ، سنة ١٩١٩ . و « نابلس » هذه مدينة عربية صغيرة في الوطن السليب ، احتضنها سفحا جبلين ، وبثّا في حناياها الماء والخضرة ، وحمياها من كل تأثير خارجي أو

دخيل أجنبي . فانكفأت على نفسها ، تجتر عزلتها ، وتحافظ على قدمها وتقاليدها . والتفت أهلوها ، شأنهم شأن سكان المدن الصغيرة المغلقة ، يتسقطون أخبار بعضهم بعضاً ، وينتقدون حركات أفرادهم فرداً فرداً ، حتّى قال المرحوم الشاعر « ابراهيم طوقان » شقيق فدوى : « لا ضرورة لجريدة في « نابلس » ، لأن الأخبار تنتشر فيها قبل أن يتاح للصحف نشرها » .

ولا يمكنني الجزم فيما إذا كان الحظ قد حالف « فدوى » في أنها ولدت لآل طوقان أو لم يحالفها . فآل طوقان عشيرة عربية مسلمة ، إقطاعية غنية ، تتمثل التقاليد في ذاتها ، وتشيعها على من حولها ، فهي ستكون إذاً طوقاً حديدياً للعبقريات الفنية المنطلقة ، حتّى ولو كانت تلك العبقريات مندفعة من أحشائها ، ومتمثلة في رجال ؛ فكيف بالنساء . ولكن ربما تُغبط « فدوى » لولادتها لآل طوقان، لا لغنى مادي يوفرونه لها ، وإنما لأنهم تمثلوا الحركة القومية العربية المعاصرة في أعماق أعماقهم ، ونقلوها إلى ولدهم ومن حولهم زاخرة طافحة . وهكذا تكون « فدوى » قد رضعت منذ طفولتها ، لبن القيود التزمتية بأشد صورها ، وشرقت بمفهومات العروبة الحية بأعمق خلجاتها .

وقد أخذت « فدوى » تتحسس ما حولها من دنيا ، ومن حياة ، في منزل آل طوقان المنتصب كالحصن الإقطاعي على جافة « جبل جرزيم » ، والمطل من طرفه الآخر على سوق نابلس ، وقلبها الواهي الوجيب . وهو منزل واسع كمنازل الأرستقراطيين في دمشق منذ ربع قرن : مدخل ضيق يصعد إليه بسلّم ، ثم سلّم واسع ، ثم ساحات

منبسطة ، وغرف عدة يوصل إليها بأدراج ، بعضها فسيح ، وآخر ملتو ، كحياتنا الاجتماعية السابقة . وقد تلقفت « فدوى » الحياة من أب هو « عبد الفتاح طوقان » ، متعصب لعروبته وإسلامه ، متشبث بتقاليد المجتمع ، سمح الطباع ، ومزامل لأولاده الذكور ، مقيّد بمفاهيمه عن الحجاب والشرف مع أولاده الأناث ، مؤمن في قرارة نفسه وظاهرها بقيمة الرجل في الحياة دون المرأة ، شأن رجل ذلك الزمان ، وهذا الزمان . يرغب من الحياة ، العمل الدؤوب ، والسلطة وكثرة الولد . أما العمل ، فقد اندفع نحو مصبنته يديرها بحزم ، وأما السلطة فقد توفرت له على عائلته ، وأما الولد ، فقد حباه الله منه عشرة ، ستة من الذكور وأربعاً من الأناث ، كانت شاعرتنا ، السابعة في التعداد .

وإذا كان الوالد يبدو ، وفي معظم الأحيان لفدوى ، صامتاً ، متعالياً ، كما أرادت نفسية ذلك العصر ، وعادة المجتمع بالنسبة لرب الأسرة ، فإن الوالدة كانت على نقيض ذلك : فهي جميلة ممراح ، لم يفقدها الولد المتواصل ، روح دعابتها وفكاهتها . وإذا كان للجو الأول الذي يتفتح عليه الطفل ، أثره في حياته فيما بعد ، فقد ترك حصن آل طوقان ، بسعته المكانية ، وفراغه الروحي بالنسبة لفدوى ، وبشره المتنوع ، دمغة كئيبة قاتمة في نفس الطفلة ، لم تُزِلْها الأيام ، ولا ضحكات الأم ، ولا تطور الحياة . فمنذ أن ناغت الوجود فيه ، شعرت بالانقباض ، وزاد من انقباضها مرض الملاريا الذي علق بها ، وحط من قواها ، وأذوى عودها ، وأخمد الحيوية من ملامح وجهها ، وأضعف بريق عينيها ، وأرهف من حساسية أعصابها . فلم تنطلق

للعب مع لداتها ، رغم أن الساحات فسيحة ، والأطفال ، كُثُر : فإلى جانب أخوتها ، هناك أولاد عمومتها الذين كانوا يشاطرونهم الحياة في المنزل . وأكثر ما كان يلويها على ذاتها ، عدم إحساسها بحدب خاص يغدق عليها ممن حولها ، حتى ولا مسحة يد على شعرها ، أو دغدغة أنامل لخدها ، أو قبلة على جبينها : فالأم ولود ، لا تلتفت إلى فردية أطفالها إلا بمقدار ، ولا تتلمس ، أو تتحسس كوامن انعطافاتهم ورغباتهم ، والأب سيد في محيطه ، و« فدوى » أنثى ، وليست بالطفلة المثيرة ، شكلاً وروحاً ، بحيث تجذب نحوها حنان الأخوة والأقرباء . لقد شعرت وهي دون السابعة ، أنها شبه منبوذة وسط العائلة الكبيرة . وكم بكت وتحرقت ، وهي ترى أختها الجميلة التي تصغرها بسنتين تتلقفها الأيدي ، وترن لها الضحكات ، وهي في الزوايا متلكئة مهملة : وهكذا انكمشت على نفسها ، وانصرفت إلى عزلتها ، تجوب أرجاء « القصر » الفسيح بخطى لاهثة وهي :

فهنا خيالٌ شاحبٌ لم ترْحَمِ الدُنيا ذُبولَهْ
هنا خيالُ طفولةٍ لم تَدْرِ ما مَرَحُ الطفولهْ

وكم كانت تستغرق في خيالاتها وأوهامها ، فتبني لنفسها عالماً حُرِمَتْه في الواقع ، وتضع نفسها مكان ابنة عم لها ، كانت تغدق عليها الهدايا والهبات ، وتحاط بكل أفانين الحب والعطف ، وتتمنى لو تبادلها ابنة عمها مكانها شهراً واحداً ، بل يوماً واحداً . وترجو مرة أخرى ، لو كانت ابنة لخالتها العاقر ، التي ربما كانت ستوسعها حباً وعطفاً ، لأنها محرومة من الولد . وهكذا بين ثلاثين فرداً ،

كانت فدوى تشعر بالغربة ، وبظمأ شديد إلى الحب والتحنان والحدب وقد صوّرت ذاتها في شعرها قائلة :

وأرنـــو هنـــــاك لطيْفٍ رقيقْ
لطيْــــفِ طفـــولتي الفانيـــهْ
بـــأيـــامهـــا الـمُرّةِ القاسيـــهْ
وإذا أنا — يا نارُ — شيءٌ صغيرْ
يفتش عـــــن نَبْعِ حبٍّ كبيرْ
ســـدى ، ويـــظل لِقىً مهملاً
فيمضي إلى رؤاه وفي أُفْقِهِنَّ يطيرْ

وفي سن السابعة ، أُرسلت « فدوى » إلى المدرسة ، فلا ضير من التعليم الأولي للبنات . وانكبت الطفلة على الدراسة ، تعوّض فيها ما فاتها من حب وعطف ، وتغدق على كتبها ما يملأ حناياها منهما . وتحاول أن تثبّت في المدرسة أقدامها التي أخفقت في تثبيتها في البيت . وبزت زميلاتها في اللغة العربية ، وكان يستهوي معلمتها منها قراءتها للشعر . فقد كانت على طفولتها ، توقعه بنغم غريب ، وتعيش فيه ، وتتلمس ذاتها عبر معانيه . ولكن انعطاف فدوى نحو مجتمعها المدرسي ، ولهفتها للتعلم ، لم يصرفا طاقات عواطفها ، أو ينسياها انعزالها في البيت : فكانت تنتقل من عام إلى آخر ، وهي تحس بعكر في الجو العاطفي المنزلي ، وبظمأ للعاطفة والتدليل والرعاية ، يشتد إلحاحاً مع نموها الجسمي .

وفي سن العاشرة حدث تحول خطير في حياتها : فقد ذهبت خفية مع أخ يكبرها إلى مفرق الطريق ، لاستقبال أخٍ آخر عائد من الكلية

في بيروت ، وكان أخوها هذا ، هو الشاعر العربي الكبير المرحوم « ابراهيم طوقان » . وتلقاها هذا الأخ الكبير بالحضن والتقبيل ، ووضعها إلى جانبه وهو في طريقه إلى المنزل . وكان يربت على شعرها ، ويحدثها كإنسان واعٍ . وشعرت لأول مرة أن عاطفتها قد تركزت ، وأن روحها العطشى قد ارتوت ، وأن دنياها لن تدور إلا في فلك « ابراهيم » . وشرعت الطفلة الحانية تلتصق بالشقيق : فكم كانت تجلس أمامه ساعات وساعات صامتة كالطيف ، تستمع بنشوة قدسية لأهازيجه الشعرية . وأخذت تعشق الشعر ، لا لِأنِ روحها تذوب فيه فقط ، ولكن لأن ابراهيم يحب الشعر ويقوله . وانصرفت بكل ما في قلبها الصغير من اندفاع وعاطفة لخدمته . وهكذا انفلتت من أسر عواطفها المكبوته الخانقة السابقة ، وانطلقت ، والحب الأخوي المزهر في قلبها يملأ جوانحها ، ويسيّر خطاها ، تعيش مع الحياة المشرقة . وتغيرت ألوان الطبيعة ذاتها في عينيها من اصفرار باهت إلى اخضرار يانع ، واكتست جمالاً زاهياً . فأخذت تتنقل بين مروج وسفوح ، تروي غليلها للحرية ، وتعب من الجمال حولها عبّاً ، وتعانق بطفولتها كل جزئية فيه . واقتربت دراستها الابتدائية من نهايتها ، وهي خيال مشبوب :

وروحٌ تفتح للطبيعـــةِ ، للطـَلاقـــةِ ، للجمـــال
روحٌ شفيف رقـّتـُـــهُ لطافـــةُ الجوِ النضيـــــير
ومفاتن السفحِ الغنيِّ ، وخـُضْرَةُ الوادي الشجيـــيرْ
روحٌ رهيفُ الحسِّ ، متقـــدُ العواطِف والشعورْ
يـَهوْى الجمالَ ، يعبُّ لا يـُروى من الفـَيـْضِ الكبيرْ

وكان شبابها قد أطل على عمرها مع انسياح خيالها . وزايلها مرض الملاريا ، فامتلأ جسمها ، واحمرت وجنتاها ، ولمعت عيناها ، وفاضتا بتطلعات الصبا وأماني الشباب . وشرعت تطل على الوجود بتلهف واكتناه للحياة . وأفاض جمال يفوعتها على نفسها ثقة بذاتها فأرادت في أعماقها لو ترشف كأس الدنيا حتى سلافتها . ولعل الثورة الكامنة في أغوارها ، التي ولدها كبت متواصل ، وعطف ضنين ، أخذت تضطرم وتشرئب جامحة من مقلتيها . وقررت العائلة أمام هذا الصبا المتفجر ، والتطلع البعيد نحو مكنونات الحياة ، وأمام تقاليد الأسرة ، ولغط المجتمع الضيق ، أن تمنع ابنة الثالثة عشرة المتحجبة ، من التجول في الطرقات ، أو بمعنى آخر من إتمام دراستها . ففي ثورة العينين خطر ، وفي قراءة الشعر والأدب للأنثى ربما عار مرتقب . فلتعش في الحصن الفسيح كما يعيش كثير من لداتها ، ولتتنقل في رحباته ضمن الجدران المرتفعة الشامخة ، ولتنتظر فيه زوجاً مرتقباً يحملها إلى حياة حصينة وولد .

. . . .

ورضخت وابراهيم بعيد عنها ، والقيد الجديد في قلبها ، والثورة في النفس في بدئها . رضخت على مضض لتستمع بحرقة تأتكل حناياها ، إلى الأحاديث النسوية البالية ، والتخرصات العائلية ، ولتشعر بنقمة ممن حولها ، ولتفرض نقمتها على من حولها : فعالمها غير عالمهم ، عالم فيه مُثُل ورؤى ، فيه طبيعة وانطلاق ، فيه تحقيق للوجود .. عالمها عالم حركة يبتلع سكونهم وهمودهم . وكانت تتطاول خفية وراء النوافذ لترى من خلفها كثيراً من زميلاتها وقد تأبطن كتبهن ، واتجهن إلى المدرسة متضاحكات تحت حجبهن . وترن في أعماقها

مع هذه الضحكات موسيقا الحياة . وتضج ثورة الحقد . وكانت تقطع وقتها الطويل المتباطىء بقراءة الشعر دون أن تفقه كثيراً من معانيه ، ولكنها تتحسس في ألحانه نسجاماً مع روحها المتلهفة المتشوقة . ويمضها هذا السجن ، ويمضها حراسه ، وتمضها براءتها فيه . ويتحول الصمت الموخز إلى غيظ مكبوت دفين . وتعرض فدوى هذه الزاوية المظلمة من حياتها في أقصوصتها الشعرية الجديدة « هو وهي » ، التي لا تزال تعدّها ، ولما تنشرها بعد قائلة :

ولقـــد كُنْتُ أنزوي والأسى يَطْحنُ
نـفـسـي الطـمـوحـة المخـذولـه
ووراءَ الجدرانِ تَصْخَبُ دنيا الانطلاقاتِ
و الحـيـاة الجـمـيـلـه
الحياةِ التي بملءِ اندفاعات خطـاهـا
تَـسـيـرُ نَـشْـوى غـنـيّه
لا تُبالي بنا ... تسيرُ ولا تُثْنـي خُطاهـا
مـأسـاتُنـا الـفـرديّة
وتعلمتُ كيف تختلطُ الثورةُ والبغـضُ
فـي دم المـظـلـومِ
وبـأعماقيَ التربّصُ يُخْفيهِ هـدوئي
فـي صَمْتـهِ المسمـومِ
أرقُبُ اللحظةَ التي كم تَطلعتُ إليهـا
فـي شـوقـيَ المكبـوحِ
لحظةَ العتْقِ والفرارِ إلى آفـاقِ حُريتي
و دنـيـا طـمـوحـي

وينقلب الهدوء الساخط إلى ثورة صاخبة ضاجة ، تصورها فدوى في قصيدتها الثانية « من وراء الجدران » ؛ وتصب فيها بنغم حماسي فيه انبثاق ابداعي وعنف ، تلك العاطفات المتمردة التي تكاد تحطم ضلوعها ، وتوجه فيها ضربات معول محكمة وهدامة إلى تلك التعنتات الاجتماعية المقيدة ، وتركز فيها ثقتها بقوتها كامرأة ، وإيمانها البنائي الذي لا يتزعزع بقيمة حياتها ، ومعنى تواتر وجودها كإنسان . فقد صدحت بعنف قائلة :

بَنَتْه يــدُ الظُلْم سجنــــاً رهيبــــاً
لــــوأد الــــبريئـــاتِ أمثاليَه ْ
وكـــرَّتِ الـــــدهوُر عليه ومــازال
يَمْثُلُ كـــــاللعنــــةِ البـــاقيه ْ
وقَفْتُ بجــــدرانــهِ العـــابسات
وقــد عفَرتْ بتراب الـــقرونْ
وصِحْتُ بهـــا يـــا بنــــاتِ الظــلامْ
و يـــا بدعـــةَ الظُلْمِ والـــظالمينْ
لُعِنْتِ ، احجبي نـــور حـــــريتي
و سُـــدّي عليّ رحــــابَ الفضاءْ
ولــــكنَّ قلـبيَ هـــذا المُغرِّدَ
لــن تُطفـــئي فيــه روحَ الغنـــاءْ
ألا كــم بـــراعمَ قَبـْـلي نَمتـــها
لــــديــك هنـــا لعنـــاتُ القَدَرْ
ذَوتْ تحــــتَ أصفــــادهــــا
وانحنَتْ عــلى ذاتهـــا أملاً مُنْتَحرْ

لُعِنْتِ ، سواي أمـــامـك تـعنـــو
وتُخْـــرسهـــا غَضَبــاتُ الطغاهْ

ولـكِنّ مِثْلـي ستبقـى بـــرَغمْك
بنـتَ الطبيعـــةِ ، بنْتَ الحيـــاهْ

أغَـنّـي لـو سَحَقَتْـني القيـــود
أغـــاريــد نفســي و أشواقَهـــا

تبـــارِكُ لحْني أَمــيّ الــحيـــاهْ
فلَحْنــي مِنْ عُمْــق أعْماقِها

في هذا المنعطف الكئيب من مجرى عمرها ، عاد « ابراهيم » الشاعر المتعلم ليلقى صبية تداخلت في قوقعة نفسها غماً . فوجه إليها عطفه كعادته ، ولعله تحسس في تخمرات ذاتها المراهقة ، كوامن عواطف اعتملت مرة في ذاته . وانضوت فدوى تحت جناحه صامتة . فالجراح عميقة ، والحساسية فائضة ، والبيئة لا تزال هي البيئة . وأراد ابراهيم أن يزيح من روحها البائسة كابوس هذا الكبت الذي تعانيه ، وضغط تلك الثورة الداخلية المدْخنة، فقرر ، كما رجته مراراً وهي ترتجف خشية أن يرد مطلبها ، أن يعلمها الشعر كما يعلمه لطلابه ، وأن يستزيدها من العلم والمعرفة . فاخذ يتلو عليها القصيد ، ويطلب إليها استظهاره ، لعلّ الشعر يكوّن صدمةً تهز كيانها ، وتحول نفثات روحها المحترقة إلى نظم معقود . واستظهرت أول ما استظهرت ، قصيدة لأبي تمام من ديوان « الحماسة » في « رثاء امرأة لأخيها » ، وكأنما أرادت الأقدار أن يكون أول نطق لها لشعرها الناضج هو رثاؤها في أخيها . ونامت فدوى ليلة اشترت الدفتر والقلم لتخط عليه وبه تفاعيل الشعر ، وقد عانقت الاثنين في فراشها ، ونضحت الوسادة بدموع فرحها . . . .

وانشغلت بالعلم الجديد عن نفسها وأهلها : فهؤلاء يعيشون حياتهم يصخبون ، ويضحكون ، ويتزاوجون ، وهي تزداد احتكاكاً بالوسط الأدبي . فقد انعكفت تقرأ ما يقدمه لها « ابراهيم » من دواوين الشعر ومن شعر له ، ومن قرآن يفتح لها مغاليق معانيه وإعجاز بلاغته . فصفا أسلوبها ، وتطاولت على العالم الخارجي بمطالعتها المجلات التي كانت ترسل لأخيها . وكم كانت تقف طويلاً أمام شعر للشاعرة « رباب الكاظمي » — وهي ابنة الشاعر العراقي عبد المحسن الكاظمي — ، وتتطلع في صلاتها الخفية ، لو تغدو يوماً شاعرة مثلها ، تنشر لها المجلات ، وتتكلم عنها الصحف ، وتحتل بذلك مركزاً مرموقاً في هذا الوجود ، وفي أسرتها الساخرة من علمها ، والهازئة من دنياها . وأخذ حلم الشعر الغامض يتحول حقيقة واقعة : فقد نظمت فدوى الشعر .. وشجعها أخوها « ابراهيم » على مواصلة الدراسة في ميدانه ، إذ أحس فيه نغمة جدة لم يعتدها ، ونسمة نبوغ . وعندما انتقل إلى « القدس » ليعمل مديراً للبرامج العربية في إذاعتها ، رافقته « فدوى » . وعاشت في القدس ، وقد طرحت عن كتفيها غبار قرون من قيود فكرية واجتماعية : فلا حجاب على الوجه ، ولا قناع على القلب ، ولا قيد على الفكر . وساعدها أخوها على تعلم اللغة الانكليزية . فغرقت فدوى في رحاب الجمال : تغوص في إبداع القرآن ، وتغترف من « المتنبي » « وشوقي » ، وتتلمس طريقها بشوق نحو الأدب العالمي . فتضاعف قرضها للشعر ، ونشرت أولى قصائدها في مجلتي « الثقافة » و « الرسالة » المصريتين باسم « دنانير الفلسطينية » .

وانصرم عام القدس الرائع كحلم ، وافترقت عن أخيها ، وعادت إلى سجنها تشكو أخاها فراقاً مراً . وعاشت في القصر الشامخ

بين شعر تسكبه ، ودراسة للأدب تتعمق فيها ، وأهل راعهم انكماشها على ذاتها ، فأحكموا الحلقة حولها يتلمسون أخبارها . وفي غمرة ضيقها هذه،أي سنة ١٩٤١،نعي أخوها « ابراهيم » إليها وإلى العالم العربي . وشعرت « فدوى » بمعنى الكارثة وبفراغ هائل يكتسح كيانها : فقد كان ابراهيم الضياء لعينها ولقلبها ، واخترمه الردى ، وأصبحت وحيدة تلجلج على درب الحياة وحدها . ورثته بما تحمل في طيات نفسها من كبت سابق ،وحب فائض ،وحرارة عواطف، وألم يأس.

فصدحت تقول :

أيها الهاتفُ من خلفِ الغيوبِ
أما ترى نبع حياتي في نضوب
لم أزل أضربُ في عيش جديب
موحِشٍ كالقفر ، موصول الشقاءِ
منذ أمسى نَجْمُهُ في الآفـــليــن

وفي قصيدة أخرى :

وفي ليلٍ حَياهُ سُهدي
تحرك وجدي
أخ كان نبعَ حنانٍ وحبٌ
وكان الضياء لعيني وقلبي
وهبت رياح الردى الفانيه
واطفأت الشعلةَ الغاليــهْ
وأصبحت وحدي
ولا نـــورَ يهدي
ألجلج حيرى بهذا الوجودْ

واشتهر اسمها « شاعرة » نابغة ومجددة ، ولاسيما بعد أن تخلّت عن نمط الشعر التقليدي والايقاع الرتيب ،وأخذت بقصيدة التفعيلة التي نادت بها « نازك الملائكة » والشعراء الشباب المجددون .

ولكن ما قيمة شهرتها الآن ، وهي تجوس خلال تيه نفسي مدلهم قاسٍ فهي غريبة في هذ الدنيا ، بين قوم لا يفقهون أعماق فؤ دها ولا معانى بؤسها وأحاسيسها :

وكـــان أقسى مــا شجـ ى نفسهـــا
وابتعـــث الراعــب مـــن هـَجْسِها
تــدفقَ الظلْمــة فـــي يوْمِـــها
فـــي غــدها المحروم في أمسِها
ظُلمــةُ عمرٍ كـــل أيــامـــــه
ليــلٌ تَدَجّى في مدى حســّها
النـــورْ ؟ أيــن النــورْ ؟ هــل قطرةٌ
تسيـــلُ منـــه في دُجى يأسها ؟
مـــن أيْنَ والأقــدار قد جففّــتْ
منـــابــع الأضواء في نَفْسها ؟ !

وتحس فدوى أن شخصيتها ثقيلة ، وأن ذاتها قاتمة ، وأن خطاها خائفة مذعورة . وتتكتل عواطف الألم ، والحزن ، والتلهف إلى المجهول ، والقلق ، في ثورة من يأس على وجودها الفارغ ، على حياتها الساكنة ، التي لا تحقق فيها فهماً للكون يرضي لهفتها ، ولا تعطي فيضاً للوجود يملأ نفسها . فقد تكوّن لديها في سكونها المظلم الذي عاشته في حزنها ، إيمان بأن الكون لابد مرتكز على تبادل تعاطفي ،

يربط الأرواح بلحن موسيقي عبقري ، وأن النغمة الواحدة مهما شذبت من نفسها ورقّ صوتها ، هي نشاز إذا لم تندمج في اللحن الكوني العام . فلا كيان إذاً لمن يعيش حياتها ، منعزلاً يجتر روحه ، ويدور مع عواطفه وحولها . وينضج مع مقوّمات آرائها الجديدة ، ومع صدمة الحياة لها بأخيها ، شعرها الوليد الغض فهو رغم قتامة موضوعاته يعمق مع الزمن معنى ، ويجزل لفظاً ، ويشفّ لحناً . وأجمل ما يمثّل هذه النزعة المستجدة في شعرها ، قصيدتها « ضباب التأمل » ، التي تتساءل في نهايتها بلهجة فيها جدية فلسفية ، ممزوجة ببعض تهكم ، وبفكر في انفعال وواقع ، وبموسيقى فيها حرارة وتدفق ، عن معنى حياتها ، معبرّة بألفاظ كلها قفار وفراغ ، عن الخواء النفسي الذي كانت تشعر به امرأة ذلك العصر ، وعن حنين تلك المرأة المصرّ إلى الخصب الحياتي ، والثقة الذاتية ، والإبداع الخالق الخالد .

وتململتْ بقفارِ قلبي ، في فراغِ توَحُدي
نفسٌ تُسائل نفسَها في حيرةٍ و تـــــرددِ
لِمْ جئتُ للدنيا ؟ أجئتُ لغايةٍ فوقَ ظنّي ؟
أملأتُ في الدنيا فراغــاً خافياً في الغيبِ عني ؟
أيُحسُّ هذا الكونُ نقصاً حينما أُخلي مكاني
وأروحُ أخلفْ ورائي فيه جزءاً من كياني ؟
إنْ كانَ غيري في وجودِهِمُ امتدادٌ للوجودِ
صورٌ ستبقى منْهمُ يَحْيَوْنَ فيها من جــديدِ
فأنا سأمضي . لم أُصِبْ هدفاً ولا حققتُ غايهْ

عمرٌ نهايتُه خَواءٌ فارغٌ .. مثل البدايـــه .
هذي حياتي .. خَيْبةٌ وتَمزقٌ يجتاح ذاتي
هذي حياتي فيمَ أحياها ؟ وما معنى حياتي ؟ !

وتمضي الأيام ، وتحب فدوى غير حبها لأخيها . فتتفتق نفسها الحبيسة من خلال الضباب ، وتتساقط الأقنعة الخانقة لذاتها ، وتندفع أناها العميقة مخضوضرة ندية لتحقيق الحياة . ويتفجر منها نسغ شاعريتها المفكرة الصحيحة ، كالماء المنبجس الدفاق ، رقراق اللفظ ، مستقصي المعنى ، خالق الصور . وينسرح أدبها المكتوم ، الذي كانت تفوح منه رائحة الحجرة المغلقة ، نحو عالم أوسع ، وتجارب أغنى ، وجو عاطفي أنقى . وهكذا ينكشف فجر شعرها الحار ، وتتلاطم فيه إشعاعات نفسها المضيئة في حركة متوثبة مندفعة .

ويمكنني أن أقف قليلاً هنا لأطل معكم على مجموع شعر « فدوى » لا كناقدة أدبية متمرسة ، تشرّح بمبضع حسها الجمالي الأدبي ، وتقنيات النقد الأدبي العلمية المتعارف عليها ، ذاك الشعر ، فتفصل غثّه عن سمينه ، وتوضح معاني جماله الجزئية ، أو عيوب ألفاظه وأوزانه وألحانه ، وإنما كقارئة عادية تعتمد على حدسها ، وتؤمن أن الجمال كلٌّ واحد ، يُتذوق ككل ، ويُحَسّ به عفوياً دون تشريح وتقطيع . وعلى هذا الأساس يمكنني أن أصنف شعر فدوى بشيء من الصعوبة في ثلاث مجموعات : شعر الحب — أو ما يسمى عادة شعر الغزل — والشعر القومي ، وشعر التأمل والفلسفة . ويرى نقاد الشعر أن شعرها بمناحيه الثلاثة ما هو إلا صورة صحيحة أو مشوهة من شعر أخيها « ابراهيم » . ومن الطبَعي أن تكون فدوى قد تأثرت

تأثراً عميقاً بشعر أخيها ، وهو مثلها الأعلى ، والذي قادها على طريق الشعر . ولكنني أعتقد أن لشعرها شخصيته المستقلة البارزة ، وطابعه الخاص المتفرد . فهو شعر نسوي ، يتنفس عن أحاسيس امرأة ، وينبثق بصدق ملتهب ، وصراحة عفوية ، من أعماق امرأة . ومن هنا كان النبع غير النبع ، والفيض العاطفي أعمق جذوراً في شعرها ، وأشد تدفقاً ورواءً من شعر « ابراهيم » . بل هو أكثر تحرراً وانطلاقاً وخروجاً عن التقاليد الشعرية الموروثة ، والأوزان العروضية المعروفة من شعر أخيها . إن إبداعها الشعري أصيل،وعفوي،وله طابعه الخاص . وقد يكون الشبه أكبر بين وجدانية فدوى « وأبي القاسم الشابي » ، مما هي بين وجدانيتها وأخيها ، ولو أنه يُحس أن شعر الشابي أكثر غوصاً في مكتنهات الحياة واتجاهاته الفلسفية ، وأكثر انسياباً مع الألفاظ والأوزان من شعر فدوى . وربما ينبري قائل بأنها لابد متأثرة بأبي القاسم ، ولكن الواقع لا يثبت لنا ذلك ، إذ أن الاتصالات الثقافية في تلك الأعوام كما نعلم لم تكن على ما هي عليه اليوم . وربما أن البيئات المتشابهة ، والاحساسات المرهفة ، يمكنها أن تخلق في ظروف معينة متوافقة ، أنغاماً متماثلة . وإن كان هذا لا يمنع من أن تتأثر فدوى بما نشره الشابي في بعض شعرها المتأخر .

إن شعر فدوى شعر وجداني ، يتحلل فيه الجمال إلى أطيافه الصُوَرية والموسيقية ؛ وفيه جدة الموضوع ، وكثافة الفِكَر ،وصدق الواقع ، واتساع أفق الخيال ، وعفوية العاطفة بمختلف ألوانها . وفي شعر فدوى من المستجدات تسلسل الحديث وعذوبته ، والقصة وطلاوتها

وعاطفية المخاطبة المباشرة ، وما تولده من مشاركات وجدانية مع القارىء والمستمع . فشعرها قصة مشوّقة ، فيها حركة وحياة ، ولها بدء ونهاية . فالرابطة المنطقية بين مجموع قصيدها ، تكوّن بموسيقاها ، وتعاطف الفِكَر وتناسقها فيها ، حجر الزاوية في جاذبية شعرها . ويلاحظ أنها تعتمد على الفكرة ذاتها لخلق الصورة ، لا على التشبيه الحسي لخلق الفكرة . وصورها ، إذا اقتبستها من العالم الحسي حولها ، تجسّد هذا العالم بدلاً من أن تصوره فقط . ويُشعر من سياق شعرها ، أن ألفاظها سهلة ورقيقة وتستوعب أفكارها وعواطفها ، وتحمل ثقل معانيها بارتخاء ، وليونة ، ورضا ، ودون تكلف وقسر . وبذلك تساعد على توسيع أفق صورها بدلاً من تقليصها . وتشتعل هذه الألفاظ برنين موسيقاها المنسابة واللامتواترة ، فتبثها بين حنايا القصيد ، وتوحي عن طريق الوسوسة والرنم لون الصورة ، وعمق الفكرة ، ودقة المعنى . وتستخدم فدوى من التفاعيل وأنواعها الجديد والمتغير ، مما يضفي تجدداً وحركة على قصيدها ، رغم قتامة الفكرة أحياناً أو ضآلتها . وأكثر ما يميز قوافيها وحركتها ، انسجامها مع موسيقا النفس البشرية وانسياباتها ، ولو أنه من الصعب أحياناً تتبع سرعة تلك الانسيابات والتآلف معها ، والإحساس بالانسجام اللحني الكامل في تركيبها . وإن المبالغة في هذا التجديد أخذت تُضعف من عبقرية موسيقا شعرها ، وتدخل بعض التكلف والتصنع إلى شاعريتها ، وهذا ما شرع يبرز مؤخراً في قصائدها .

ولا أميل إلى تسمية شعر الحب عند فدوى بشعر غزل ، لأنه لا غزل فيه بمعناه التقليدي المتداول ، الذي ينحني على جسم الحبيب

فيجس انعطافاته ، ويتمايل مع تأوداته ، أو ينكب على الوجه فيعانق تقاطيعه وقسماته ، ويجد ثناياه ولمحاته ؛ ففدوى في شعرها هذا تصف الحب عاطفة إنسانية كونية ، أكثر مما تصف من تحب . وهي سعيدة بحبها أو شقية به ، أكثر من سعادتها بمن تُحب أو شقائها به . فشعرها غزل في الحب لا في الحبيب . وإنه لعمل ثوري على ما أعتقد وتعتقدون ، أن تنطق فدوى ، حبيسة الحصن الاقطاعي ، وسجينة التقاليد والعشيرة ، وابنة نابلس المدينة الصغيرة ، شعر الحب . فالحب كما نعرف جميعاً ، عاطفة محرمة في مجتمعنا على المرأة ، فإذا شعرت بها ، وكثيراً ما تفعل ، عليها ألا تبوح بها ، وإنما تخنقها في الصدر لتتلاشى مع الزمن والكبت . وربما يتبادر سؤال إلى الذهن ، كيف عرفت الحب وهي في سجنها ؟ وهل صدر يا ترى شعرها هذا عن إحساس واقعي صحيح بهذه العاطفة ، أم كان تخيلاً ووهماً ، وتشوقاً ولهفة لما حرمت منه ؟ وتجيبكم فدوى ، بثورة صارخة ، وإيمان صادق، في قصيدتها الجديدة « هو وهي » مخاطبة السائل واسمه « عباس » قائلة :

الحبُّ ؟
أيُّ سجنٍ لا يفحمُ الحبُّ يا عبّاسُ
أبـــــوابَ سوره المغــلقـاتِ
أبوسْعِ السجونِ خنْقُ الأحاسيس
وقتـــــلُ الحياة في الأعـمـــاقِ
من يصدُّ الشلالَ عن سيرهِ الكاسحِ
عـــــن انـــدفـــاعــه الدفاقِ ؟

وتظهر في شعر فدوى صورتان : إحداهما فيها صدق عاطفة ، وحسية ، ورغبة في تحقيق الحياة بمعناها الأرضي . والثانية فيها عمق وخيال ، وتبتل ونقاء ، وتتسامى حتى تتحول إلى حب صوفي كوني . ولا يمكن الجزم — إذ أن شاعرتنا تطبق شفتيها بإصرار ولا تفصح — فيما إذا كانتا تشكلان تجربتين ، أو تجربة واحدة ، ابتدأت بصورتها الأرضية العادية ، ومنع المجتمع أو الظروف ، لأسباب ما من تحقيقها — وتعلمون هنا أن فدوى لم تبن بأحد — فتفرق المحبان ، وتسامت العاطفة ، وامتزجت مع تجربة حبها الأخوي في مراهقتها ، ثم تصعّدت فتحولت إلى حب مطلق بمثاليته ونقائه وصوفيته . . وربما تتساءلون كما تساءلت ، من يكون ذلك الشخص الذي ملك عليها فؤادها ، وفتح أمامها أبواب الحب ، وصقل شعرها ، وملأ كيانها . وللمرة الثانية تحول فدوى الحديث ، وهذا أمر طبيعي ولكن يستدل من سياق الشعر أنه غريب عن نابلس ، أو كان فيها ورحل عنها ، وأنه يعيش عبر الصحاري ، ولعلّه كان يعيش في مصر ويظهر هذا في قولها : « هي في (جرزيم) تُقصيها النوى وهو (بطيبة) ».وأنه شاعر موهوب تعلقت به تعلق الوالهة ، وراسلته مراسلة المحبة ، وبقيت على عهده رغم العوائق التي وقفت في طريق اتحادهما ، تعيش له ومنه ، وعلى البعد . وإن كان يبدو أن تعلقه بها كان تعلق شاعر يحنو على شاعرة ،ويرى في حبها كامرأة أو كشاعرة ، غذاءً لأنانيته وشاعريته .

وفي قصائد فدوى الحبيّة هذه ، تعبر المرأة ربما لأول مرة في حياة مجتمعنا عن عواطفها المباشرة ، عن طريق نفسها لا عن طريق

الرجل ، وبشكل صريح ، وأمين ، وصادق . وفيها تتهادى فلسفة فدوى الخاصة عن الحب والجمال ، وأن الحب هو سر الكون ، وسبب تدافعه الحركي ؛ وهو مبدع الجمال ومعانيه ، ومالىء الوجود . وهو الذي يوزع قطرات هذا الجمال على جدب الحياة ، فيحولها خصيبة ، زاخرة . فليس الجمال إذاً هو القيمة المطلقة التي تبعث الحب في كيان الكون ، وإنما الحب هو الذي يولّد كلّ القيم المطلقة ، ويدفعها متدفقة نحو تحقيق ذاتياتها :

أفي الحُبِّ قُوةُ خَلْقٍ تُحيلُ المحُبينَ كيْفَ تشـــاءْ ؟
تُرى ماالهوى ؟ أهو روحُ الحياه ؟ ترى ما الهوى أهو سر البقاءْ ؟ !

وترقرق في قصائدها الوجدانية انسيابات من الوجد الصوفي ، ستغلب عليها بعد حين . وأجمل قصائدها هذه في ظني ، « من الأعماق» حيث تعرض بواقع واقع ، وعفوية مؤثرة ، وألفاظ تحمل بصدق وحرارة عبء معانيها ، وقواف منسجمة مع ارتفاع موج العاطفات وهبوطها ، قصة حبها : وحدتها القاتلة أولاً ثم ذلك البعث والإشراق الروحي الفجائي اللذين عانقاها فأحالاها جمالاً وإبداعاً . ورغم أنه من الصعب في شعر فدوى عامة ، تقديم مقتطفات فقط من قصيدة أو قصائد ، لأن قصيدها لا ينسجم إلا ككل،ولأن جماله كما أشرنا سابقاً ؛ هو في تلاحق صوره ، ومنطقية عرضه ، فإنني سأحاول ما أمكن عرض مختارات ، لن تسيء إلى القصيد في الصميم :

سِرْتُ وحدي في غُرْبةِ العمرِ ، في التيهِ المعمّى السحيـــقِ
لا أرى غايةً لسَيْري ، ولا أبْصرُ قصداً يوفي إليهِ طريقـــي
مَلل في صميم روحي يَنسابُ ، وفيْضٌ من الظلامِ الـــدفوقِ
وأنا في تَوَحُشي ، تَنْفُضُ الحيرةُ حـــولي أشباحَ رعبٍ مُحيق

سِرْتُ وحدي في التيهِ ، لا قلبَ يهتزُّ صدى خَفْقِه بقَلْبي الوحيدِ
سِرْتُ وحَدْي لا وَقْعَ خَطْوٍ سوى خَطْوي على المجهَلِ المَخوفِ البعيدِ
لا رفيقٌ ، لا صاحبٌ ، لا دليلٌ ، غير يأسي ووَحْدتي وشرودي
وجمودُ الحياةِ يُضْفي على عُمْري ظلَّ الفنـاءِ .. ظلَّ الهمودِ

والتَقَيْنا .. لم أدرِ أيَّ قوىً ساقَتْكَ حتى عبَرْتَ دَرْبَ حَياتي
كَيْفَ كان اللقاءْ ؟ مَنْ ذا هدى خَطْوكَ ، كيف انبعثت في طرقاتي
لَسْتُ أدري ! لَكِنْ رأيتُكِ روحاً يوقظُ الشَوْق في مساربِ ذاتي
ويُذَرِّي الرمادَ عن رُوحي الخابي ، ويُذْكي ناري ويُحْيي مواتي

حدَّقَتْ مُقلتاك فيَّ .. وآلامي بُغَشِّي ضبابُها مقلـتـيـهْ
لَسْتُ أدري ما اسْتجْلتاه ولا ما رآتا خلْفَ وحَدتي الأبـديـهْ
غير أني أبصَرْتُ روحك تهتزُّ انعطافـاً ، في رقـة علـويه
وهنا خِلتني شعرتُ بروحِ اللهِ رَفَّتْ مـن السَماءِ علَيَّـه !

يا لِعَيْنيك ! أيُّ نَفْضَةِ بَعْثٍ أوْجَدَتْها عينـاك في أعْمـاقي
فإذا بالحياةِ عارمةَ النبَضْ ، بفيضِ الحنينِ ، بـالأشـواقِ ..
وإذا بالجمال يعكسُ ألـوانَ رؤاهُ عـلـى مـدى آفاقي
وإذا بي في ظِلِّ حبٍّ عظيمٍ ، مُعجزِ السحـرِ ، مُبْدع ، خلاّق

ومضت بي الأيامْ .. لا أنا صرَّحْتُ ولا لهفتي الحَيّيةُ تبـدو
كَمْ وكَمْ راح يحتوينا مكان وأنا صبوةٌ تـوارتْ ووجَـدُ
كم حديثٍ حدثتني ، كم قصيدٍ هز روحي وأنت تروي وتشدو
وبقلبي السعيـد شيء كعنف الموج يطغى تيـاره ويمـدّ !

ومَضَت بيَ الأيامْ ... والزمن العجلانُ يجري كالهارب ِ المجنون ِ
وسكوني ما انفكَّ يرخي سدولاً فوق رعشات ِ قلبيَ المفتـــون ِ
وتـــلفتٌ فجـــأة وبعمقي نشوة السحـــر والهـــوى المفتون ِ
وإذا قلبيَ المـــرنحُ أشلاء ، عـــلى راحـــة الوداع الحـــزين !

وافترقنا ... وملءُ نفسيَ – لوتدري – أحاسيُس هائماتٌ حيارى
وهوايَ المكبوتُ يَتجَهَّشُ في صمت ، وتهمي دُموعُه ِ أشعارا
كم شجاني وداعك المرُّ ، كم ساءلتُ قلبيَ الممزق المستطـــارا
كيف كان الفراقْ ؟ كيف انزوى وجُهك عني في لحظة وتوارى ؟!

ورافق تأجج فدوى العاطفي ذاك ، وشوقها اللهف للمسافر البعيد ، تمرد عنيف على قيود تفكيرها الجامد ، وعاطفتها المكبوتة . فخرجت من تحفظها الناسك بعد صراع مرير مع ذاتها ، وتلونت عاطفتها المثالية بلون أرضي ، وغدا شعر الحب لديها أكثر حسية في اللفظ ، وأكثر تحرراً وجرأة وأكثر انصباباً على من تحب . ويظهر هذا جلياً في قصيدتها المحببة إليها « غَبّ النوى » ، فتقول :

في غَمرات ِ الذُهول ِ العميق ِ
تـطـــالعني القـــامـــةُ الفارعهْ
فأَشْخَصُ ، ثم أغضُّ حيـــاءً
وأكْسِر مِـــنْ لهفـــتي الجائعهْ
وأُبْدي جمودَ الخليِّ كأنْ لَمْ
تَرُجْ دميَ الـطلعْـــةُ الرائعـــهْ
وتحت جمودي اضطراب عصوفْ
أُداريـــه مُغْضيـــةً وادعـــهْ

وتحت جمودي من العاطفات
أعـــاصيرُ جارفــةٌ دامعـــه
وتنهبُ عيناك وَجْهي وقد عرا
مُهجتَـي منـهمـا مـا عـرا
فَيُمْحى بعينيَّ كلُّ الوجود
ويُمحْىَ بعينيَّ كلُّ الـــورى

ولكن رغم انطلاقها وسخريتها بالعرف والتقاليد كما قالت في بعض قصيدها : « وأغني الحياة أشواق روحي .. أتحدى السجان ، أسخر بالعرف ، بما شاءت التقاليد حولي » ، فحياتها السابقة المحافظة ضمن الجدران ، وانعزالية نفسها ، كانت تحبب إليها دائماً فكرة الهوى المكتوم ، بل كانت تعتقد أن حياة الحب مرهونة بعدم البوح به :

فَسِحْرُ الهوى هُوَ هذا الغموضْ
وسحْر الهوى هـــو هـذا الخَفــاءْ

وقصيدتها « إلى صورة » لتعبر عن هذا المنحى تعبيراً رمزياً مستجداً وجميلاً ، إذا تقول :

فاحْذَري ، لا تُعبرِّي ، لا تبوحي
لا تُبيّــني تأثــراً وانفعـــالا
واكتمــي عنه ما يُزلزل روحيَ
منــه ، واطــوي هوايَ عن عينيهْ

ويلوح لفدوى بعد طول فراق عمن تحب ، وبعد عذاب انتظار ، حلم لقاء مع شاعرها ، فتسكب قصيدتها الرائعة « قصة لقاء » ، وهي

إحدى ذرى شاعريتها . والقصيدة لا تترجرج فيها الفِكَر ، وإنما تهدر فيها العاطفة ، وتضجّ حنايا الشعر بموسيقا جازية صاخبة ، تصوّر ما يمثل لقاء الحبيب بعد طول غياب ، لفتاة مصفدة بالتقاليد ، تسير مع خفر الهوى ، وسحر معانيه ، وتتلهف للمجهول فيه :

وكانَ الغدُ الحُلْوُ يا شاعري تَنَسَّمْتُ في جوّه الناضرِ
شذى الموعد المقبل الساحر
وقلبي في نزَقٍ ثائرٍ يَعُدُّ خطى الزمنِ السائرِ
ويرقُصُ في خِفّةِ الطائرِ...

وأقبلتُ ..روحَ هوى خافقاً... يلاقيه دربٌ ويَطْويه دربُ
أحثُّ خطاي وملءُ كياني رُؤىً لاهثاتٌ وشعرٌ وحبٌّ
وهل أنا إلا خيالٌ يَشُبُّ وهل أنا إلا شعورٌ وقلْبُ ! !

وكان يصوِّر قلْبيَ اللقاءَ وما سيجيء .. وماسيكونْ !
وكيف ستَلْقى العيونُ العيونْ
وكيف سيَصْرُخُ فيها النداءْ نداءُ الحنينِ .. نداءُ السنينْ
فَنخْنُقُه تحت خَفْضِ الجفونْ
وكيف سَتْرجُفُ أشواقُنا وكيف سَتْرعشُ كفٌّ بكفٍّ
وقَلبي وقلبُك معتنقان على راحتينا بشوقٍ ولهفِ

ويفشل اللقاء .. ويعتب الشاعر على فدوى صمتَها ، ووهنَ حبِّها ، مذكراً إياها بحبه ولهفته . وترد عليه فدوى بعتاب رقيق رقة النسيم في « الصدى الباكي » :

شاعري لا تَقْسُ في عَتْبِك ، لا تَظْلم وفائي
أنا حَسْبِيَ قَسْوَةُ الدنيا وإعناتُ القضاء
آه لو تدري بآلامي ، بمأساةِ شبابي
لبكى قلبُك وارتجَّ ليأسي وعذابي

أنا لم أنسَ هوىً فجَّر ألحاني وشعري
أنا لم أنس هوىً رفّتْ به أيامُ عُمْري
أنا أنسى ؟ كيف ؟ لا يا حُلُمَ قلْبي يانجيِّي
لا ومن ألَّف روحيْنا على الحبِّ النقيِّ

أنتَ روحٌ طائرٌ يَشْدُو على كلِّ الغصونِ
يرتوي من خَمْرةِ الحبِّ ومن نَبْعِ الفتونِ
وأنا روحٌ سجينٌ قصّت الدنيا جناحي
نَغَمي يُنبيكَ عني عن مدى عُمق جراحي

ويتحول حب فدوى إلى أثيرية شفافة ، وتغرق في لجته حتى يغمرها وتغمره ، ويتحول المحب إلى طيف وقراق ، يملأ صوفية روحها بنور رفيق :

ومن عجَبٍ أنني لا أراكَ ، ولكن أُحسُّك روحاً هفا
يحن إليّ ويحنُو عليّ ، وينسابُ حولي هنا أو هنا
إذا ما صَحَوْتُ ، إذا ما غَفَوْتُ ، إذا ضجَّ يومي وليلي سجا
رقيقاً شفيفاً كنور الصباحْ ، زكياً نقياً كقطر الندى

أخالك صورة حبٍّ كبيرْ جلاها لعيني وحيُ السما
تهيء روحي لصوفيةٍ وتنفضُ عنها غبارَ الثرى

ويغدر الحبيب .. وتغيض مع هذا الغدر ينابيع المنى من قلب الشاعرة ، وتتحطم على صخر الواقع مُثُلُها .. وتعود لقىً مهملاً . وتشعر هذه المرة أن عواطفها المتقدة آخذة بالانطفاء ، وأنها ستعود إلى أرضها الباردة ، ووحدتها الخاوية ، لا قلباً حاراً يتلهف إلى مجهول الحب ، وإنما قلباً ممزقاً يبكي تحت ثلوج الانفراد القاسية ، آماله الذاوية . وتغالب فدوى بكل ما لديها من حيوية وتشبث بالحياة ، ومن إرادة كالحديد ، هذا الميل إلى الهمود العاطفي . وتعاند مرة أخرى ، بثورة طافحة ، ونقمة عارمة موجة الخبت التدريجي لحياة ذاتها . وقصيدتها الرمزية « نار ... ونار » لهي من أجمل ما قدمت في هذا المعنى . والمقطع التساؤلي الثاني يوضح ذلك الصراع النفسي الحقيقي بين شباب يأفل وخريف يتبدى :

وأسألُ نفسي ، أيْن يغيبْ
شرارُ اللهيبْ
وهل تَحْزنُ النارُ إذ يَنْطَفي

وتخاطب النار قائلة :

أيخْمُدُ مثلَكِ نارُ شعوري
غداً ويؤول لمثلِ هذا المصيرْ ؟
أيَغْشي أُواري رَمادُ السنينْ ؟
أيَهْمُدُ قلبي كما تَهمُدينْ ؟
لماذا ؟ أتدرين ؟ أم أنت مثلي
أسيرةُ جهلٍ ؟
أجيبي .. أجيبي ألا تسمعينْ ؟

وفي ١٩٤٨ تقع مأساة فلسطين ونكبة العالم العربي . ويموت الوالد المجاهد ، وتعج الدار بالوافدين إليها ، وتعيش فدوى في ثلاث ظُلم : كربة وطن فقدت أرضه ، وتشرد أهله ، وكربة بيت اخترم الردى ربه ، وكربة حب فقد نغمة . فتنسلل شاعرتنا من فردية عواطفها ، وانعزالية روحها ، لتندمج بكليتها في محيطها . وأحست لأول مرة بتعاطف قوي مع ما يعتلج في أعماقه ، وشعرت بالحياة تنصبُّ دافقة ثائرة في أضلعها . وينتفض شعرها القومي ويتوهج ، ويطفح بالألم واللوعة ، والحسرة والنقمة ، كما طفح بها جميعاً في السابق شعر أخيها « ابراهيم » . لقد تفاعلت مع مأساة أمتها تفاعلاً صهر ذاتها ... وأهاجها في هذه المأساة ، وملأها حنقاً ، موقف بني أمتها العرب من موطنهم المسلوب وموطنها ، كما أهاجت في الماضي الحزبية البغيضة والتفسخ القومي أخاها .. فصبت حمماً من نفسها على قومها ، وعلى الدول العربية . وقصيدتها « بعد الكارثة » لتنم عن نضوج في الوعي ، وإيمان راسخ بالعروبة وقيمها ، وفهم عام لمجرى الأحداث وتطورها .. وأجمل ما في قصيدتها عنف الثورة النفسية في البدء ، وتعاليها ضاجة محطمة .. ثم خفوتها التدريجي تحت نسمات الأمل ، وعمق الإيمان ببني قومها :

يا وطني ! مالَكَ يَخْنى على روحِكِ
معنى الموتِ معنى العَدَمْ
أأمضَّكَ الجرُحُ الذي خانه
أساته في المأزقِ المُحْتَدِمْ

واخجلتا ! حتّامَ أهواؤهُمْ
تُفرِّقهمْ في الجهادِ المُلْتطِمْ ! !
همُ الأنانيون .. قد أغْلقوا
قلوبَهم دونَ البلاءِ المُلِمّْ

وترتفع موجات النقمة متلاحقة :

يا هذه الأقدارُ لا ترحَمي
فرائس الضعفِ بقايا الرمَمْ
بالمعولِ المحمومِ أهوي على
تلكَ الجذوعِ الناخراتِ الحُطَمْ
واكتسحي أنقاضَ هذا الحمى
من كلِّ ركنٍ خائرٍ .. منْهدِمْ
اكتسحيها وانفضي أمّتي
مما علاها من رمادِ القدَمْ

وتخفت الأصواتُ الحادة العنيفة ، وتتهافت لتعطف وتلين :

ستَنْجلي الغمرةُ يا موطني
ويَمْسُح الفجرُ غواشي الظُلَمْ
فالجوْهرُ الكامنُ في أمتي
ما يأتلي يحْملُ معنى الضُرّمْ

وتمتلىء « نابلس » باللاجئين ، وتعج فجاجها وشعابها بمخيماتهم الممزقة .. ويعج قلب فدوى بالملهبات الحرّى التي تأتكل نفسها ، وتصغي بحرقة لأنات الثكالى ، وصرخات اليتامى ، ظامئةً لا إلى المادة ،

والخبز ، وإنما لأرض الوطن . وتتجاوب هذه النداءات مع خفقات قلبها ، وتتمثل آلام شعبها الشريد في دمها ، فتلفظها شعراً ، عبقري الصور ، نابضاً بالحياة ، ضاجاً بالحقد على العدو ، صاخباً بالنقمة على الظلم والظالمين . وأجمل صورتين قدمتهما هما « نداء الأرض » و« عيد لاجئة » . وفي القصيدة الثانية تقص علينا فدوى بنبرة أسى ، ودمعة سخط ، أحاسيس لاجئة أطلّ عليها العيد . فتتذكر وهي قابعة كالشبح بين الخيام المهلهلة ، حياتها السابقة ، ورفهها الماضي . وأحلى مقاطعها المقطعان الأخيران ، حيث تندفع شاعرتنا بحماستها ، منبهرة الأنفاس ، متلظية العبارة ، محمومة العاطفة ، فتقول مخاطبة اللاجئة :

أختاه !

واليومُ ماذا اليوم ؟ غيرُ الذكرياتِ ونارها
واليومُ ماذا غير قصةِ بؤسكِنّ وعارِها
لا الدارُ دارٌ ،لا، ولا كالأمسِ هذا العيدُ عيدُ
هل يعرف الأعيادَ أو أفراحَها روحٌ طريدُ
عانٍ ، تُقلبُه الحياةُ على جحيمِ قفارِها ؟ !

أختاه !

هذا العيدُ عيدُ المُتْرفين الهانئينْ
عيدُ الأُلى بقصورِهم وبروجِهم متنعمينْ
عيدُ الأُلى لا العارُ حرّكهمُ ولا ذلّ المَصيرْ
فكأنّهم جثثٌ هناك بلا حياةٍ ولا شعورْ
أختاه لا تبكي ! فهذا العيدُ عيد الميتينْ .

وفي ١٩٥١ تغادر فدوى وقد ملأت روحها النكبات ، وغدت ألماً بحتاً ، أرض الوطن إلى مصر ، وتستقبل كشاعرة مجددة فذة . وتتفتح في نفسها الرغبة في الحياة ، والشوق إليها . كما اشتاقتها في صباها الأول .. وتتلهف على مصر ، ولعل فيها حبها . وتصور في قصيدتها « إلى مصر » هذا النغم الجديد المشرق في حياتها ، وشوقها إلى الدنيا بأفراحها .. وتعرض أحاسيسها هذه في بعض مقاطع هذه القصيدة بصورة بثية رائقة ، وبنغم حنون لطيف ، وبشكوى حزينة من حالها في موطنها :

يا مصرُ .. بي عَطَشٌ إلى فَرَحِ الحياةْ .. إلى الصفاءْ
يـــا مصرُ .. نَحْنُ هناك أمواتٌ بمقبرةِ الشقـــاءْ
لا يـطـمـئن بنـــا قرارٌ .. لا يعـــانقنـــا رجاءْ....
لا شيءَ إلا ضِحكــــةُ الهزءِ المـــريـــر على المباسمْ
كالضحكــــةِ الخرساءِ قد يَبِسَتْ على فكّ الجماجمْ

وتعود شاعرتنا إلى نابلس ، وكأنما استهلكت الأحداث المتواترة على نفسها حدة عواطفها . فهدأ ذلك اللهيب العاطفي لتنبعث لهفتها العقلية نحو تفهم أسرار الكون . فاندمجت في عزلة الروح والتأمل ، باحثة هذه المرة عن ينابيع الحياة الخفية ، التي يمكن أن تمنحهاالهدوء والاستقرار ، بعد تلك الثورات وذلك الجموح . وركنت إلى تفكير تساؤلي عميق ينساح إلى ثنايا الوجود. وخطّت تفكيرها هذا شعراً تأملياً يرفعنا عن مستوى العواطف السطحية الفوّاشة إلى آماد الكون . ففيه تدخلنا فدوي بموسيقا تهيم بالنفس ، مجاهل الفكر البعيدة وتيه الوجود . ويشعر القارىء في طيات أبياتها التأملية هذه ، لهفة علمية

متأججة ، وقلقاً روحياً مضنياً لا يجد ارواءً ، وتذبذباً نفسياً ممضاً فيه بقايا ثورة ، وملامح يأس ، وحنين معرفة . ويبدو شعرها في هذه المرحلة لبعض النقاد ، رمزياً غامضاً يخفض من عبقريتها . ولكنني أقول بأن شعرها هذا مع قصيدها الحبي بكل تلافيفه ، يشكلان لجة نبوغها ، وذروة شاعريتها : ففيه انطلاق واستقصاء وتحر ، وانسانية وجمال ، ويأس وصراع ، ورغبة أكيدة في الخلود على الأرض قبل السماء ، وتجديد وابتكار . وأحلى ما فيه تلك التساؤلات الشكية عن المفاهيم الميتافزيقية التي لقنتها في حياتها ، كالموت ، والبعث ، والخلود ، والعدل الإلهي ، تلك التساؤلات التي تتركنا في غسق من أمرنا لا هو بالمنير ولا هو بالمظلم ، ولاسيما بعد أن يكون الانسان قد خاض الكثير من تجارب الحياة ، وبذلك تفتح فدوى أمام الشعر النسائي باب الفلسفة العميق بجرأة :

لیتَ شعْري ،ما مصيرُ الروحِ والجسمُ هَباءْ ؟ !
أترُاها سوف تَبْلى ويُلاشيها الفناءْ ؟
أم تُراها سوفَ تنجو من دياجير العَدَمْ ...
حيث تمضي حرَّةً خالدةً عَبْرَ السُدُمْ ؟
وبساط النور مرقاها ، ومأواها السماءُ ؟ !
عجباً ! ما قصة البعث وما لَغْزُ الخلودِ ؟
هل تعودُ الروحُ للجسم المُلقّى في اللحودِ ؟
ذلك الجسم الذي كان لها يوماً حجاباً !
ذلك الجسمُ الذي في الأرضِ قد حال تراباً !
أوَ تَهوْى الروحُ بعد العتْقِ عوداً للقيودِ ؟ !

حَيْرة حائرةٌ .. كم خالطت ظني وهَجْسي
عكست ألوانها السودَ على فكري وحسّي
كم تطلعتُ وكم ساءلتُ .. من أين ابتدائي ؟
ولكم ناديتُ بالغَيْب إلى أين انتهائي ؟

وتتمادى فدوى في ضرباتها الفكرية الثائرة عبر غياهب الوجود ، فتطلقها صرخة تساؤل متحدية في وجه عدالة السماء :

أليسَ في قُدْرَتِه القادرة
أن يمسَحَ البؤسَ ويمحو الشقاءْ !
أليسَ في قوّتِه القاهرةْ
أن يَغْمُرَ الأرْضَ بِعَدْلِ السماءْ
وراءَها صمتٌ عميقٌ مثيرْ
جلجل فيها مثلَ صوتِ القدَر
لم تَحبِسِ السماءُ رِزْقَ الفَقيرْ
لكنّه في الأرضِ ظُلْمُ البَشَرْ
وأطرقت نهباً لشكٍ مريبْ
يملؤها منه أسىً غامرُ
في روحها اللهفى اضطرابٌ غريبْ
وقلقٌ مستبهم ، حائرُ !...

وتتمايل شاعرتنا المفكرة تحت وطأة اليأس والشك .. والعجز عن الإجابة بوضوح عن تساؤلاتها ، وخبرتها في الحياة وآلامها تزيدها ريبة ، وتزعزع إيمانها . وتحاول مرة أخرى أن تشق طريقها عبر

ظلام الأرض القاتم ، ونكباتها المتعالية ، وظلم البشر ، وأن ترى في هذا الوجود الأرضي وروداً خلال شوكه الذي أدماها كإنسان ، متمثلة قول « الشابي » في بعض أشعاره :

يا قَلْبُ لا تَسْخطْ على الأيامْ ، فالزهُر البديعْ
يُصغي لصيحاتِ العواصفِ قبل أنغامِ الربيـعْ
يا قلبُ لا تَقْنَعْ بشوكِ اليأسِ ما بين الزهورْ
فوراءَ أوجاعِ الحياةِ عذوبةُ الأملِ الجسورْ

فتقول فدوى :

هناكَ غَشَتْها طمأنينـةٌ عُلويةٌ مالمداها حـدودْ
وصاح مـن أعماقها هاتِفٌ ينتظمُ الأرضَ صداهُ البعيدْ
يا أرض! أحزانُكِ مهماقستْ وطبقتْ حولي مجالي الوجودْ
هيهاتَ أن تلمسَ روحاً سرى فيها من الله ضياءُ الخلودْ

وتتنقل نتيجة دعوات أتتها، بين غرب في ستوكهولم ، وشرق في الصين الشعبية ، ولكن جواباً يقينياً مقنعاً لا يصلها عبر سحب تفكيرها العكرة . وتتحسس فدوي ، وقد مالت بها السن إلى النضوج ، وملأها اكتفاؤها العاطفي ، وملها من الكفاح الشكي ، أنها قد تنسمت بعض الحقيقة ، حقيقة هذا الوجود ، الذي ليس إلا ذلك الحب الإنساني الشامل ، الذي عاشت طيلة حياتها تبحث عنه ، وهو قائم في الواقع بين ضلوعها يؤرق ذاتها ، ومنبث في الكون حولها ، يشع في جنباته الحياة والجمال . وتؤمن أخيراً بالخلود ، وتطمئن بعد أن تدرك الوحدة

في الوجود ، إلى أنها قد وجدت ذاتها . والمقطع الأخير من قصيدتها الجديدة « وجدتها » التي ستسمي ديوانها القادم بها ، أي وجدت نفسها الضالة ، يعبر عن منحاها الجديد :

وَجَدْتُها ... يا عاصفاتُ اعصفي
وقنّعي بالسُحُبِ وجهَ السما
ما شئت ، يا أيام دوري كما
قُدر لي ، مشمسةً ضاحكة أوجهمة حالكةْ
فإن أنواري لن تنطفي
وكلُّ ما قد كان من ظلٍّ
يمتد مسوداً على عُمْري
يلفهُ لَيْلٌ على ليلِ
مضى ، ثوى في هُوَّةَ الأمسِ
يوم اهتدت نفسي إلى نفسي

وتنهال بصوفية متبتلة ، وحب لهف ، على هذا الكون المشرقِ الذي ليس هو إلا ذاتها وحبها ، فتطلب الفناء فيه ، إذ أن فناءها فيه هو بقاؤها ، ومشاركتها للطبيعة خلودها . وهكذا تُشْبع في امتداده اللانهائي ، حرمانها السابق من الحرية ، والانطلاق ، وتشدو مترنمة :

أواه ! لوأفنى هنا في السَفْحِ ، في السفحِ المديدِ ...
في العُشْبِ ، في تلك الصخورِ البيضِ ، في الشفقِ البعيدِ

فِي كوكبِ الراعي يُشعُّ هناك ، في القمرِ الوحيدِ
أواه ... لو أفْنى كما . أشتاقُ في كلِّ الوجودِ

تعليق جديد :

ـ كان هذا ما كتب عن « فدوى طوقان » في الخمسينات . وقد نشرت بعد ذلك عدداً من الدواوين الأخرى : (وجدتها) ، (واعطنا حباً) ، (وأمام الباب المغلق) ، و(الليل والفرسان) ، و (على قمة الدنيا وحيداً) . وجُمعت كل تلك الدواوين في ديوان واحد أطلق عليه (ديوان) لفدوى طوقان . وتلك الدواوين تستحق دراسات أوفى وأعمق ، ولاسيما أنها طرزتها بشعر قومي ، تتتبعت فيه أحداث وطنها فلسطين ، ونضال المقاومة والانتفاضة خطوة خطوة . كما أنها أصدرت سيرتها الذاتية في كتاب بعنوان :«رحلة جبلية ، رحلة صعبة » .

قرارة الموجة
الشاعرة نازك الملائكة

محاضرة في الندوة الثقافية النسائية
الساعة السادسة من مساء ٢٨/٤/١٩٦٢

ليس الموضوع – كما ربما تخيّله بعضكم – موضوعاً اجتماعياً تاريخياً ، سنخوض فيه معاً أعماق وجودنا العربي المتلاطم والمزبد ، ونبحث ونستقصي ، ونبدي ونعيد ، لنصل إلى قرارته ، وهذا ما نحياه اليوم بكل كياننا وجوارحنا ؛ وإنما الحديث حديث شعر وشاعرة ، وإن كان يلامس في بعض جوانبه ، حركة مجتمعنا المائجة المضطربة ، وينبطق في جوانب أخرى على وجود إنساننا العربي القلق والمتعثّر . فكلكم يعرف أن « قرارة الموجة » هو عنوان آخر ديوان للشاعرة العربية العراقية « نازك الملائكة » .

ولعلّ اسم « نازك الملائكة » ، وهو ليس بجديد عليكم ، قد استثار في أذهانكم ، إلى جانب ما استثاره ، ما كانت قد بحثت فيه منذ سنة تقريباً الأديبة العربية المصرية « ابنة الشاطىء » ، في المحاضرة الّتي ألقتها في بهو « النادي العربي » بدمشق ، وتعرضت فيها للعطاء

الأدبي النسائي ، وكيف أن الأدباء والمؤلفين العرب . كانوا ولا يزالون يهملون تأريخ هذا الأدب ، رغم أن هناك شاعرات وناثرات ، تعج بهن البلاد العربية ، ويقدمن في كل حين ، لا كتباً ومؤلفات فحسب ، وإنما قيماً جديدة في حياة الأدب العربي ، لا تقل في مستواها الفكري والفني عن مستوى ما تبدعه ، أو أبدعته في هذا المضمار ، شخصيات أدبية بارزة من الرجال . واستدلت على قولها هذا بأن شاعرة كبيرة كنازك الملائكة ، طرحت حتى الوقت الحاضر على الملأ ثلاثة دواوين شعرية ، وكثيراً من المقالات الأدبية . اخرة بعميق الفكر ، وإبداع الفن ، ورفيع الكلم ، لا تزال مجهولة إلى حد ما من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية .

ولست هنا بصدد مناقشة « ابنة الشاطىء » ، ولا التعقيب على قولها ، فربما يكون كثير مما أوردته حقاً ، وإنما أقول إن رداً على تلك المحاضرة في إحدى الصحف قد لفت نظري ، ويلخص بنقطتين . أولاهما ، أن الأدب القيّم الخصيب يحقق ذاته ويؤرخ لذاته ، والثانية أن من واجب المرأة ، وقد تعلمت ، وحملت القلم أن تؤرخ لأدبها . وعلى الرغم من أن هذا الرد كان يحمل آنذاك الكثير من التهكم والتحدي الخفيين ، والكثير من التعصب الجنسي والأنانية ، إلا أنني لمحت في طياته بعضاً من حقيقة : فصحيح أن الأدب الحق يثبت ذاته ، ويغدو إرثاً أدبياً مكتوباً أو متمثلاً ، ولكنه قد لا يؤرخ لذاته . ومن ثم فواجب المرأة ، أرأت تقاعس الرجل في هذا الميدان ، أو لم تره ، أن تبحث في عطاء المرأة الفكري ، وأن تعرّف به ، لا تحزباً لنسويتها ، ولا ادعاءً لفهم أعمق لنفسيته وفنيته ، وإنما إدراكاً أوسع لقيمته ،

لا في مجال الحياة الحضارية عامة فحسب ، وإنما في مجال وجودها هي ، ودفعها كإنسانة ، وكامرأة . وهنا أقول إن عليها ألا تعرّف به الرجل فحسب لتثبت خصوبة فكرها ، ومشاركتها له على قدم المساواة في هذا الميدان ، وإنما المرأة والرجل على السواء . لأنني أظن أن جهل المرأة الأديبة ، والمؤلفة ، بل والعادية ، أو تجاهلها ، هو أكثر شيوعاً من تناسي الرجل الأديب أو غير الأديب ، لأدب المرأة وعطائها الفكري . فإذا كانت المرأة الأديبة أو المثقفة بصفة عامة ، لم تكتب حتى الآن مثلاً ، عن « نازك الملائكة » سوى إشارات عابرة ، أو أطروحة صغيرة واحدة ، قدمتها « السيدة ثريا العمري » لكلية الآداب في الجامعة السورية ، فقد كتب عن « نازك الملائكة » مطوّلاً ، ونقد دواوينها ، وبحث في شعرها وإبداعها ، كثير من كبار الأدباء الرجال ، في العراق ، والشام ، ولبنان ومصر . من أمثال « مارون عبود » ، « وعبد اللطيف شرارة » ، « وعبد الجبار البصري » ، « وميسر صاروخان » ، « ونزار القباني » ، وغيرهم كثيرون . وقد رفعها عدد من هؤلاء إلى سدة الزعامة من الشعر النسائي ، وأفرد لها مكاناً مميّزاً في سلّم التجديد والإبداع . فقد كتب عنها « مارون عبود » عند إصدارها ديوانها الأول ، قائلاً : « هذه خنساء جديدة ، ولكنها مثقفة ، تطلع علينا في القرن العشرين بديوان شعر يدور حول موضوع واحد كديوان خنساء الزمن الغابر . تلك ذوبت شعرها دموعاً على أخويها ، وهذه استحالت عواطفها شعراً حزيناً كئيباً يصحُّ فيه ما قاله الشاعر الفرنسي « موسه » « اضرب القلب فهناك الشعر الذي لا يموت » . ولو يصح لي أن أتمثل « بالنابغة » لقلت لنازك : اذهبي

فأنت أشعر من كل ذات ثديين ، ولو لا ذاك البصير « عمر أبو ريشة » لفضلتك على شعراء الموسم ، وليغضب عليّ ألف حسّان . فلا يخلق النقد غير الأعداء . » وكتب عنها الشاعر « نزار القباني » عند صدور ديوانها الأخير ، في دراسة سريعة لاهثة : » إن نازك الملائكة شاعرة تساوي ثروة . وهي إحدى البنايات الشعرية التي قلّ أن ارتفع مثلها في الأدب النسائي فشعر النساء في أدبنا فطير وليّن العظام . وقد شاركت عوامل حياتية أو دينية ، ووراثية في إعاقته ، وإفقاره ، وتخلفه . وقد كان حتماً على شاعرة مثل « نازك الملائكة » أن تأتي لتمزق الأسطورة .. أسطورة تفوق الرجل على المرأة في ميدان العطاء الذهني ، ولتقود هي ورفيقتها « فدوى طوقان » إلى فتوحات شعرية ، تقوم لها الذرا وتقعد . » وأجمع أكثر النقاد على أن « نازك الملائكة » رائدة من رواد الطليعة في المدرسة الحديثة للشعر العربي ، هذه المدرسة التي لا تزال مثار جدل ونقاش بين الأدباء والشعراء ، والقائلة بأن الشعر القديم بأوزانه الخليلية ، وقوافيه الموحدة ، لم يعد يتلاءم مع تفاعلات النفس البشرية العربية في الحقبة المعاصرة ، التي تواجه أعاصير القلق والتحرق ، وتنفث الثورة الصاخبة . كما أن اللغة العربية التي جمدتها أجيال من المقلّدين ، ودعاة التحنيط ، كادت تفقدها قواها الإيحائية ، وتموت ألفاظها المكررة ضمن أطر ضيقة من المعاني . فنازك كانت من أوائل أولئك الذين نادوا بأن من واجب الشاعر العربي الحديث ، ليساير ركب الأدب العالمي ، أن يمد الألفاظ بمعان جديدة ، وأن ينمي اللغة بحسه المرهف ، واشتقاقاته الخصيبة . وألا يعزف ألحانه الشعرية على وتر واحد من ستة عشر وتراً تتركب منها

آلة الشعر العربي ، كما كان عليه الأمر في الماضي ، وإنما بجوقة موسيقية تتناغم فيها آلات عديدة وترية وغير وترية ، لتمثل واقع النفس الانسانية في جميع انفعالاتها الشعورية واللاشعورية .

وإذا كانت التعريفات السابقة تعريفات أديب يزجيها لأديب ، ومن ثمّ كانت تثبيتاً ودعماً لقيمة فنية جديدة في الأدب ، لما بين الأديب والأديب من تآلف أقوى في الفهم للمضمون الإبداعي ، وإدراك أعمق لمعنى البناء الأدبي المتماسك المتين ، فإن محاولتي للتعريف بـ « نازك الملائكة » وشعرها ، لن يكون على هذا المستوى التقويمي الفني ، لأنها لن تخرج عن كونها تعريف قارىء أدب معجب بأديب . فلا عجب أن يختلف التعريفان بمناهما ، وقيمتهما ، ونوعيتهما .

لقد عرفتُ « نازك الملائكة » في الواقع لأول مرة ، عندما قرأت « ريبورتاجاً » « أو تحقيقاً » صحفياً عنها في مجلة مصرية تدعى « الاثنين» وكان ذلك منذ سبعة عشر عاماً تقريباً . وقد جذبني إليها آنذاك اسمها ، إذ لم أكن قد قرأت شيئاً من إنتاجها . فتخيلتها كما قد يوحي إليك هذا الاسم « نازكاً » و « ملائكة » : فالاسم ناعم رقيق ويعني اللطف والظرف ، والكنية أثيرية شفافة ، وهي شباب ، والعطاء شعر ، وعاطفة ، وموسيقا . أي أنها تبدت لي من خلال ضباب التخيل ، وجهاً مشرقاً ، وعينين باسمتين ، فيهما بريق خفي ، تستشف به غوامض الدنيا حولها ، ونفساً تلقائية متعاطفة ، عميقة الإحساس ، حريرية الملمس . وبقيت هذه الصورة « الدافنشية » في ذهني لها حتّى صدور ديوانها الأول « عاشقة الليل » في عام ١٩٤٧ فإذا بالصورة تهتز ، والابتسامة الحلوة الّتي رسمتها لها على شفتيها تغيض ، وإذا

الجو السماوي المتألق الذي كنت أتوهم أنها تحيا فيه ، يتحول إلى اكفهرار ووجوم ، والعيون الضاحكة اللامعة تتهدل وتكتئب . فديوانها كعنوانه ، يرسم حياة قلق وظلام وألم .

فقد :

رأيتُ الحياةَ كهذا المساءْ
ظلامٌ ووحشةُ جوٍ .. كئيبْ
ويحْلُمُ أبناؤها بالضياءْ
وهمْ تحت ليلٍ عميق رهيبْ

وهي في هذا الخضم اللجب « سفينة تائهة » :

ألقَتْ بها الأقدارُ في لُججَ المنايا والشقاءْ
الريح تَصْرُخُ حولَها وتَضُجُّ في ظُلَم الفضاءْ
والمَوْجُ يَضْربُها ويُلْقيها على شَفَةِ الفناءْ
سارت ولا رُبّانَ يَهْديها إلى الشّطِّ السحيقْ
حَيْرى يُخادِعُها الظلامُ فلا شعاعَ ولا بريقْ
من فَوْقِها هَوْلُ الرعودِ وتحتها اللُجّ العميقْ
سارت وما تدري إلى أيْنَ المصير ، وما الطريقْ .

وإذا كان هذا الديوان قد يصدمك بقتامته وسوداويته ، إذ كما قال « مارون عبود » عنه : « كيفما اتجهت فلا تقع إلا على مأتم ولا تسمع إلا أنيناً » ، فإن قراء العالم العربي وأدباءه، استقبلوا هذا العطاء

النسائي ، بقلب مفتوح ، وذراعين معانقين ، لا للإبداع الفكري والشعري في حناياه فحسب ، وإنما لأنه كان أيضاً خروجاً للمرأة العربية الأديبة من عطالتها وركودها ، وللمرأة المثقفة عامة عن صمتها وانكماشها . فقد انطلقت تتحرك في الوجود العربي المتلاطم حولها، وتعاني بحركية خلاقة ما يعاني ، وتعبر تعبيراً مفتوحاً لا مغمغماً عن ذاتها ووجودها .

وبعد عامين أتبعت « نازك » ديوانها الأول هذا بديوانها الثاني « شظايا ورماد » . ولم يكن في مجموعه أكثر إشراقاً من سابقه . بل إذا كان الألم في الأول ألماً دامعاً رطباً ، فهو في الثاني شقاء جاف وقاس . فقد امتلأت جنباته وأركانه بنفثات الأسى الآدمي كلّه . وإذا كان الديوان الأول يعرض تجربة حياتية حارة ، فإن ديوانها الثاني يمثل صراعاً انسانياً مريراً بين انجراف وراء التشاؤمية الهدامة القاتلة ، التي تدفعها حثيثاً نحو التخلص من الحياة ، وبين الحياة الدفاقة الخصبة التي تفور بين جوانحها ، وتدفعها للمقاومة والبقاء والبناء . ومن هنا كان قلقها المخيف الممزّق ، وتلمسها الحائر . لوجودها ، وهي تخوض معركتها الشرسة ، ضد قيود وأغلال ، وقيم اجتماعية راسخة ، ليست سوى ترسبات ماض آسن راكد :

أريدُ وأجْهلُ ماذا أريدْ
أريدُ وعاطفتي لا تريدْ
أحبُّ السماءَ ولَوْنَ النجومْ
وأمْقُتُها كلَّ فَجْرٍ جديدْ

وأنْفرُ من كلّ ما في الوجود

وأهْربُ من كلّ شيءٍ أراهْ

ففي عُمْقِ نفسي صَوْتٌ غريبْ

يُعلِّم قلبي ازدراءَ الحياه

وفي قصيدة أخرى تقول :

الليلُ يسألُ مَنْ أنا أنا سرُّه القلقُ العميقُ الأسودُ

أنا صَمْتُه المتمردُ

والذات تسآل من أنا أنا مثلُها حيْرى أحدّقُ في الظلامْ

لا شيء يَمْنَحني السلامْ

أبقى أسائلُ والجوابْ

سيَظَلُّ يَحْجُبُهُ سرابْ

وبقيت معرفتي « لنازك الملائكة » معرفة كتاب وفكر ، إلى أن شاءت الظروف أن ألتقي بها وجهاً لوجه في « مؤتمر الأدباء العرب » في بلودان سنة ١٩٥٦ . فإذا بي أمام فتاة في مطلع العقد الثالث من العمر ، نحيلة الجسم ، قصيرة القامة ، سمراء البشرة ، سوداء العينين ، جدلت شعرها الفاحم على كتفيها . وكانت الكآبة تكلل وجهها ، والحزن يسم شفتيها ، والشرود يدور في مقليتها ، والسخرية الصامتة تترسب حول زوايا فمها . وكانت تتحرك باتزان ، وتؤدة ، ووقار ، وتتكلم نادراً ، وبهمسات رقيقة جداً ، تكاد لا تسمع . وإذا ابتسمت ، وهذا قليل ، فإن الابتسامة كانت تضفي على محيّاها ملاحة ودعة .

وتذكرت وأنا أرقب تنقلاتها بين صنوبريات الفندق ، ما كانت قد كتبته عن نفسها في قصيدة « تهم » ، في ديوانها « شظايا ورماد » :

يقولون : عـاشِقَةٌ للظلام تحب الدّياجي وتَهْوى السكونْ
وتُنْشِدُ أشعارها للجبال وترسم أحْلامَهـا للعيونْ
تُحِبُّ الحياة ولكنّهـا تُعكّرُها بخيـال المنونْ
يقولون : جامدةُ الحسِّ تَحيا مع الأمْسِ في حُلُمٍ جامدِ
يقولون : صوفيةٌ فالحيـاةُ تنوحُ على حسِّها الخامدِ
عواطفُها جَمُدَتْ كالنجوم كتَهويمة القمر البارد

يقولون : لكنّني تائهٌ
ألوذُ بصمتي الخفيِّ الغريبْ
أعيشُ حياتي كالآلهه
وقلبي شعورٌ وروحي لهيبْ
أحبُّ الظلامَ ولكنّني
أثورُ على كل أحلامكمْ
أُحبُّ الحياةَ على أنني
أحقرُ موكبَ أيامكمْ

ولا يسع القارىء أمام هذه النفثات القاقة ، الثائرة والحانقة ، إلا أن يتساءل من أي نبع استقت « نازك الملائكة » شاعريتها ، وما هي التجارب الحياتية التي مرت بها ، فعكستها في شعرها ألماً منغصاً ،

وحقداً مريراً . أو بالأحرى ، ما هي العوامل التي دعت الأدب النسائي عامة في هذه المرحلة من حركة مجتمعنا العربي، كي يتسم بسمة الميلانخوليا ، والأسى والضياع ؟ وقد ردت « السيدة عمري » في دراستها لنازك على هذا التساؤل بقولها : « إن أسباب تشاؤم الشاعرة هي مثاليتها ، وحبها للخير ، ونزوعها إلى حياة اجتماعية مثلى ، يسودها الإخاء ، وتبتعد عنها أشباح الحقد ، والقسوة ، والكراهية .. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، إرهافها الشديد ، وحساسيتها اللامتناهية . وفي الحقيقة لم تكن حياة شاعرتنا كلها ظلاماً ، ولكنها لم تسجل لنا إلا الناحية الكئيبة . وما أكثر الشعراء الذين لا يسجلون إلا الألم والشقاء ، أما السعادة ، أما حياتهم العادية فيحتفظون بها في أعماقهم دون أن يتمكنوا من رسمها وتصويرها فتظل غامضة . فهم يعطوننا عن حياتهم صورة غير كاملة . » ولا أخال السيدة عمري قد بنت تحليلها ذاك إلا على القصائد التي تعبر فيها نازك عن مشاعرها المبلبلة تلك ومنها :

حياتي يا شاعري كلّها
حياةُ فتاةٍ من الحالمين
الهيةُ الروحْ لكنها
على الأرضِ حفنَةُ ماءٍ وطينْ
تُعذبُها صرخاتُ الأسى
وتُرعِشُها صدماتُ السنينْ

وربما كان فيما ذكرته « السيدة عمري » كثير من الحقيقة ، إلا أن سوداوية نازك ليست سوداوية سطحية مصطنعة ، وإنما سوداوية

حقيقية وعميقة ، تغرقُ كل شخصيتها ، وتحياها بكل دقيقة من دقائق شعرها . فحتى ألفاظها تسيطر عليها كلمات التيه ، والظلام ، والموت ، والأشباح ، والأفعوان ، والخنجر ، والسم ، والقتل ، والجرح . ولذا فإنني أشارك « السيد عبد اللطيف شرارة » قوله : « إن ما كتبته نازك هو تعبير عن تجربة حيّة ، صحيحة . تظهر معاناتها إياها في كل ما ترسم ، وتصف ، من نفسها ، وحياتها ، ومجتمعها . فهي لا تزيد عن أن تؤرخ بلغة شعرية هذه الحقبة من وجودها ، ووجود الإنسان العربي » . وجود إنسان حيّ أمام مجتمع مقوقع ساكن ، يجترّ كثيراً من قيمة المجمدة الهرمة ، ويلوكها بلذة ونشوة .

والمستعرض لحياة « نازك الملائكة » من شعرها ، ومعرفة الأصدقاء والمقربين لها ، يعرف أنها قد رأت نور الدنيا لأول مرة سنة ١٩٢٣ ، في مدينة « بغداد » . وقد ولدت من أم مرهفة الحس ، تقول الشعر الرقيق بعفوية وانطلاق ، حتى إن نازك تعتبرها أستاذتها الأولى ، وإليها أهدت ديوانها الأخير ؛ ومن والد يعمل مدرساً للآداب العربية في إحدى المدارس الثانوية ، وينظم الشعر أيضاً . وكان لها أخ وأختان ، والأخ وإحدى الأخوات شاعران أيضاً . فالميول الشعرية ميول متأصلة في الأسرة إذاً . ولم يكن في طفولة نازك — على ما يستنبط من شعرها — ما يعكر صفوها . فقد نشأت كالأطفال الأسوياء السعداء ، في أسرة متحابة ، يعطف كل فرد فيها على الآخر ، ولا يضيع واحد منهم في ثنايا الآخر . وهي تتذكر هذه المرحلة من حياتها بحنان ، فتقول :

أسفاً ضاعتِ الطفولةُ في الماضي
وغابَتْ أفراحُها عن جفوني

وهي لو تعلمين أجملُ ما يملكُ قلبي
وما رأته عيوني
حينما كنت طفلة أجهَلُ السرّ
وأحيي في غفلةٍ من شجوني
كالعصافير أملأ الدارَ لهواً وغناءً
وأستحبُ جنوني

وبالطبع ووالدها مدرّس أن تُعلّم نازك ، وأن تُدفع قُدماً في ميدان العلم والثقافة ، ولاسيما وهي تحمل في ذاتها حباً للعرفان ، وفضولاً علمياً لاكتناه الوجود ، وشغفاً بكل ما يثقف النفس . أما التعلم فقد تمكنت أن تصل إلى ما يقارب أعلى درجاته العلمية الرسمية ، دون أن يقف أحد عائقاً في وجهها ، كما حدث مثلاً لشاعرتنا « فدوى طوقان » . ونالت إجازتها في الآداب العربية من الجامعة العراقية ببغداد بدرجة الشرف الأولى . وغادرت العراق سنة ١٩٥١ إلى الولايات المتحدة ، لتنال درجة الماجستير من إحدى جامعاتها ، ثم عادت إلى بغداد لتتابع عملها التدريسي . أما الثقافة ، وهي المعرفة الواسعة ، والمتمكنة ، والناضجة ، لعالمها الإنساني كلّه ، فقد جنتها لا من دراستها المدرسية فحسب ، وإنما من مطالعاتها المتنوعة والكثيرة . فقد انكبت نازك منذ شبابها المبكر على كتب الأدباء والشعراء العالميين الكبار ، واطلعت على تطور المجتمعات ، والحركات ، والمثل ، التي تدفعها ، وأوغلت بحثاً في أحدث النظريات في الفلسفة ، والفن، وعلم النفس ، وساعدها على ذلك معرفتها للإنكليزية ، والفرنسية ،

والألمانية ، واللاتينية . واستهواها أكثر ما استهواها ، الشعر الرومانتيكي الانكليزي ، والمدرسة الرمزية ، والسريالية في الشعر الفرنسي . فقد ترجمت بعض مقطوعات « كيتس » الشعرية وهي « البلبل » أو « القمرية»، و « بايرون » بعض أشعار « تشايلدهارولد » و «! توماس غره » « المقبرة الريفية » . وكانت إلى جانب ولعها بالشعر، تهوى الموسيقا ، وتجيد العزف على العود ، ووهبت صوتاً صافياً حنوناً . وكانت شديدة الإعجاب بألحان الموسيقيين العالميين ، وتتابع أعمال المعاصرين منهم . وكانت مغرمة بموسيقا « تشايكوفسكي » ، حتى بلغ تقديرها حداً رثته فيه بمناسبة مرور أربع وخمسين سنة على وفاته ، قائلة :

سأحبُّ الحياةَ من أجلِ ألحانِكْ
يا بلبلي الحزين وأحيا
— أيها الموت !
إنه الآن فوقَ حقدكَ ، فوق الأرضِ
فوق الفناءِ والنسيانِ
— آه ! لو بعتُ كلَّ عمري
بيوم شاعري يراك فيه وجودي .

ولابد أنها في مرحلة الصبا ، بدأت تتكون أناها الشاعرة . وليس بين أيدينا من قصائدها الأولى آثار ما ، إلا أنه من المحتمل أن يكون ديوانها الأول قد ضم بعضاً من ذلك الشعر . وإنني لأرى أن من أول ما صاغته — إذا صدق حدسي — هو « جزيرة الوحي » ، إذ فيها

تتكلم عن أمنيتها كشاعرة ؛ والنغم فيها فرح جذل ، لا يساير روح ديوانها ، والسبك رقراق وليد . فهي في قصيدها ترنو إلى عالم الشعر وتحلم أن تكون شاعرة :

خُذْني إلى العالمِ البعيدِ
يا زورق السِحْرِ والخلودِ
فلتسرِ يا زورقي بروحي
قد آنَ أن يستفيقَ عودي
حُلْمي وقد صنعتهُ نشيداً
يهشُ من سِحْرِه وجودي
شاعرتي ، حدّقي فهذي
جزيرةُ الشعرِ والنشيدِ
فَلْتبْسِمي يا ابنةَ الأغاني
للشاطىءِ الساحرِ المديدِ
العودُ والشعرُ والأماني
شاعرتي ، فاصدحي وزيدي .

ويبدو أن تفتحها الأول للشباب ، وتطلعها لمعاني الحياة كان طافحاً بالمنى ، وقلبها الغض يفيض بجميع مفاهيم الخير والحب والجمال ، بنقائها الأكمل وصفائها الأسمى . وصدمت في أحلامها عندما مرضت مرضاً شديداً لفها بالسقام ؛ وعاشت لحظات حرجة بين فكي الموت .

ورغم شدة الحمى عليها ، فقد ظلت متطلعة إلى الحياة بكل ذاتها ، ولذا فإنها قاومت المرض بصباها ولهفتها للعيش الحي،وقالت في ذلك:

هـا أنـا بين فـكـّي الموتِ قلبـاً
لم يـَـزَلْ راعشـاً بحبٍّ الـحيـاة
وعيـونـاً ظمأى إلـى مُتَعِ الكو
نِ تنـاجـي مفـاتـنَ الأمسيـاتِ
لَمْ أزَلْ بُرْعُماً على غُصن الـدهـ
ـر جـديـدَ الأحـلام والأمنيـاتِ
فحـرامٌ أن تـَـدْفِـن الآن يا مـوْ
تُ شبـابـي فـي عـالمِ الأمواتِ

وما عدا المرض الذي بلبل لفترة معينة حياة نازك ، فإنه يمكن القول إنها عاشت حتّى العشرين من عمرها في جو متألق صاف ، تنزلق تجارب الحياة على سطح ذاتها فلا تعكره . ولكن حدث ذات يوم على ما يظهر أن أحبت الصبية اليافعة ؛ ولم يقلقل الحدث وجودها ، وإن كان قد أنماه : فهي تعيش حياة طلقة ، كلها أمان وحبور وآمال ، وأتى الحب كحدث طبيعي ليكمل السعادة الدافقة ، لا ليغير نوعية النفس ، وينقلها من خواء مجدب إلى مرج معشوشب نديّ كما فعل مثلاً مع فدوى طوقان . وتمثل ومضته الأولى في روحها قائلة :

لم أدرِ ماذا كان إلا رَعْشةً
في روحي الولهى وقلبي الشاردِ

ويبدو أن من تمسكت به روح نازك كان شاعراً . ولعلّها أعجبت به شاعراً قبل أن تحبه شخصاً ، شاعراً أضفت عليه بخيالها المشبوب ، وعواطفها الريانة المتألقة ، جميع قيم الجمال والمعرفة ، وبنت عالمها على صفاته المثلى . وملك الحبّ كل مشاعرها ، فأنشدت باندفاع :

أحبُّ ... أحبّ .. فقلبي جنون
وسورةُ حبٍّ عميقِ المدى
أحبُّ فروحي حسٌّ غريبْ
يضيعُ لديه جمودي سُدى
حياتي في العالَمِ الشاعريّ
لهيبٌ من الحُبِّ لن تَخْمُدا
وجِسْمي قلبٌ خفوقٌ خفوقْ
سيلبثُ ملتهباً موقَدا

ومع كل تلك الخفقات المتأججة ، فإنها لم تستطع أن تخترق في تجربتها هذه الحاجز النفسي الذي كونته فيها ، البيئة المحافظة التي نشأت فيها ، والتي تنظر إلى مثل هذه العاطفة نظرة رفض . ولذا كانت مرتبكة ، وخجول وكتومٍ ، وتأبى أن تظهر تلك العاطفة المشبوبة لمن تحب :

كيفَ مرّتْ أيامُنا ، كيف مرّتْ
بينَ فلكٍ الأشواقِ والأحزانِ
ملءُ قلبي وقلبك الحبُّ والشوقُ

ولكن نلوذُ بالكتمانِ
كلما حدّثتْك عيناي عنْ حبّي
أعاقبُ عَينيَّ بالحِرمانِ
كَيْفَ يا شاعري كَتَمْنا
ولم يعصِ كيوبيدَ قبلَنا عاشقان
أبداً نلتقي فأُعْرِضُ حَيْرى
وبقلبي الكئيبِ أشواقُ صَبّ
إنها الكبرياءُ تمتلكُ الروح
فيبدو المحبَّ غيرَ مُحبّ

ويظهر أنها أرادت من الحب ، الصورة المثالية له لا الحب الأرضي بدليل قولها مخاطبة من تحب :

دَعْنَي في صمتي ، في احساسي المكبوتِ
لاتَسَلْ عن ألغازِ غموضي وسكوني
روحيَ لا تَعْشَقُ أن تحيا مِثْلَ الناسِ
أنا أحياناً أنْسى بَشَريةَ إحساسي
حتى حبك ، حتى آفاقك تؤذيني
فأنا روحٌ أسبح كالطيف المفتونِ
قلبيَ المَجْهولُ يُحسّ شعوراً علْوياً
لا حِساً يُشبهُه لا وعَياً بشرياً

إذ ذاك أحسُّك شيئاً بشرياً قلقاً
قِمةُ أحلامي ترفُضُهُ مهما أتتلقا

وبعد خمس سنوات من حب هذا نوعه ، غذته بكل طاقات نفسها الحيّرة ، التواقة إلى الأعالي . تبدأ الهزّة العنيفة في شخصية نازك ، ولم تكن الهزّة حباً جديداً ، وإنما انهيار الحب السابق . فلقد طُعِنَت ممن تحب: فَهَل صدمها ببشريته،أو بأرضيته ؟ لايُعرف في الواقع دقائق ما حدث ، وإنما يعرف فقط بأنها صدمت في حبها ، وغدر بها شاعرها :

حُبّيَ الإلَهيّ النقيُ ظَلَمْتَهُ
ووفاءَ روحي الشاعريّ العابدِ
قَلْبيَ الرقيقُ أسأْتَ فَهْمَ حنينهِ
ونشيدِ أحلامي وروحِ قصائدي
وكانَ صباحٌ ، واستَفَقْتُ فلَمْ أجِدْ
من المَعْبَدِ الشِعْريّ إلا رسومَه
تَحَطّمَ تمثالي الجميلُ على الثرى
وألْقى على قلبي النقيّ همومَهُ .

وهكذا تهاوى الصنم الذي جسدت فيه جميع قيمها المثلى كِسَراً ، وقد يكون هناك من أوقع بينهما بدليل قولها مخاطبة من كانت تحب :

كَيْفَ ضاعتْ عواطفي
كَيْفَ أنْسوكَ غرامي وحيرتي ووفائي

مـــــلأوا قلبَــكَ النبيلَ أبــاطيــلَ
وصـــــاغــوا كـــــواذبَ الأنباءِ .

وكان الجرح في ذاتها الخضراء الغضة عميقاً ، عمق المُثُل التي تهاوت :

جُرْحٌ قد مَرّ مساءَ الأمسِ على قلبي
جُرْحٌ يتجثمُ كالليلِ المُعتِمِ في قلبي
جُرْحٌ لم يعرِفْ إنسانٌ قبليَ مثلَهْ
ولن يشكو قلبٌ بشريٌ بعدي مثلَهْ

ويجتاح الاعصار كيان « الملائكية » ، وتملأ التجربة الحزينة عليها نفسها ، فتحيا فيها بكليتها وهي تتحرق : تلوكها يميناً ، وتمضغها يسرة ، دون أن تتمكن من ابتلاعها أو تخفيف حرقتها . وما ديواناها إلا الصدى الحار لإحساساتها الشتّى تجاه تلك التجربة المفجعة . فقد اندفعت بكل قوى شاعريتها الثرة ، تعبر عن تلك الأحاسيس بحرارة لاهبة . والجديد في زفرات نازك أن تلك الأحاسيس تمثل جميع ألوان العاطفة وتحولاتها في أدق أطيافها . فهي تنتقل بحركة موقوتة ، وبألفاظ تحمل باسترخاء ونبضات حية ، عبء معانيها وقوة إيحائها ، وبتكرار يمثل لهاث النفس ولوبانها ، وبقواف تتسق مع هدير العاطفة وخريرها ، بين مختلف المشاعر الذاتية . وبذلك كانت وجدانية واقعية ، أي أنها لا تصف من عواطفها المائجة والمتقلبة ، المثالي الجميل منها فقط ، وإنما جميع التلونات العفوية للعاطفة البشرية المجروحة ، القبيح منها والجميل على السواء . وهذه التلونات العاطفية يمكن أن تنطبق بأحاسيسها لا على ما ولدته صدمة حب خاص بنازك ، وإنما على أية خيبة أمل

إنساني ، أو على انهيار أي مثل أعلى ، أو فكرة مقدسة : فمن إحساس الجرح اللاذع ، إلى الدموع الساخنة السخية ، إلى التلهف والتساؤل ، والحيرة ، والاستعطاف ، ثم الاحتقار الجاف البارد ، فالتمرد العنيف حتى على الوجود .

وها أنا ذي عُمْري احْتِقارٌ وأدْمُــــعُ
وفــي نَفْسيَ الوَلْهى لَظىً وتمــرُّدُ
أحِــنُّ إلى حبِّي الجميــلِ وإن يَكُنْ
أشاحَ عــن التمثالِ جَفْني المُسهَّـــدُ
ومــاذا تبقىَّ الآن ؟ شِلْــوُ حِجــارةٍ
تضيقُ بهـــا نَفْسي وصَخْرٌ مُمَدَّدُ
تعلَّق قَــلْبي بـــالنُجومِ وقَلْبُـهُ
تمرَّغَ في الأوْحالِ والطيــنُ يشهَدُ

وتستقطب التجربة جميع تفاعلاتها النفسية مع ذاتها ومع المجتمع : فتوزع نقمتها على الوجود حولها ، ويصبغ الظلام الروحي نظرتها للأشياء فيه ، فلا ترى إلا جوانبه المحطمة القاتمة ، ولا يستلفت انتباهها على الأرض إلا شقاؤها ، وفي الانسان إلا أحزانه .

أتُرى أبْصَرَتْ عُيونُكَ في الأرضِ
كما أبْصَرتْ عيوني شَقاها ؟
أرأيتَ الأحزانَ في كلِّ قَلْبٍ
ورأيتَ النفوسَ في بَلْواها ؟

أيُّ مأساة حياتي وصباي !

أي نارٍ خلفَ صمتي وشكاتي

ولِمَنْ أرسلُ هذه الأغنياتِ

وحوالي عبيدٌ وضحايا

ووجودٌ مُغرقٌ في الظُلُماتِ .

وتثور بحدة جارفة على عالمها المزيف ، المموه بمفاهيم الحرية والخير ، وما هو في الواقع إلا كذب ورياء وعبودية وتملق بغيض ، وتعبر عن ذلك في أغنية « الهاوية » قائلة :

مججتُ الزوايا التي تلتوي

وراءَ النفوسْ

وراء بريقِ العيونْ

كَرِهْتُ الجفونَ التي تأسرُ

وخلف سَماء ابتساماتها

لهيبُ الحقودْ

كَرِهْتُ ارْتعاشَ الشفاهْ

برَجْعِ الصلاه

ففي كل لَفْظٍ خطيئه

تجيش بها رَغباتٌ دنيئه

وعِفْتُ طموحي وبَحْثيَ الطويلْ

عن الخيرِ والحبِّ والمثُلِ العاليهْ
وحقَّرتُ سعْيي إلى عالمِ المستحيلْ
فخلفَ انخداعي تنتظرُ الهاويه .
– لا أريدُ العيْش !
لا أُريدُ العيْشَ في وادي العبيدِ
بين أمواتٍ ... وإنْ لمْ يُدفَنوا
جُثَثٌ ترْسِفُ في أسْرِ القيودِ
وتماثيلُ احتوَتْها الأعيُنُ
آدميون ولكن كالقُرودِ
وضِباعٌ شَرِسَةٌ لا تؤمَنُ .

وتضيع نازك في دوامة من الأسى ، تنوس روحها وتلوب بين يأس ووحدة ، وتبحث دون جدوى عما يمكن أن يملأ كيانها الفارغ بعد أن اهتزت كل قيمه :

فيا كؤوسَ الأحلامْ ، يا من تَخَيلتُكِ أفقاً تَضُمُّهُ الأضواءُ
آه لو تدركين كيف أُحسُّ الكَوْنَ صَحْراءَ خلفَها صَحْراءُ
ارتوائي ! أواه من حُرَقِ الروحْ ، لماذا تَظَلُّ روحيَ ظمأى
ارتوائي ! هذا السرابُ الذي يَرْكُضُ قلبي وراءه وهو يَنْأى

وفي عام ١٩٥٧ ، وبعد صمت ثماني سنوات تصدر « نازك الملائكة » ديوانها الثالث « قرارة الموجة » . وعندما طالعني الديوان

الجديد ، تبادر إلى ذهني مباشرة بيتان من الشعر كانت قد وصفت بهما الحياة في ديوانها السابق قائلة :

أهذا إذَنْ ما لقبوه الحياه .

خيوطٌ تَظلُّ نُخَطِطها فوق المياهْ...

وتماوجت أمام ناظري تلك التثينات المائية المضطربة التي تشمل – حسب قول نازك – وجودنا المائي . وارتد خيالي والعنوان الجديد يطرقه ، إلى مركز انبعاث تلك الموجات ، أي إلى قرارتها . وقرأت في الديوان قبل أن أفتحه ، محاولة من نازك للكشف عن أعماق وجودها الانساني ، الذي تفننت في ديوانيها السابقين في إبراز ظلام خطوطه بموسيقاها الملونة ، وأفكارها القاتمة ، وهدير نفسها الثائرة . ولعلّ الكثير من الأدباء والشعراء كانوا ينتظرون أن تخرج في ديوانها هذا عن ألحان الظلام النفسي ، والظلم البشري ، والتشاؤم والألم ، والموت والعدم : لأن نضوج مفاهيم الحياة في نفس الفرد ، وفي نفس نازك الشاعرة بالذات ، وتفهمها الخلاق الواسع لتجارب العمر ، ومشكلات الحياة والكون ، وتجاوبها مع البشر حولها ، سيحطم تلك الكآبة الطاغية التي تغلف نفسها ، وتجمد إلى حد كبير مشاركتها الإيجابية البناءة للمجتمع ، والتفاعل الحق مع الحياة بكل متطلباتها ومعانيها . إلا أنها خيبت أملهم ، فلم ير بعضهم في ديوانها الجديد إلا امتداداً لمجموعتيها الشعريتين السابقتين ، بل إنها كانت فيهما أكثر إبداعاً . كما علّق أديب آخر ، بأن الألم الدفين في أعماق نازك لا يزال يسيطر كدكتاتور صغير على كل صفحة من صفحات قرارة الموجة . إلا أنني أرى

أنهم أهملوا في ذاك الليل الدجيّ الذي وصفوه النجوم المتلألئة المنتثرة هنا وهناك ، والتي تمثل في الواقع خلاصة صراعها مع ذاتها المضطربة . خلاصة صراع انساننا العربي المتطور ، وخلقه لذاته الداخلية الأصيلة . فهي تمثل — حسب ظني — قرارة موج الحياة لديها ، إذا كان لموج الحياة من قرار . ففي قرارة الموجة « انتصرت الملائكية » على ذاتها الملدخنة ولمّت شعث ذاتها المتناثرة ، وعادت إلى الإيمان بدفقة الحياة الحارة الخصبة التي تمور بين جوانبها وفي العالم حولها ، فتدفعها وتدفعه من خلق إلى خلق ، ومن خير إلى خير . وربما يقول قائل بأن تلك القذفات الحياتية قليلة . ولكن هل من المنتظر أن يكون القرار واسع السطح ؟ ألا يكفي أن يكون نقطة ، هي مركز انبعاث التموجات المائية ؟ أو بؤرة إشعاع تنير شيئاً فشيئاً سطحاً واسعاً لا متناهياً؟ ففي قرارة الموجة إذاً بعث إرادي للحياة في نفس نازك .

وفي الواقع ، ليس في الموضوعات التي عالجتها نازك شعراً في ديوانها الجديد ، في إطارهاالعام الواسع من جديد . فهي كما وردت في ديوانيها السابقين ، تُصنّف بشيء من التبسيط تحت خطين كبيرين: الشعر الاجتماعي والشعر الفردي ، إلا أن الهالة الرمزية التي سربلت بهما الصنفين كانت أوضح وأقوى .

أما شعرها الاجتماعي فهو صور عن تأثرها بالحياة الاجتماعية الدائرة حولها ، في بيئتها العراقية المحدودة ، أو العربية ، أو في المحيط العالمي . ويمكن تصنيفه في هذا الديوان إلى شعر اجتماعي عام ، وشعر اجتماعي قومي . أما الأول فيدور حول حوادث فردية ، أو جماعية

عاناها الآخرون ، وأثارت في نفسها عواطف معينة وأفكاراً ، لم تلبث أن عممت كثيراً منها ، فسبكتها في قالب آراء فلسفية عن الوجود ، واتخذتها رموزاً لمفاهيم ، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه بشيء من التجاوز ، شعرها الفلسفي الرمزي ، وأحسن مثل على ذلك قصيدتها « ميلاد عام جديد » ، حيث تقول :

يا عامُ لاتَقْرُبْ مساكِنَنَا ، فنحن هنا طيوفٌ
من عَالِم الأشباحِ ، يُنكرنا البشرْ
ويَفِرُّ منها الليلُ والماضي ويَجهلُنا القدَرْ
نَحنْ الذين نَسيرُ لا ذكرى لنا
لاحُلْمَ ، لا أشواقَ تُشرقُ ، لا مُنى
نحنُ العراةُ من الشعورِ ، ذوو الشفاهِ الباهتةِ
الهاربون من الزمانِ إلى العدمْ
الجاهلون أسى الندمْ

وفي شعرها الاجتماعي العام ، كانت نازك ممن وصفهم « ميخائيل نعيمة » بالتواقين إلى الحنين الأكبر ، إلى المحبة الخالصة ، والخير المطلق . ومن ثمّ كانت إنسانة ثائرة بحنق ونقمة لا ينطفيء أوارها ، على ظلم الإنسان للانسان ، وعلى مختلف الأوضاع الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع العراقي بل والعربي ، وتعانيها الإنسانية جمعاء .. فهي غاضبة في قصيدتها « النائمة في الشارع » على البشرية التي تترك فتاة في الحادية عشرة من عمرها ، تنام على بلاط الشارع ، في ليلة ممطرة باردة ، طاوية البطن ، ملتحفة السماء :

إحدى عشرة كانَتْ حزناً لا يَنْطفئ
والطفلةُ جوعٌ أزليٌ ، تعبٌ ، ظمأْ
ولمن تشكو ؟ لا أحدَ يُنصتُ أو يُعْنى
البشريةُ لفظٌ لا يَسْكنهُ معنى .
والناسُ قناعٌ مصطنع اللون كذوبْ
خلف وداعته اختبأ الحقدُ المشبوبْ
والمجتمعُ البشريُ صريعُ كؤوسْ
والرحمةُ تبقى لفظاً يُقرأُ في القاموسْ
هذا الظلمُ المتوحش باسم المدنيهْ
باسم الاحساسِ ، فواخجلَ الانسانيهْ !

وهي حاقدة في قصيدها « الأرض المحجبة » على من حجّب الأرض ، وحرم العاملين فيها منها ومن ثمارها ، وأسلمهم إلى قيود الاقطاع ، وأورثهم العبودية والجوع والعري ، وسلمها هي الأرض إلى من استهوتهم الكؤوس والملاذ ، فقالت على لسان الفلاحين العاملين فيها :

عُمرُنا كان طريقاً مُعْتِماً
حَدَّثونا عن رَخاءٍ ناعمٍ
فوَجَدْنا دَرْبَنا جوعاً وعُرياً
وسَمِعْنا عن نَقاءٍ وشَذى

فَرَأَيْنا حَوْلَنا قُبحاً وخِزْياً
وعَرينا وكَسَوْنا غيرَنا
وكسبنا القيدَ والدمعَ السخيا
أينَ تلكَ الأرضُ ؟ من حجّبَها ؟
نَحنُ شيدْناها برنّاتِ الفؤوسِ
وأجَعْنا في الدُجى أطفالَنا
لنغذيها ، وجُدْنا بالنفوسِ
وزَرعنا وحصدْنا عُمرنا
وَجنَيْنا ظُلْمة الدهرِ العبوسِ
وسقَيْنا أرْضها مِنْ دمِنا
ومَنَحناها لأرْبابِ الكؤوسِ

وأجمل قصائدها في الشعر الاجتماعي فكرة ، وسبكاً ، وثورة طافحة ، قصيدة « غسلاً للعار » . وهي عرض موسيقي حزين لأربعة مقاطع مؤلمة من صورة اجتماعية بشعة ومخجلة ، تتكرر في مجتمعنا العربي : صورة أخ يقتل أختاً له باسم حماية الشرف ، ثم يمسح سكينه الدامية ، ليدخل الحان ، ويعاقر الخمرة ، ويعانق الغواني ، ويتفاخر وهو يقطر عاراً ، بأنه قتل أخته غسلاً للعار . والجديد في القصيدة إبرازها بجرأة وصراحة ، مشكلة اجتماعية أخلاقية خطيرة ، يعانيها مجتمعنا ، وهي ثنائية المفهوم الأخلاقي ،ونوسانه بين طرفين متناقضين :

فما هو مباح مفتوح للرجل ، محرّم على المرأة وقاتل لها . أي أنها توضح بصدق ومرارة ، تفريق المجتمع بين خطيئة المرأة وخطيئة الرجل ، وكأن الفردين من انسانيتين مختلفتين . كما تؤكد فيها سخاء المرأة في العطاء للرجل ، وردّه هو على ذاك العطاء ، ببتر وجودها البشري ، إذا شعر أن بعضاً من تصرفاتها قد يسيء إلى كيانه الاجتماعي :

« أماه » ! وحَشْرَجَةٌ ودُموعٌ وسوادُ
وانْبَجَسَ الدمُ ، واخْتلج الجِسْمُ المطعونُ
والشَعْرُ المُتَموِّجُ عشّشَ فيه الطينُ
« أماه » ! ولم يَسْمَعْها إلاّ الجلاّدُ
وغداً سَيجيءُ الفَجْرُ وتصحو الأورادُ
والعشرون تنادي ، والأملُ المفتونُ
فَتجيبُ المَرْجةُ والأزهارْ
رحَلَتْ عنّا ... غَسلاً للعارْ

وسيأتي الفَجْرُ وتسألُ عنها الفتياتُ
« أين تُراها » ؟ فيَرُدُّ الوحشُ « قتلناها »
« وصمةُ عارٍ في جبهتِنا وغسلناها »
وستحكي قصتها السوداءَ الجاراتُ
وسترويها في الحارة حتى النخلاتُ
حتى الأبوابُ الخشبيةُ لن تنساها

وستهمسُها حتى الأحجارْ

غسلاً للعار

غسلاً للعار

ويعودُ الجلاّدُ الوحشيُّ ، ويلقى الناسْ
« العار » ! ويمسحُ مُدْيته — مزّقنْا العارْ
ورجعنْا فُضلاءَ ، بيضَ السُّمعةِ أحرارِ
يا ربَّ الحانة ، أين الخمر ؟ وأين الكاسْ ؟
نادِ الغانيةَ الكسلى العاطرةَ الأنفاسْ
أفْدي عينيْها بالقرآنِ والأقدارْ
املأْ كاساتِك يا جزّارْ
وعلى المقتولةِ غسلُ العارْ

يا جارات الحارة ، يا فتياتِ القريْة
الخبزُ ستعجنُهُ بدُموعِ مآقينا
سنقُصُّ جدائلنا ونسلخُ أيْدينا
لتظلَّ ثيابُهمْ بيضَ اللونِ نقيّه
لابسمةَ ، لا فرحةَ ، لا لفتةَ ، فالمُدْيه
ترقبُنا في قبضةِ والدِنا وأخينا

وغداً مَنْ يدري أيَّ قفارْ

ستواريناً غسلاً للعارْ .

ولقد تفاعلت نازك مع عديد من المناسبات الاجتماعية المؤلمة التي مرّت على العراق أو على بعض أجزاء الوطن العربي . فعند فيضان دجلة » صوّرت ما نجم من مآسٍ ، وكذلك في « وباء الكوليرا » الذي اجتاح مصر . وإذا كانت تلك الصور كلها حزن ودموع ، وكآبة وأنين ، فإنها في قصيدتها « عيد الهدنة » ، الذي احتفل فيه بانتهاء الحرب العالمية الثانية ، قدمت قصيدة راقصة ، بمعناها وموسيقاها ، لأن المناسبة تجاوبت مع مُثلها الانسانية ، فغنت تقول :

في دميَ لحنٌ من الشوق جديدُ

والمجالي حَواليَّ نشيدُ

ليلتي هذه ابتسامٌ وسُعودُ

طافَ بالأفْقِ فغنّاه الوجودُ

هي يا قيثارتي لحنٌ سعيدُ

هي شعرٌ ، هي وحيٌ ، هي عودُ

هذه الليلةُ للعالمِ عيدُ

وهي يا قيثارتي ، الحُلْمُ الوحيدُ

أما شعر نازك القومي فظهر في تفاعلاتها الحارة مع الأحداث القومية الكبرى لمجتمعنا العربي ، وخاصة مع أحداث فلسطين والجزائر .

فعن الأولى كتبت قصيدة « الشهيد » ، وعن الثانية « الراقصة المذبوحة». وليس في الفكر التي تناولتها في القصيد الأول من جديد، فهي مطروقة المعنى والألفاظ ، وإن كانت الحماسة المتدفقة في ثناياها ، والإيمان العارم بقيمة الاستشهاد في سبيل القضية ، يجعل القصيدة ذات مغزى . أما في « الراقصة المذبوحة » ، فقد أبرزت بنغم صادح صاخب ، ولحن رائع ، وتحدٍ عنيد ثائر ، صورة حيّة لثورة الجزائر . فالقطعة دم وقتلى ، وجراح وضحايا ، ورقص ذبيح مقاوم :

ارقصي مَذْبوحةَ القلبِ وغنّي
واضحكي فالجرحُ رقصٌ وابتسامُ
اسألي الموتى الضحايا أن يناموا
وارقصي أنْتِ وغني واطمَئِني
أسْكِتي الجرحَ . حرامٌ أنْ يئنّا
امنحيه قلبَك الحرَّ المُهانا
وابْسِمي للقاتلِ الجاني افتتانا
ودعيه يَنْتَشي حزّاً وطَعْنا .

وحول الشعر الفردي الوجداني ، أو شعر « الأنا » في قرارة الموجة ، فهو الأغلب في الديوان : وهو تعبير « نازك الملائكة » عن مختلف مشاعرها الناجمة عن تجاربها الفردية الخاصة . أو بمعنى آخر ، الامتداد لمشاعرها التي انبثقت من تجربة حبها الأول وخيبتها في مضماره وأحاسيس أخرى عانتها من تجارب حياتية خاصة في محيطها العائلي .

والجديد في هذا الشعر هو وصفها لتفاعلات عاطفية جديدة ناجمة عن ذكرياتها السابقة ، وتعمقها في ملاحقة تلك التفاعلات ، لا في عقلها الواعي فقط ، وإنما في عقلها الباطن أيضاً . وإن الإحساس الغالب ، والذي يطفح به « قرارة الموجة » ، وتعمل على التعبير عنه هو « الألم » . والطريف في هذا الألم ، أنه ملوّن ، إذ يمكن أن يتلمس القارىء ذرى ثلاثة ألوان منه : اللون الأول : وهو الألم النفسي العفوي ، الثائر ، الخشن . ولا تتمثل ذروته لديها باحتقار ، وبكاء ، وأنين ، ولا بلوم البشرية وسخطها عليها ، كما فعلت في ديوانيها السابقين ، وإنما في بغضاء مريرة لمن أحبت وغدر بحبها . وإذا كان جميع الشعراء على مدى العصور قد أفاضوا في وصف الحب بأنواعه الشتى ، وتفاعلاته النفسية اللامتناهية ، وأبدعوا ، فإنه من العسير أن يرى في الشعر الحديث بل والهجاء القديم ــ حسب علمي ــ من حلّل بغضاء الحب ، الحاقدة ، الأكول للنفس ، ومشاعر الانسان خلالها ، كما فعلت نازك . فقد صورت تصويراً مرعباً ذاك البغض العفوي الطليق ، بألفاظ حرّة ومتدفقة ، تشكل قاموساً لذاتها . وقد يبدو غريباً على نفس شاعرة أن تحس هذا الإحساس ، فالشعراء عادة إلى التسامح العاطفي أقرب . ولكن لعلّ التقاليد ، التي كانت لا تعترف للشعراء إلا بأسمى العواطف وأنبلها ، هو الذي دعا إلى إحجام الشعراء عن طرق هذا الباب ، لا عن انسانية وتسامح . وفي قصيدتها التي أسمتها « عندما قتلت حبي » لا تعبر نازك عن البغضاء المريرة فحسب ، وإنما عن مداها في قتل النفس البشرية ذاتها ، وعن المفهوم الضمني بأن المحبة هي غذاء الذات بل هي الذات ، وأن البغض مهما بلغ مداه ، فإن الحب هو الأبقى ، وأن قتل النفس بالبغضاء هو قتل للنفس ذاتها :

وأبْغَضْتُكْ ، لم يَبْقَ سوى مَقْتِي أُناجيه
وأسْقيهِ دماءَ غدي ، وأُغْرِقُ حاضري فيهِ
وأُطْعِمُهُ لظَى اللعناتِ والثورةِ والنقمهْ
وأسْمِعهُ صراخَ الحقْد في أُغنية جَهمةْ .
ومنْ إغفاءةِ الموتى أُغَذيهِ
وأنْثرُ حوْلَهُ الأشباحَ والظُلَمهْ

وأبْغَضْتُ اسمَكَ المَلْعونا ، والأَصْداءَ ، والظلا
كَرِهْتُ اللونَ ، والنَغْمةَ ، والإيقاعَ ، والشكْلا
وتلكَ الذكرياتُ الحَشِنَةُ ، الممقوتةُ الفظّة
هوتْ وتأكلتْ ، وثوتْ مع الآباد في لحظةْ
وعُدْتُ قصيدةً فجريّةْ جَذْلى
وقُلْتُ الأمْسُ ما عادَ سوى لَفْظه

وكانَ الليلُ مرآةً فأبْصَرْتُ بها كُرْهي
وأمْسي الميْتَ ، لكنْ لَمْ أعْثرْ على كُنْهي
وكنت قتَلْتُكَ الساعةَ في ليلي وفي كأسي
وكنت أُشيّعُ المقتولَ في بطءٍ إلى الرَمْس
فأدركتُ ولونُ اليأْسِ في وجهي
بأني قطّ لم أقتُلْ سوى نفسي

وإذا كانت تلك القصيدة تمثل ذروة الألم الخشن الحاد ، فإنها تنتقل في ديوانها نفسه إلى مرحلة مناقضة تماماً ، يتمثل فيها الألم في صورة صوفية ، ونقاوة مثالية ، لا ترى نفحاتهما إلا عند المتصوفة المتأملين المتعمقين . ولعلّ هذا اللون الثاني من الألم ينسجم مع فترة استعماقه في كيانها ، واسترخائها النفسي ، بعد الهيجان الرهيب الذي عاشته . ولابد أن تقدم السن ، ومرور الأيام ، ومضغها ذلك الألم الخشن الحاد وتفتيته ، ووفاة والدتها سنة ١٩٥٣ ، قد ساعد على ترسب قواقع الحقد في الأعماق البعيدة الغور من النفس ، وانطلاق الأبخرة السامة ، بحيث لم يتبق من عواطف الماضي الفظة سوى نسيم فواح الأريج . أي أن الألم قد تحول في ذاتها — وهذا هو الجديد في مفاهيمها النفسية — إلى لذة مدغدغة ، ونشوة وجدية . وتنفح نازك هذا الإحساس المستجد ، أرق شعرها وأحلاه ، وتنظر إليه وكأنه حب وليد . فإليه كتبت ما أطلق إليه بعض الشعراء الدارسين لشعرها « سيمفونية الألم » :

أفسحوا الدربَ لهُ ، للقادمِ الصافي الشعور
للغلام المُرْهف ، السابحِ في بحْر أريجْ
ذي الجبين الأبيض السارق أسرارَ الثلوجْ
إنه جاءَ إلينا عابراً خَصْبَ المرورْ
إنه أهدأُ من ماء الغدير
فاحذَروا أن تَجْرحوهُ بالضَجيج

وهو يَحْيِي في الدموع الخُرْس ، في بعض العيون
ولهُ كوخٌ خَفيٌّ شُيِّدَ في عمق سحيقْ
ضائعٌ يَعْرفُهُ الباكون في صَمْت عميقْ
. . . .

إنه أجملُ من أفراحنا ، من كل حبٍّ
إنه زَنْبَقَةٌ ألقى بها الموتُ علينا
لم تزلْ دافئةً ترعشُ في شوق يدَينْا

. . . .

إنه منّا ... وقد عاد إلينا

أما اللون الثالث من الألم فهو ذروة الألم البارد ، الألم الذي تود أن تشعرك فيه بأنه لا ألم . فهي تحاول أن تعبر لك عن ذكريات حبها الفاشل السابق ببرود ، وتتكلم عن أحاسيسها في هذا المجال بموضوعية عجيبة ، وكأنها تحلل عاطفة في نفوس الآخرين لا في ذاتها . وتمد تجربتها الأولى وقد أقحلت ، بخيال لا بواقع ، من التجارب المستقبلة . وتشرح نازك نفسها هذا الاتجاه بقولها : « يحدث كثيراً أن تعبر الذات عن نفسها بأساليب غامضة ملتوية ، تثيرها آلاف الذكريات المنظمة الراكدة في أعماق العقل الباطن منذ سنوات وسنوات ، ومئات الصور العابرة التي تمر ، فيحدق فيها العقل الواعي ببرود ، وينساها نسياناً كلياً ، فيتلقفها العقل الباطن ، حتى إذا آنس غفلة من العقل الواعي أطلقها صوراً غامضة . » . ومن الطبعي أن يكون هذا اللون من عطائها – رغم نفحات الفكر البديعة والجديدة فيه ، ضبابياً باهتاً ، يفتقد الخصب الحسي العفوي ، والتجربة الحية ، إلا أنه رغم إرادتها يتمثل فيه ألم بارد – حار ، مكبوت ومبحوح . فهي عندما تتصور مثلاً لقاءً جديداً مع من أحبت ، فإنها تصوره لا بحسية العاطفة المشبوبة ، ودفقاتها الشديدة ، وإنما بمنطق وتحليل عقلي غريبين .

وتتمش موسيقا شعرها ، وقوافيها ، بل وألفاظها ، مع هذا النمط من الانفعال العاطفي — إذا صح التعبير . فتساير المنطق المتسلسل ، والعقل المفكر ، ولا تتمكن من الهيمنة عليهما ، أي لا تتمكن من أن تأخذهما وإياها ، في خطوة فالس راقصة ، زاخرة بالحركة والحيوية ، وإنما هو ذلك المنطق ، الذي يتغلب عليها ويعادل بينها وبين الفكر . ومن ثمّ فقد يشعر القارىء والناقد ببعض تصنع وتكلف في رصف الكلمات ، وانتقاء الألفاظ ، وعدم توافر الانسجام بين مختلف الأنغام . وأجمل قصائدها في هذا المعنى ، « حصاد المصادفات » و « الشخص الثاني » و « الزائر الذي لم يجيء » . وفي القصيدة الأخيرة ، تحلل بعمق ظمأ العاطفة الذي لا يروى بالواقع ،وتحيا على التضخيم الذاتي لتلك العاطفة ، والألم الناجم عنها . فهي تتخيل أمسية مع الأهل والأصحاب ، وهي تنتظر شخصاً كان حبيباً وعزيزاً ، إلا أنه لم يجيء ، فتقول :

ما كنتُ أعلمُ أنكَ إنْ غبتَ خلفَ السنينْ
تخلّف ظلك في كل لفظٍ وفي كلّ معنى
وفي كل زاوية من رؤاي وفي كل منحنى
وما كنتُ أعلمُ أنك أقوى من الحاضرينْ
وأنّ مئاتٍ من الزائرين
يَضيعون في لحظة من حنينْ .

ولو كُنْتَ جِئْتْ ، وكنّا جلسْنا مع الآخرينْ
وَدارَ الحديثُ دوائرَ ، وانْشَعبَ الأصدقاءْ

أما كُنْتَ تُصبحُ كالحاضرين ؟ وكان المساءْ
يمرُّ ونَحْنُ نُقَلّبُ أعْيننا حائرينْ
ونَسألُ حتى فراغِ الكراسي
عن الغائبين وَراء الأماسي ؟

ولو جِئْتَ يوماً — ومازلتُ أوثرُ ألا تجيءْ —
لجفَّ عبيرُ الفراغ الملوَّنِ في ذكرياتي
وقُصَّ جَناحُ التخيُّلِ واكْتأبتْ أغْنياتي
وأمْسكتُ في راحتيَّ حُطامَ رجائيَ البريءْ
وأدْرَكتُ أني أُحبك حُلْماً
وما دمتَ قد جِئتَ لحماً وعظماً
سأحْلُمُ بالزائرِ المستحيلِ الذي لم يجيءْ .

ويلاحظ أن الفكرة الرئيسة التي تسيطر على شعر نازك الوجداني كله ، في موضوع الحب ، هو « الحب المخفق الجديب » ، أو « الحب الميت » . وقد شرحت نازك نفسها هذه النقطة السائدة ، التي لا ترى في شعرها فحسب ، وإنما في معظم أغاني الحب في المجتمع العربي وخاصة العراقي منه ، فقالت : « في الحكايات العذبة التي سمعناها في طفولتنا ، أن فتاة يتيمة عثرت في تجوالها على أمير نائم نوماً دائماً ، وفق حُكْمٍ غَيْبيٍ مقدر بألا ينقذه من نومه إلا فتاة ترضى أن تواصل السهر كل ليلة إلى جانبه لسبع سنين ، تروّح له خلالها بمروحة مسحورة. وقد وقع هذا الأمير من نفس الفتاة ، فسهرت سبع سنوات مروّحة

له ، حتى دنا موعد استفاقته . لكن النعاس غلب على الفتاة الساهرة في الدقائق الأخيرة فأغفت ، وإذ ذاك برزت غريمة سوداء مجهولة ، وانتزعت المروحة من يدها ، وروّحت للأمير دقائق . وعندما استفاق ظن أنها هي التي أنقذته فتزوجها . واستيقظت المنقذة الحقيقية ، فإذا كل مجهوداتها قد ضاعت . » وتضيف نازك : « وإذا دققنا في موقف الفتاة اليتيمة ، وحللنا مشاعرها ، لوجدنا أنها تتصل بحياتنا المعاصرة في العراق اتصالاً وثيقاً . إننا كلنا هذه الفتاة اليتيمة ، وشخصية الغريمة السوداء تملأ حياتنا ، وتلقي ظلاً غامقاً على آمالنا وأفكارنا . وإنها لتنتصب شاخة في كل أغنية من أغانينا ، وهي تبدو متخفية في ثياب : « العذول » ، « والواشي » و« النمام » و « الحسود » . فبدلاً من أن تقتصر الأغاني العراقية على تقديم شخصية المحب بآماله ، وعواطفه ، وأفكاره ، نجدها تقدم شخصاً أقوى منه ، يدحره ، ويحول ألحانه إلى تفجع ولوعة . إن المحب في أغانينا شخصية ضعيفة ، تكثر الشكوى من « العذول » ، ويدحرها الحساد والوشاة ، ويحس بأن قوة أعظم من نفسه ، تلعب بمصيره ، وهو يتضاءل إزاء هذه القوة حتى يفقد قدرته على السلوك الإيجابي ويتحول إلى السلبية » .

وهذا تحليل صادق وصحيح لتجربة الحب الأولى التي عاشتها نازك ، وظلت تعيشها ، وهذا ما قدمته بشكل رمزي رائع في قصيدتها « لعنة الزمان » . وفي الحقيقة ، ليست هذه القصيدة قصيدة عادية . وإنما هي فتح جديد في الشعر العربي المعاصر . فهي أشبه ما تكون في بنائها الفني « بالأوبرا » ، ومن ثم فهي تحتاج إلى دراسة أعمق من هذه الدراسة السريعة اللاهثة . إنها قصة أسطورية رمزية . تخلط بين واقع

ووهم ، وتتكون في جزئياتها من مقاطع ، يختلف كل مقطع فيها عن الآخر ، بنوعية فكره ، وصوره ، وموسيقاه . وهي في مجموعها لوحة فنية متكاملة ، تحس فيها وضوح الخطوط الجزئية ، وعمق الفكرة المغلفة بضباب الرمز ، وتتناغم في موسيقاها مع الحالة والزمن النفسيين اللذين تصورهما ، وتستخدم من الصور الحسّي والفكري منها على السواء . فقد تخيلت فيها أنها عادت تتنزه مع من تحب على ضفاف دجلة في إحدى الأماسي ، وفجأة تظهر الغريمة السوداء على شكل سمكة في النهر ، وكانت « همس نذير أرسلها عملاق شرير ، انذار أسى ودليل فراق » .ويشرع المحبان بالهرب من السمكة ، وهي تلاحقهما كالقدر إلى ما لا نهاية . والمطاردة النفسية الباطنية التي ترسمها نازك ، تشبه إلى حد كبير المطاردة النفسية الواردة في قصيدة « قابيل » أو « الضمير » « لفكتور هوغو »،وكأن الاثنتين من منبع واحد ، مع اختلاف القصة والرمز فيهما . وتفتتح « نازك الملائكة » قصيدها برسم رائع لخلفية اللوحة ، بضربات ريشة خبيرة ، فيها جمال وعنف لوني ، موشح بالضباب . وهذه الخلفية هي « منظر المساء » على ضفة النهر :

كان المغربُ لونَ ذبيحٍ
والأُفُقُ كآبةَ مجروحٍ
والأشباحُ الغامضةُ اللونِ تجوسُ في الآفاقْ
والنهرُ ظنونٌ سوداءُ
والريحُ مراوحُ نكراءُ

والضفةُ أرضٌ جرداءُ
تَمْضَغُها الظُلْمةُ باستغراقْ
كانت خطواتُ الظُلمةِ ترْطُمُ جو الشاطيء في استغراقْ
والصمتُ يفكرُ في الأحداقْ

وكنّا كالأمواجِ الخُرْس
في عينينا لونُ الشمسِ
في وجهينا الوقُرينِ خشوعُ المغربِ والأبدِ الخلاقْ
كنا نَهْمِس كالأنداءْ
كصدى مجدافٍ في الماءْ .

ومَشَيْنا ، لكنِ الحركةْ
ظلّتْ تتبعُنا ، والسمكةْ
تكبُرُ ، تكبُرُ ، حتى عادتْ في حضن الموجةِ كالعِملاقْ
وصرختُ : « رفيقي ! أيُّ طريقٍ
يحمينا من هذا المخلوقِ ؟
لِنَعُدْ فالدربُ يضيقُ ويضيقُ
والظُلْمَةُ مُحكمةُ الإغلاقْ »

ورَجِعْنا ، نَسحبُ قلبينَا
ونَجرُّ كآبةَ ظلّينَا

تَتْبعنا الأحداقُ النهماتُ بنَظْرةٍ هزْءٍ لَيْستْ تُطاقْ
حتى الأغصان المشتبكهْ
عادت تُشْبهُ عيْن السمكهْ
وتُروِّع خطانا المرتبكهْ
والأنجمُ عادَتْ كالأحداقْ
والغَدُ ، والماضي ، والدُنْيا ، وهوانا في تلك الأحداقْ
رَسَبَتْ وتَوارتْ في الأعماقْ

ولكن رغم محاولات نازك في « قرارة الموجة » أن تكسو عواطفها بستار من اللامبالاة ، والعلمية ، والعقلانية ، التي يبدو فيها تأثرها بالمدارس الأدبية الأوربية الحديثة ، وتقليدها لها ، دون أن تتم عملية هضمها وتمثلها تماماً في ذاتها ، فإن قناع المكابرة هذا ، وتظاهرها بالسلبية والبرود والجفاء، قد سقط أخيراً في معركة الحياة الحقة . إذ لا تلبث نازك أن تتمرد على ذاتها المستسلمة للحزن والظلام واللامبالاة ، وتخرج من تلك السلبية المفتعلة ، الممثلة بصفة خاصة بذلك الغوص العلمي النفسي لتحليل كوامن اللاشعور ، والغموض الذي يكتنفه ؛ وتنتقل إلى إيجابية واقعية حياتية ، تدحر ذاتها المقوقعة . وتنساب حزم من النور إلى نفسها ، فتتبدد تلك الحجب الضبابية الكثيفة التي حالت بينها وبين أن ترى الدفء في الطبيعة ، والنور ، والأزهار ، وأن ترى الحق والخير والمحبة في حياة البشر ، ومنعتها أن تحيا الحياة المتوثبة بين أضلعها كما يجب أن تكون الحياة . ومع هذا الكشف الجديد

لوجودها الخلاّق ، تتحول أنغامها الحادة الصارمة ، إلى ألحان عذبة ، ونابضة بحب الوجود ، ومشرقة ، وفيها إرادة حياتية خصبة ، ورقة ، ونعومة ، ودفء ؛ وتلين الألفاظ مع الإحساسات الجديدة ، فتندى بعد جفاف ، وتخضوضر بعد ذبول . وهذه هي القصائد التي تشكل النجوم اللامعة في ديجور ديوانها ، أو هي « قرارة الموجة » . ومن الطبيعي ألا يتم التحول فجأة ، وإنما يمر بمراحل تتفنن نازك فيها ، في التعبير عن انفعالاتها الجديدة . مثل « أغنية لشمس الشتاء » ، « وصائدة الماضي » « وبقايا » . ولن أحلل هنا كثيراً ، فشعرها أمتع محدّث وألذه . ففي الأولى تخاطب « شمس الشتاء » وترمز بها إلى الأمل الدافيء وسط برود اليأس ، وإلى حرارة الحياة ، مطالبة إياها أن تزيل ما عاق بنفسها من جليد الأيام الماضية :

أشيعي الحرارةَ والرفقَ في لمساتِ الرياحْ
ولفيَّ جدائلَكِ الشُّقْرَ حولَ الفِجاجِ الفِساحْ
وهذا التحرُّقُ في شَفَتَيْكِ أريقي لَظاهْ
على طَبقاتِ الثلوجِ الكثيفةِ فوق المياهْ
أذيبي بها قطراتِ الجليدْ
عن العُشْبِ ، عن زَهرةٍ لا تريدْ
فراقَ الحياهْ
فما زالَ فيها رحيقٌ تُخبئه للصباحْ

وفي « بقايا » تخاطب من أحبت سابقاً باستعطاف خجل ، وفيها يتجلى إيمانها بإمكانية عودة الحب :

مُرَّ بي إن شِئْتَ مَسْروقَ الخطا ، مَيْتَ النشيدِ
مرَّ في نَفْسِكَ أعماقٌ مِن الصَمْتِ البليدِ
حاملاً وَجْهَ أبي هَوْلٍ جديدِ
ساحباً أعباءَ قلبٍ من جليدِ
كُنْ إذا شئت خريفياً مملاّ
آه لكن .. ألْقِ ظِلاّ

لتكنْ روحاً يطوفُ العُمْرُ في صمتٍ أليمِ
مزَّقَتْ حُلْمَ صباهْ نقمةُ الجُرحِ القديمِ
فمضى يَلْعَنُ آفاقَ النجومِ
ويُذيبُ الليلَ أقْداحَ سمومِ
لتَكُنْ هدَّمتَ ، لم تستبقِ في صدرِك حبّا
آه لكن أبْقِ قَلبْا .

وفي « صائدة الماضي » تصمم نازك على أن تحيا بكل كيانها ، حياة عطاء وخصب ، دون خوف من غريمة سوداء أو بيضاء ، وأن تقاوم بكل قواها وفعالياتها لتحقق ملء الحياة :

انْتَظِرْني .. غداً سَيَقْذِفُ بي الموجْ
إلى شطِّكَ الغريبِ البعيدِ
ثم تمشي بي السنين إلى بابكْ

بعد البحثِ الطويلِ المديدِ

وتراني حاذفَ الزُجاج

أجرُّ الأمسَ في لهفةِ المشوقِ العنيدِ

أتحدى الصخورَ في الشاطىء العاري

وألوي شموخَها بنشيدي .

سأصيدُ الأحلامَ من أمسنا الهاربِ

حُلُماً حُلُماً ... وراءَ الزمانْ

وألمُّ الأفراحَ من كلِّ ركنٍ

ضائع في مقابر الأحزانْ

ألتقطُ الذكرياتِ دون كلالٍ

من غبار السكون والنسيانْ

ثم أمضي ينير لي وجهُكَ التاريخْ

بحثاً عن حبِّنا المغدورِ

ذلكَ الأمسُ لو عثرْتُ عليهِ

لأبثُّ انتفاضةَ الحيِّ فيهِ

وارتعاشَ الصدى ونبْضَ الشعورِ

ثم نمشي معاً إليكَ

إلى شطِّكَ فوق الأمواجِ ، بين الصخورِ

ويتحول النغم رقراقاً صافياً مع السعادة المنتظرة ، والمنبثقة من أغوار نفسها المعطاء :

سَنَنْحَني معاً في عوالمَ حافلةٍ بالوعودِ
ونَمْلِك ليلاً يبيعُ النعاسَ وعطرَ الورودِ
يَنبجِسُ الماءُ حيث اَمَسْنا أديمَ الثرى
ويَرقصُ حول خطانا بأجنحةٍ من شذى
سنمحو الزمانَ
وننسى المكانَ
هناك ، ونُقسمُ ألا نعودَ
إلى أمسِنا المنطوي .. سِرْبنا

وتفور قواها الحياتية بنار مشبوبة تطرد كل ترسبات الماضي . ويتحول نبع الإسقاء الذاتي شلالاً هادراً بعفوية إنمائية سخية . فتختم ديوانها بأروع قصائدها الحياتية ، فكرة ، وألفاظاً ، وصوراً ووزناً ، وموسيقا . إنها ترنيمة « دعوة إلى الحياة » . وهي ثورة جارفة على الصمت والاستكانة ، والجمود والانطواء . ويتمثل فيها مثلها الأعلى فيما يجب أن يكون عليه انسان مجتمعها العربي . فهي لا تدعو فيه من تحب فقط ، وإنما تدعو ذاتها ، وكل انسان حولها ، ليكون كما وصفته وأرادته . إنه الانسان الذي يصهر المتناقضات في نفسه ، ليجعل منها كلاً خلاقاً مبدعاً ، يزخر وجوده بالمحبة والحركة ، والثورة ، والطموح ، والعبقرية ، والعطاء . وكما أرادت أن تختم ديوانها « بدعوة إلى الحياة » فإنني أجاريها لأغلق الحديث عنها وعن ديوانها « قرارة الموجة » بهذه الدعوة إلى الحياة :

إغْضَبْ ، أُحبُّك غاضِباً متمرداً
في ثَوْرةٍ مَشبْوبةٍ وتَمزُّقِ
أبْغَضْتُ نَوْمَ النارِ فيكْ فكن لظىً
كُنْ عِرْقَ شوْقٍ صارخٍ مُتَحرِّقِ

إغْضَبْ ، تكادُ تموتُ روُحك ، لا تكنْ
صمتاً أُضيِّعُ عنده إعْصاري
حسبي رقادُ الناسِ ، كُنْ أنت اللظى
كن حُرْقةَ الإبداعِ في أشعاري

إغْضَبْ كَفاكَ وداعةً ، أنا لا أُحبُّ الوادعينْ
النارُ شَرْعي لا الجمودُ ولا مهادنةُ السنينْ
إني ضَجِرْتُ من الوقار وَوَجْهِهِ الجَهْمِ الرصينْ
وصَرَختُ لا كان الرمادُ ، وعاشَ عاشَ لظى الحنينْ
إغضَبْ على الصَمْتِ المهينْ
أنا لا أُحبُّ الساكنين

إني أُحبُّكَ نابضاً متحركاً
كالطفل ، كالريحِ العنيفِ ، كالقَدَرْ
عطشانَ للمجدِ العظيمِ ، فلا شذىً
يَرْوي رؤاك الظامئاتِ ولا زَهرْ

الصبرْ ؟ تلك فضيلةُ الأمواتِ ! في
بردِ المقابرْ ، تحت حكمِ الدودِ
رقَدوا ، وأعْطينا الحياةَ حرارةً
نشوى ، وحرقةَ أعيُنٍ وخُدودِ

أنا لا أُحبُّكَ واعظاً ، بل شاعراً قَلِقَ النشيدْ
تشدو ولو عَطْشانَ دامي الحلقِ مُحْتَرِقَ الوريدْ
إني أُحبُّكَ صَرْخةَ الإعصارِ في الأُفُقِ المديدْ
وفماً تصبّاهُ اللهيب فبات يحتقرُ الجليدْ
أين التَحرقُ والحنينْ
أنا لا أُطيقُ الراكدين

قطِّب ، سئِمتُكَ ضاحكاً ، إن الرُبى
بردٌ ودفءٌ لا ربيعٌ خالدُ
العبقريةُ يا فتاي كئيبةٌ
والضاحكون رواسبٌ وزوائدُ

إني أُحبُّكَ غُصةً لا ترتوي
يَفْنى الوجودُ وأنتَ روحٌ عاصفُ
ضَحكٌ جنونيٌّ !، وَدَمْعٌ مُحْرِقُ
وهدوءُ قديس ، وحسٌ جارفُ

إني أُحبُّ تعطشَ البركانِ فيك إلى انفجارْ
وتشوقَ الليلِ العميقِ إلى ملاقاةِ النهارْ
وتَحرُّقَ النبعِ السخيِّ إلى معانقةِ الجرارْ
إني أُريدُكَ نهر نارٍ ما لِلُجتهِ قرارْ
فاغضب على الموتِ اللعينْ
إني مَلَلْتُ الميتينْ .

ملاحظة : أصدرت نازك الملائكة بعد « قرارة الموجة » عدة دواوين منها : « ديوان « شجرة القمر » سنة ١٩٦٨ و « للصلاة والثورة » سنة ١٩٧٨ ، و« يغير اونه البحر » . كما أنها تزوجت سنة ١٩٦١ بالأستاذ عبد الهادي محبوبة . وصدر باسمها كتاب تذكاري ، عنوانه « نازك الملائكة » ، أسهم فيه عدد كبير من أساتذة الجامعات بأبحاث أكاديمية معمّقة ، عن مختلف الموضوعات الّتي طرقتها ، وعن فلسفتها وآرائها ، وعن مدى التجديد في شعرها . وأشرف على إخراج ذلك الكتاب سنة ١٩٨٥ الدكتور « عبد الله أحمد مهنا » .

شاعرة صادحة في قفص
إليزابيت باريت براوننغ
(١٨٠٦ - ١٨٦١)

إنها الشاعرة الانكليزية « إليزابيت باريت براوننغ » ، التي عاشت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر وتوفيت في العقد الأول من نصفه الثاني (١٨٠٦ — ١٨٦١ م) . والسجن الغريب الذي عاشت فيه كان سجن والدها : فقد ربي ذلك الوالد ونشأ كمالك للعبيد ، ولذا عامل أطفاله الاثني عشر كالرقيق تماماً . كان هناك كلمتان رئيستان ضمن مفرداته ، هما فوق كل الكلمات : أمر ، وطاعة . وكانت رسالته لهم أمراً ، وكان واجب الأطفال أن يطيعوا .

ومع ذلك ، فقد كان طيباً وخيّراً لأولئك العبيد الصغار الذين هم من لحمه ودمه ، كما كان طيباً أيضاً مع كلابه . كان ينتزع آخر قطرة ممكنة من إخلاصهم الصافي دون عضة أو نباح . لقد بنى لهم ولزوجه ، ودون أن يستشير واحداً منهم ، قصراً فخماً جداً ، ووضع كل واحد منهم في غرفة مذهبة ، وقفل الباب بالمزلاج :

« فكم من صباح – كما قالت إليزابيت في شعرها – كانت تتوق
أن تتسلل إلى الأسفل ، والبيت كله نائم
وتهرب . . . .
كروح من جسد ، خارج الأبواب
وتجوس عبر المجنبات ، وتسقط في الممر بين الأسيجة
وتتجول في التلال ساعة أو ساعتين
ثم تعود ، قبل أن يستيقظ البيت ثانية ويتحرك .

ولكن « الأَمَة » يجب ألا تتجول بعيداً عن عيون سيدها . إن المغامرات الطبيعية للأطفال الآخرين لم تكن لها ، فعليها أن تكتفي إذاً بمغامراتها الفكرية ، أو بالأحرى الخيالية الوهمية . فهنا لا يضع لها والدها « السيد باريت » عوائق ما . وبالفعل ، فإنه شجع اللعب الكامل لخيالها ، فبدأت تَشْعُرُ منذ المهد ؛ وكانت فخورة بوهبتها الأدبية المبكرة هذه ، كما وكان هو أيضاً فخوراً بها . وسمح لها أن تطوف في مكتبته وتقرأ ، إلا أنه بيّن لها بأنه يجب أن تقرأ الكتب التي في هذا الجانب ، لا الموصوفة في الجانب الآخر . لأن في الجانب الآخر هذا ، كانت هنالك الكتب الممنوعة ، مثل تاريخ « غيبون » ، و« توم جونس » لفيلدينغ (١٧٠٧ – ١٧٥٤) وما يشابهها . أما في الجانب المسموح به فيقع أفلاطون ، وشكسبير ، وهومر ، وميلتون ؛ وفي هذا الجانب كان « هناك كتب أخرى ممنوعة » لم يشك « السيد باريت » بأن ابنته ستقربها ، مثل كتاب « عصر العقل » « لتوم بين » « والقاموس الفلسفي » لفولتير ، «وفيرتر» لغوته، « ومقالات هيوم » .

كانت روحاً قوية في جسم ضعيف ، كانت طفلة فاتنة تتجول في عالم من الغبار الخيالي فقد قالت : « لقد كانت الكتب والأحلام هي التي أعيش فيها وأتجول وبخاصة كتب « هوميروس» : حصار طروادة ورحلات « أوليس » ، ومأساة هكتور » ، حتى أنها اقتطعت في حديقتها قسماً من المرج وحوّاته وجهاً عملاقاً لهكتور ، وزرعته بعيون زرقاء ، ووجنات حمراء ، ودرع مذهب .

لقد كانت شاعرة ، ففي الثامنة من عمرها فقط أسعدت أسرتها بمجموعة جميلة من القصائد الغنائية والشعبية . وفي التاسعة قدمت لهم ملحمة . وفي العاشرة ألفت مأساة فرنسية ومثلتها وأخوتها في غرفتهم . وفي الثالثة عشرة أكملت ملحمة في أربعة أقسام رئيسة عن « معركة ماراثون » اليونانية . وكان والدها يتيه بها فخراً ، ولا سيما ملحمتها تلك حتى إنه طبع منها خمسين نسخة . وكانت هي سعيدة بفخر والدها بها حتى إنها أهدت ملحمتها تلك له ، قائلة : « إلى الأب الذي لن أتمكن أبداً أن أكافىء طيبته التي لا تحد ، ولا عطفه الذي لا يكلّ ، أقدم هذه الصفحات .. كاعتراف بالجميل » .

وكانت كغيرها من أخوتها ، تقدس أباها الطاغية الطيب . وقد وظف لها ولأخيها « إدوار » وهما الأكبر سناً بين الأطفال معلّماً . وكانت التربية الممنوحة تقليدية بحتة . ولكن الحساب كان واحداً من ممنوعات « السيد باريت » . ولذلك ظلت إليزابيت حتى نهاية حياتها ، تغبط الناس الذين يمكنهم أن يضربوا رقم ستة بثلاثة دون أن يعدوا على أصابعهم . لقد كانت ضعيفة في الحساب وفي الوقت ذاته وثنية في

المعتقد . فتحت تأثير معلمها — وكان أعمى — غدت مولعة بآلهة الاغريق القديمة ، حتى كانت تقدم ضحايا سرية لهم . ولم يعرف والدها شيئاً عن نزعاتها تلك ، بل شجع دراساتها اليونانية . فهو مسيحي تقي ، ولابد أنه كان سيصدم حتماً لو سمع صلاتها الليلية وهي تقول :

« أيها الإله ، إذا كان هناك إله ، أنقذ روحي إذا كانت لي روح » .

وظلت هكذا حياتها ، تقرض الشعر ، ولا تثور على واقعها . إلا أنها وهي في السادسة والثلاثين من عمرها بدأت تقوم بالحركة الأولى المتثاقلة في الثورة المفتوحة : فقد اختارت للترجمة من الإغريقية التي تتقنها ، أكثر القصائد اليونانية الثورية القديمة وهي « بروميثيوس » للأديب اليوناني الشهير « أيسخيلوس » . فمن المعروف في الأسطورة الإغريقية أن « بروميثيوس » هذا قد تحدى رب الأرباب ، وكبير الآلهة ، « زياس » ، لصالح الانسان ، فسرق النار التي كانت الآلهة قد خصت بها نفسها ، وحملها إلى الانسان ، وعلمه مختلف الفنون التي تمثل المعرفة الحضارية الأولى . وأسطورة « بروميثيوس » هذه كانت مدار قصائد عديدة لكبار الشعراء الرومانتيكيين في القرن التاسع عشر من أمثال « بيرون » ، « وشيلي » ، وشليغل ، وغيرهم ، لأنها كانت تعبر عما يجيش في نفوسهم من ثورة ، وفي الوقت نفسه ، من حب للإنسان . ففي اختيار « إليزابيت » لهذا الموضوع ، بدت وكأنها تريد أن تجابه سلطة « زياس » المتمثل بأبيها ، وتحتج على ظلمه .

ومع ذلك كان عملها صورة رقيقة وناعمة من الاحتجاج والثورة . فترجمتها لـ « بروميثيوس » كانت تلميحاً ، أكثر منه إعلان موقف

صريح تجاه استبداد أبيها . وكان تلميحاً لا شعورياً أكثر مما هو تلميح شعوري ، لأنها هي نفسها لم تكن لتعلم أن والدها كان على خطأ في تصرفه تجاه أولاده . كانت رازحة تحت ثقل قيودها ، ولكنها لا تزال تشعر بشكل مبهم ، بأن تلك القيود هي لصالحها ، كما قال لها أبوها . من المؤكد أن والدها هذا لم يكن طاغية دون قلب ، فقد يبدو لطيفاً جداً أحياناً ، ومفكراً ومتزناً ، وكله ذوق ، وصاحب نكتة ، ومزاج حسن ، وهذا يكون عندما لا تُعارض إرادته . وكان يحمل الكتب الكثيرة إلى ابنته ، تلك الكتب التي يستحسنها فقط ، كما كان يأتي لها بالصور الفنية الشهيرة ، كصور رامبرانت ، وتيسيان ، وأندريا ديل سارتو ، أي أنه كان يجلب لها كل شيء يمكن أن يسرها شريطة أن يعجبه أولاً . وربما ازداد عطفه عليها بعد أن غدت عاجزة عن الحركة ، إذ أن التهاب الرئتين الذي أصابها في سن المراهقة قد أوهن قوتها ، وكاد يقضي عليها . وهكذا كانت تبقى طيلة الوقت في غرفتها ، ونادراً ما تفتح النافذة ، أو تكشف الستائر لتدخل الشمس . كانت تحس بأن والدها عطوف جداً عليها ، إذ كان يقرأ لها أحياناً ، وأحياناً أخرى يحمل إليها ما تطلبه من أدوية ؛ فهو لم يكن يحبذ تلك الأدوية ، ويقول لها : « قللي من الطب ، وأكثري من اللحم » ، ولكن عندما كانت تلح على الدواء ، فإنه كان لا يتوانى أبداً عن إحضاره لها .

ولكن كان هناك شيء لا يمكن أن تحصل عليه منه ، وهو رفقة غير رفقته . لقد كان غيوراً بشكل مَرضي من إمكان حب أولاده لإنسان غيره هو ، فهو لا يمكنه أن يتخيل أن يقاسمه أحد حبهم له . فلم يدع يوماً أحداً على العشاء حتى لا تتشتت مشاعرهم عنه ، ولم

يسمح لأولاده بالمقابل أن يدعو أحداً . فيجب ألا يصاب « آل باريت » بعدوى حديث غير « باريتي » . أما المحادثات في الكتب ، التي كان يسمح لأطفاله بقراءتها ، فهي تلك التي خضعت لمراقبته ووافق عليها .

أما بالنسبة « لإليزابيت » ، فقد كان هناك استثناء واحد حول رفقتها ، فقد سمح لها بمرافقة كلبها « فلاش » . وكان هذا الكلب أكثر شخصية هامة في « ويمبول ستريت » : لقد كان الطاغية الصغير في الأسرة كما كان « السيد باريت » الطاغية الكبير : لقد كان كسلاً ، ولونه نبيذي ، ومتأنقاً في طعامه كسيدة مدللة . وما كان يأتي لتناول طعامه إلا بعد ملاطفة طويلة وتحبب . وإذا لم يكن الطعام مهيئاً على ذوقه ، فإنه كان يستدير عنه بامتعاض . فلحم دجاجه وخرافه يجب أن تُشوى شيّاً لا أن تسلق سلقاً . وإذا أحضرت له قهوته مع الفطائر شربها ، وإلا فإنه يبتعد عنها . والمعكرونة يجب أن تمزج بالسكر والقشطة ، وإلا فإنه لن يقربها . وبصورة عامة ، كان لا يحب الملح ، إلا أن جبنته يجب أن تملّح وأمام أنفه ، قبل أن يتلطف ويلمسها . ويجب أن تقطّع لحمته إلى قطع صغيرة ، وأن يطعمها من يد حنون ، بالشوكة ، وإلا فإنه لن يأخذ منها شيئاً !

ومع كل حساسياته تلك التي لا تطاق ، فإنه كان مسلاة الشاعرة العاجز ، وموطن قلقها الدائم . إذ كان له طريقة في التجول في الطرقات بحيث أنه كان يُقبض عليه من قبل لاقطي الكلاب ؛ وما كان ليعاد إلى صاحبته إلا بعد دفع غرامة عشرة جنيهات . وكانت إليزابيت تقول بأنه يفعل ذلك عن قصد . ومع ذلك فقد كانت دائماً تشعر بالسعادة بعد أن تدفع الغرامة وتستعيد طاغيتها الصغير . وكان بالطبع

ينبح عند مجيء غريب إلى البيت ، ولا يسمح لأحد أن يأخذ منه سيدته ، حتى ذلك الشاب الجميل الذي أخذ يتردد على المنزل بين آونة وأخرى ، في غياب « مستر باريت » ، ليزور « إليزابيت » ويتحدث معها . كان لا يحب تلك الزيارة أبداً ، وقد أظهر ذلك في زمجرته أول مرة ، ثم في همهمته الدائمة . وربما كان يتمنى لو يستطيع أن ينبه « مستر باريت » بأن ابنته تستقبل هذا الشاعر الشاب .

لم يكن « مستر باريت » يعرف أن هذا الشاعر يأتي إلى ابنته ، كما كان لا يعرف أيضاً بأن هذا الشاب قد راسلها لثمانية عشر شهراً قبل أن يقوم بزيارته الأولى لها . فهذا كان أحد سرين حفظتهما إليزابيت عن والدها : الكتب الممنوعة والحب الممنوع . لقد حدد لها والدها الجانب المسموح به من المكتبة والممنوع ، إلا أنه كان يندخل بين الكتب المسموح بها كتاب ممنوع ، وها هي تدخل شخصاً غريباً ممنوعاً أيضاً . فكتاب « عصر العقل » ، وشخصية « روبير براوننغ » ، أي المنطق والحب ، وجدا أخيراً طريقهما إلى السجن الغريب ، سجن إليزابيت باريت ، والسجان نائم ؛ ولكنها كانت ترتعش لمجرد تفكيرها بما سيحدث عندما يستيقظ السجان من نومه .

وفي الحقيقة ، عملت « إنيزابيت » لمدة طويلة لإحباط محاولات الرسائل التي أمطرها بها الشاعر « روبير براوننغ » ، وكذلك الزيارات التي كان يلح عليها فيها . لا لأنها كانت لا تدخل البهجة إلى نفسها ، بل على النقيض من ذلك ، كانت تحمل إليها أجمل سعادة أحست بها . ولكنها كانت خائفة من ردة فعل أبيها فعليها دائماً أن تطيعه ،

وتتقبل ما يمليه عليها . لقد حاولت مرة أن تجابه وتصر على موقفها فكان لذلك نتائج مأساوية ظلت تقلقها حتى أواخر حياتها . فقد أصرت مرة أن تذهب في نزهة إلى شاطىء البحر برفقة أخيها « إدوار » المقرب جداً إليها . وعندما اقترحت الأمر على والدها ، ثار وغضب وقال : « فسحة ونزهة لامرأة أمر غير معقول ! وبالنسبة لرجل ، هل سمع أحد بمثل هذا ؟ » ومع ذلك ظلت ترجو والدها أن يسمح لأخيها بمرافقتها ، وأخيراً قبل قائلاً : « حسن يا إليزابيت ، ولكن تقع عليك المسؤولية كاملة » . وأجابته : « أنا أتحملها كما تريد يا والدي » .

وهكذا ذهب معها أخوها إلى « توركوه » Torquay . ولكن حدث في يوم وهو يجدف في الميناء مع شاب آخر ، إذا بعاصفة شديدة تغرق الاثنين .

ومنذ ذلك اليوم ، غدت في خوف قاتل من أن تأخذ أية مسؤولية دون موافقة والدها . ولذلك فبشعور فرح ممزوج بخوف وقلق ، تلقت رسالة من « روبير براونغ » . فقد كانت نشرت ديواناً لقصائدها فكتب لها هذا الشاعر « الحقيقي » ، الذي كانت ترى أن شعره يفضل شعرها ، كلمات جميلة جداً ؛ لقد ابتدأ رسالته لها قائلاً « إنني أحب أشعارك من كل قلبي .. نعم إنني أحب أشعارك من كل قلبي ، عزيزتي الآنسة باريت ، وإنني لأحبك أيضاً . » . وقرأت الكلمات الأخيرة مرة ثانية ، إنها كلمات حب بسيطة وعفوية من شاب محب . ولكنها تساءلت وهي تلتقط أنفاسها : هل لهذه الكلمات من معنى وهما لم يلتقيا أبداً ؟ ولعله لا يعرف أيضاً بأنها عاجز . ومن المؤكد أنه لا علم له بأنها قاتلة ، ألم تجرّ أخاها إلى الموت بيديها بمعارضتها

لإرادة أبيها ؟ ! لقد طلب منها هذا الشاب الشاعر أن يزورها ليتعارفا وجهاً لوجه ، ويتحادثا في الشعر . إلا أنها وقفت من طلبه هذا موقفاً صلباً ، فعلى الرغم من خفقان قلبها لوسوسات كلماته الجميلة ، كانت ترى بأنه يجب ألا يراها ، حتى لا يصاب بخيبة أمل . فيجب أن يبقيا بعيدين عن بعضهما لصالحه أولاً ، وطاعة لوالدها .

ولكن من هو الشاب « روبير براوننغ » الذي اخترق جدران سجنها بكلماته الخلابة ، وبرسائله التي تفيض حناناً وعطفاً ؟

لقد كان « روبير براوننغ » هو الشاعر الشاب ، الذي بدأ اسمه يلمع في سماء الشعر في انكلترة في العقد الرابع من القرن التاسع عشر . والذي استهواه الشعر منذ طفولته المبكرة جداً، ولم يكن يتجاوز العاشرة من عمره عندما حوّل قصائد « هوراس » إلى العروض الانكليزي ، وكتب قصائد أخرى تنضح بغليان من العواطف . لقد ورث عن أبيه ، موظف المصرف ، تفاؤله الواسع وصورته الجميلة ، وعن أمه حب الشعر والموسيقى ؛ وقد درس اللغات والفنون ، وأجاد العزف على البيانو ، وساح في أنحاء أوربا ليكتسب تجربة في الحياة كان يريد أن يكون شاعر الحياة ، والفرح والأمل . وأكثر ما أحب من البلاد كان إيطاليا ، ولذلك كان يقول دائماً : « كانت إيطاليا هي جامعتي » ؛ وعندما قدم قصائده المسماة « Paracelsus باراسيلسوس » أثار في الأوساط الشعرية اللندنية اهتماماً وتقديراً . « إن هذا الشاعر الشاب لديه ملامح عبقرية . إنه « تشوسر » آخر .. « وهنأه عدد من زملائه ومنهم الشاعر « ورث ورث » . وأتبع قصائده تلك بأخرى ، إلا

أنه كان غامضاً في كثير مما طرح ، على الرغم من جمال الصور واللحن . ولكن كانت الأيام تصقله ، وعندما بلغ السابعة والعشرين من عمره تعلم كيف يفهم الحياة لأنه عرف الحب . ففي يوم من الأيام ، وهو يفتح ديوان شعر ويقرأ بعض ما ورد فيه ، أحس بما يشبه المس الكهربائي . وكان الديوان ديوان « إليزابيت باريت » ، فلم يتمالك نفسه من أن يكتب لها ما ذكر سابقاً . وقام بتحريات عنها بين أصدقائه ، واكتشف بأنها عاجز ، وملزمة على القعود في غرفة مظلمة في « شارع ويمبول » ، وأن الزيارات لها محدودة إن لم تكن معدومة . وتتابعت المراسلات بينهما ، وأبدت إليزابيت للشاعر « براوننغ » بأنها سعيدة أن يلاقي شعرها الإعجاب منه،وكانت تراه ، وقبل أن يتصل بها ، أنه من أقوى الشعراء المعاصرين لها : فقد أعجبت بحيوية شعره ، وصفاء فلسفته وعمقها . وقد قالت له : « إنك تمثل شعر الرجل في أعلى مستواه ، وأنا بصفي امرأة ، درست بعض إيماءاتك اللغوية وترينماتك بتوق ، وكشيء يتجاوزني بعيداً » .

وطالت المراسلات والشاعر يلح . وكانت تتساءل ما سرّ هذه الصداقة ؟ ليس لديها ما يفيده سوى الحزن ؛ وهما على طرفي نقيض : فشاعرها من رجال المجتمع المرموقين وهي قعيدة البيت والسرير ، فماذا سيجد في غرفتها ، سوى المرض والأسى ؟ وأمر آخر ، إنه شاب لا زال في مقتبل العمر ، فهو يصغرها بسبع سنوات وهي تقترب من الأربعين بل ومن حافة القبر — بحسب اعتقادها — .

وأخيراً كيف سيفكر والدها بصداقة مثل هذه ، حتى ولو كانت ممكنة ؟ لقد أظهر سابقاً موقفه تجاه الأصدقاء الذكور لبناته في حالة

أختها « هنرييتا » . فقد تجرأ ضابط شاب وأتى لزيارتها فالتقاه بشكل غير منتظر في بيته يوماً ، فرماه على الباب . كان مصاباً بمرض المونومانيا (المس الأحادي) تجاه أي زائر لأولاده . فقد كان يعرف أن الزمالة والصداقة قد تؤديان إلى الزواج ، وزواج أولاده يقع في أدنى سلم جرائم العالم الشريرة الكبيرة ! إن كره الزواج ، كان إحدى الحساسيات المفرطة الغريبة عند هذا الرجل الغريب . فزواجه كان غير سعيد ، ولكن الآن وقد توفيت زوجته ، تخيل نفسه بأنه قد تزوج أولاده ، ومن ثم فهو سيقف في وجه أي واحد منهم يمكن أن يرتكب جريمة « تعدد الزوجات » بالزواج من آخر غيره !

وهكذا ظل الشاعر الشاب يغازل « إليزابيت » في رسائله ، ويلح على مقابلتها ، ودائماً كانت مترددة في أن تقول نعم أو لا .

« نعم ، أجبتك الليلة الماضية .

ولا ، قلت لك هذا الصباح يا سيدي ،

لأن الألوان التي تُرى في ضوء أشعة الشموع

لا تكون هي ذاتها في ضوء أشعة النهار . »

وكانت تعطي موعداً للمقابلة ثم تؤجله ، سنة أخرى ، أو شهراً آخر ، أو يوماً آخر . وقد تقول له : « قد نلتقي في الربيع » ، وعندما يكتب لها في الربيع وبدءاً من شهر شباط ، تقول له إن الربيع عندها يبدأ متأخراً في أيار . وأخيراً عندما رأت أنه لم يمل ولم يكل من الإلحاح ، قبلت . وكان لقاؤهما الأول في الثاني من شهر أيار ١٨٤٥ م . وقد

حددت له وقت الزيارة : بعد الثانية ظهراً وقبل السادسة مساءً ، إذ أن « مستر باريت » كان يعود من عمله في المدينة الساعة السادسة مساءً ، فيجب إلا يجد هذا الشاب الغريب في بيته ، مهما كانت الظروف .

وعندما وصل « براوننغ » في الساعة الثالثة،لاقاه الكلب « فلاش » بزمجرة وعضة ، إلا أن إليزابيت هدأت كلبها ، فجلس قربها وهو ينظر بعين غاضبة إلى الشاب الغريب ، ويتنحنح والشاعران يتكلمان عن الشعر ، وأشياء كثيرة أخرى غير ما كان يتكلم به قلباهما . وقليلاً قليلاً ،تعود « فلاش » وجود « براوننغ » . وشعرت هي بالقوة تدب في أوصالها ، وبالحياة تتدفق في جسمها وروحها . وبتشجيع منه خرجت من سريرها ، وسارت الخطوات إلى المكتبة . وفي يوم ، حدثت معجزة المعجزات ، إذ تمكنت من الخروج معه في نزهة في الطريق وبرفقة كلبها .

وعرض عليها براوننغ مرتين أو ثلاثاً أن يجتمع بوالدها ، وكان يقول لها : « أنا متأكد إذا ما كلمته فإنه سيسقط كل اعتراضاته على صداقتنا » . ولكنها كانت تعرف أباها ، فقالت له : « عليك أولاً أن تمسح ثلث نجوم السماء بحركة أهدابك » .

وهكذا أجبرا على الاحتفاظ بسرهما عن الوالد . وتحولت عواطفهما ، واللقاءات متواصلة ، من تعاطف شعري وزمالة ، إلى صداقة جميلة ، ومن الصداقة الجميلة إلى حب حقيقي متفانٍ . وما كانا ليجرؤا على قوله وهما معاً ، كانا يكتبانه مباشرة لبعضهما بعد افتراقهما . وفي مرة كتب لها تلميحاً: « إذا كان بإمكاني أن أقول لك كم تكون سعادتي كبيرة لو تم الحدث الذي أحلم به،رغم بُعد مناله » .

وأجابت : « لو كنت فقط مختلفة عما أنا فيه في بعض النواحي ، وحرّة في أخرى ، فإنني كنت سأقبل الهبة الكبرى لسعادتك ... لا .. إنني أقبلها .. لاحظ — سأقبلها » . كانت مترددة ، وقد تكون محقة في هذا التردد ، إذ كانت ترى أنها وهي مريضة فإنه لا يمكنها أن تستمتع بحياة زوجية هانئة .

لقد التقينا متأخرين ... إنه متأخر جداً أن نلتقي
أيها الصديق .. لست أكثر من صديق .
إن كفن الموت القادم ملتف حول قدمي
فإذا خطوت أو تحركت فإنني سألامس النهاية .

وكانت تردد بينها وبين نفسها بأنها حتى ولو كانت قوية جسمياً ، فإنها لن تقبل الزواج منه . فهي لا تشعر بأنها حرة فكرياً : فقد عصت والدها مرة وأفقدته ابناً عزيزاً ، ولا تجرؤ على عصيانه مرة أخرى وتفقده بنتاً .

ولكن « براوننغ » كان أصلب منها ، وتابع حبه لها بحماسة وتفان وإصرار . وأخيراً قبلت إليزابيت على أن يبقى الزواج سراً . لقد كانت لا تعرف كيف ستزف النبأ إلى والدها . « فهو يتمنى أن يراني ميتة عند قدميه — كما ذكرتْ — ولا أفعل هذا . وإنه ليقول هذا ويعنيه ، ويصر عليه » . وبالفعل ، هذا كان موقفه عندما قررت ابنته أن تنفذ ما صممت عليه . وسافرت إلى إيطاليا ، بصفتها السيدة إليزابيت باريت براوننغ ، وقال والدها عند ذاك : « إن ابنتي الآن هي في قبرها ، فلننس الميت ! » .

إنها سعادة طافحة جديدة لإليزابيت ، ولكنها مترافقة بحزن كبير . إن شبح استبداد والدها كان يخيم عليها أينما ذهبت . فقبل زواجها ، كان يقلقها تصرفه ومضايقاته ، ولكن ما يقض مضجعها الآن ، صمته الثابت الراسخ . فمرات ومرات كتبت إليه تطلب الغفران والصفح ، إلا أن كلمة واحدة لم تصلها منه .

وكانت سعادتها تنسيها أحياناً حزنها . « فبراوننغ » لا يفارقها لحظة . وقد أصبحت الآن قادرة على السير تماماً ، ومع ذلك فقد كان زوجها الشاعر مصراً على حملها إلى الطابق العلوي لمجرد الشعور بلذة الحمل . لقد أقاما فترة في مدينة « بيزا » ، وكان ثلاثتهم سعداء إذ أن الكلب « فلاش » كان معهما . ولم تكن هناك مسؤوليات بيت أو إزعاجات مالية : فقد كان لديهما دخل يقدر بأربعمئة جنيه سنوياً ، وهو يفيض عن حاجتهما . وكان الطعام بكل وجباته ، يأتيهما وكلبهما من مطعم قريب . فهكذا عاشا في صفاء ونعيم ، ومن هذا الجو الفرح انبثق الجيد من شعرهما . ففي صباح مشرق ، وضعت إليزابيت في جيب زوجها قطعة من الورق فيها أربع وأربعون قصيدة وجدانية ، كلها حب رقراق شفاف ، وقالت له : « من فضلك ، لا تقرأها حتى أكون خارج الغرفة » .

وقرأ القصائد بلهفة ، إنها اعترافات حب حميمية ، لعاجز ردت إليها الحياة . كانت تمثل في فحواها القضاء على الموت بطريق الحب . « احزر الآن مَنْ يُمسكُ بك ؟ قلت : الموت . ولكن هناك ، هناك ،

رنَّ الجواب الفضي ... « إنه ليس الموت ، وإنما الحب »

إنها كانت في الحقيقة قصتها نفسها ، قصة بعثها للحياة ، واستعدادها للتنازل عن الجنة لتتم سعادتها على الأرض .

« إنني أتخلى عن القبر لأجلك ، وأبدل

نظرتي الحلوة القريبة للسماء ، مقابل الأرض معك . »

قرأ « براوننغ » القصائد ثانية ، إنها تفجرات قلب غني ، حار وزاخر ،وكتبت له وحده . إلا أنه لم ير فيها تلك الصفة الشخصية فحسب ، وإنما أحس فيها مفهوم العالمية . فهي تمثل الحب النقي من أجل كل محب في الوجود . فهي ليست كنزاً ثميناً جداً لنفسه فحسب ، وإنما هي كنز للبشرية ، ويجب ألا تُخفى ، بل يجب أن تنشر .

ولم تقبل في بادىء الأمر نشرها . « فهذه القصائد — كما قالت له — يجب أن تبقى سرنا مثل رسائلنا » .إلا أنه أجابها :« ولكنها أيتها الحبيبة ، هي أجمل قصائد وجدانية قيلت منذ شكسبير » . فردت عليه كعادتها في غمطها حق نفسها : « لا ! إنك تقدرها أكثر مما تستحق ، كما تقدرني أنا أكثر مما أستحق » . وحاورها طويلاً ، وأظهر لها نواحي التميز في تلك القصائد ، وبيّن لها واجب مقاسمتها مع الناس : قائلاً : « لم يَعُد لك الحق أبداً في اختزان عبقريتك .... فالسماء تطلب منا أن نُنفق ما نُمنح » . فقبلت بعد لأي ،لأنها — كما قالت — ستوزع زاوية من قلبها على المحبين في العالم . إلا أنها أصرت على أن تُقدّم للناس العالم كفلسفة لا شخصية ، أكثر من كونها عاطفة شخصية خاصة بها . « إذ لا يمكن — بحسب قولها — أن تُشرّح قلبك كي يتأمله أصدقاؤك » ، ومن ثم رأت أن تعطيها عنواناً يخفي معالم ذاتها ، وأن تقول عنها بأنها

ترجمة من لغة أخرى . فسمتها أولاً « قصائد وجدانية من البوسنة » . ولكن لم يكن أحد يعرف البوسنة آنذاك ، فاقترحت عنوان « قصائد وجدانية من البرتغاليّة » . فبحسب ظنها ، « سيفكر الجمهور عند قراءتها ، بأنها قد كتبت من قبل « كاترينا » إلى « كامونز » ، وليس من إليزابيت إلى روبير » .

ونشرت تلك القصائد تحت ذاك العنوان . وقرظها النقادة ، ورفعوا جداً من شأنها قائلين : « إنها أروع ترجمات في تاريخ الأدب » . وكان النقادة محقين ، لأن ترانيم القصيدة هي في الواقع من أروع ترجمات لنار الحب المقدسة صيغت بكلمات بشرية . لأنها تمثل الثبات الدائم المستمر مقابل تنوع الأشياء الفاني وغير الدائم ، إنها « الحب الذي يبقى من حياة زائلة . » .

ومن « بيزا » ذهب الشاعران إلى « فلورنسة » . ومنها إلى جبال « فالامبروزا » ، حيث تتعالى أشجار التنّوب حتى تكاد تتنفس من السماء . وأرادا أن يقضيا في هذا المكان الرائع الجمال عدة أشهر . ولكن « دير فالامبروزا » طردهما بعد خمسة أيام . لأن الرهبان فيه كانوا يخافون ثلاثة أشياء : الكلاب ، والخنازير ، والنساء ، « والنساء كن أكثر الحيوانات بغضاً على قلوبهم ... فمن المفضل لديهم تنظيف حظيرة خنازير بأيديهم العارية ، ودون مجرفة ورفش ، من لمس إصبع صغيرة لامرأة ! » .

وتلقت « إليزابيت » الشتيمة والإهانة بصدر رحب وقالت : « لقد أخرجنا من جنة عدن ! ألم يأخذ « ميلتون » وصفه للجنة من

« فالامبروزا » ؟ وعادا إلى « فلورنسة » ثانية ، الذي يخترقها نهر الأرنو كسهم ذهبي . وفي هذه المدينة وصلا إلى ذروة سعادتهما ، إذ وضعت « إليزابيت » بعد ثلاثة أيام فقط من عيد ميلادها الثالث والأربعين طفلاً جميلاً وقوياً ، وكله صحة وحياة . وعندما وضع بين ذراعيها قالت : « إنه قوي جداً بحيث لا يبدو ابناً لي » .

ومن ولادة ابنها ، اكتسبت إليزابيت قوة عجيبة . لم تعد تتمدد على فراشها ، وتنتظر كي يُعتنى بها كما كانت تفعل، بل على النقيض من ذلك ، غدت كثيرة الحركة والتجول . فقامت برحلات إلى المناطق المجاورة لفلورنسة ، وتسلقت الجبل المنحدر على ظهر حمار ، وانتقلت مع زوجها إلى البندقية ، وميلانو ، وجنيف، وباريس ، وأخيراً إلى لندن علّها تصلح ذات البين مع أبيها .

لقد كتبت مرات ومرات إليه تخبره عن ابنها « ودْمان » ، وتحدثت له طويلاً عن أفعاله الطفولية ، وعن شقاوته ، وفي الوقت ذاته عن اصغائه المرهف لعزف والده على البيانو ، وعن عواطفه تجاهها ، وكيف يقبلها وهو في حضنها كل دقيقتين قبلة . ولكن جواب كل تلك الرسائل الحلوة ، كان الصمت المطبق . وعندما أتت إلى لندن رفض رؤيتها ، وأبلغ الخدم أن يقولوا لها : أنها إذا أتت ثانية إلى المنزل فإنها لن تجده فيه .

وكان هذا الرفض النهائي والقاطع من والدها ، الذي كانت لا تزال تحبه حباً أعمى ، صدمة قاسية جداً عليها . فبدأت صحتها بالتدهور ، ولم يعد بوسع رئتيها أن تتحمل قسوة ضباب لندن . فعادت

إلى باريس ، ومنها إلى إيطاليا ، وإلى سلوة قلمها . وأحست ، والوهن يـأخذ منها كل مأخذ ، أن ما تبقى لها من العمر والزمن ، قليل . فقامت بكتابة أكثر أعمالها الشعرية طموحاً ،. وهو « أوروراله aurora Leigh » . وهي رواية شعرية ، وترجمة خيالية لحياتها . فالموضوع خيالي جداً ، والحالات المقدمة غير واقعية ، والشخصيات مبالغ فيها . ولكن الشعر فيها ، كشعر « القصائد الغنائية من البرتغالية » « يظهر — كما قال زوجها روبير — طبيعة ملائكية تماماً ، وقلباً قدسياً لم يخلق مثله الله » .

ووافقه كثير من النقاد على رأيه هذا . فقد قال باري كورنل Barry Cornail « إنني لأكرر القول أكثر من مئة مرة ، بأنها أرق قصائد كتبت من قبل امرأة » . وأضاف الشاعر « والتر سافيج ليندور » « Walter Savage Landor بأنه ليس لديه فكرة بأن هناك في هذا العصر من هو قادر على هذا الكثير الرفيع من الشعر .. إنني نصف ثمل به » . وقال « جون رسكين » مبالغاً في مدحه : « إنني أظن أن « أوروراله » هي أعظم قصيدة في اللغة الانكليزية ، ولم تُسبق إلا بشكسبير ، إلا أن القصائد الوجدانية لشكسبير لا تفوقها ومن ثم فهي أعظم قصيدة في اللغة الإنكليزية » .

قرأت « إليزابيت » تلك المدائح فيها ، وأرْضَتْ ذاتها ، ولكنها كانت كعادتها تهز رأسها بابتسامة ، وتقول في نفسها : إن هناك غشاوة على أعين النقاد ! فكيف يرفعون مصباح شعرها عالياً جداً بينما يبقون غير مدركين نور شعاع شمس شعر زوجها . إنها الغباوة ، والظلم . حسن ، إنها ستكون سعيدة لا في ألق صغرها ، ولكن في ظلام

عظمة زوجها « فيوماً — كما قالت — سيمتدحونه هو ، الذي يعادل عشرين مني » . ولكنها لم تعش لترى ذلك اليوم . فقد تهاوت صحتها بسرعة ؛ وكان حزن دفين لا يمحى من ذاتها أبداً يزيد حالتها سوءاً ، وهو صمت والدها . وأخيراً ، ونهاية لهذا الصمت القاتل ، وردت رسالة منه ورزمة . ففتحت الرسالة وكلها لهفة وأمل ، إلا أن الرسالة كانت تحمل جملة موجهة إلى زوجها ، جملة قصيرة وجازمة تقول : « في الرزمة المرافقة ستجد الرسائل التي أرسلتها لي زوجتك . ويجب أن تلاحظ أن جميع هذه الرسائل لم تفتح ، فالأختام لا تزال عليها ولم تمس . » .

وتوفي والدها بعد إعادة الرسائل ، وجاءت وفاته لطمة قاتلة لها لم تفق منها . وكان زوجها إلى جانبها على السرير يحدثها ويهدىء من ألمها . لقد تزوجها منذ أربعة عشر عاماً ، وبدت له آنذاك أنها أربعة عشر يوماً ، إنه شهر عسل قصير ، ولكنه لما ينته بعد : بضعة أيام أخرى من الشعر والوفاء . كان سعادة كبرى لها أن تتمدد هنا في حمى عينيه الحانيتين . وكانت تقول له بين الفينة والفينة : « إنك طيب جداً معي يا روبير — ابق إلى جانبي ، وضمني إليك » وعندما أخذها بين ذراعيه ، أغلقت عينيها ؛ ولما عاد إلى الكلام معها ، كانت الشعلة قد انطفأت ، وانعدم الجواب .

حياة من الأدب النسائي العالمي
« شارلوت برونتي »

« وإنها لحياة ذاتية مغلقة ، في حياة زاحرة مبدعة ، وأدب ديناميكي عالمي فريد ». ليس اسم « برونتي » الذي تنتسب إليه أديبتنا « شارلوت » بجديد على الأسماع . فأسرة « برونتي » من الأسر الانكليزية ، التي نسجت حول أفرادها أقلام القصصيين غلالات من الأساطير والخيالات ، وحاولت ألسنة النقاد أن تخترقها فزادتها كثافة . ثم أتى مخرجو السينما في القرن العشرين وعملوا على تذويقها وتنميقها . « وأسرة برونتي » هذه – كما قالت عنها « لورا هنكلي » ، الأديبة الانكليزية التي كتبت قصة حياة هذه الأسرة –« أسرة أنزلتها عجلة الزمن منذ قرن ونصف في قرية « ثورنتون » من أعمال « يوركشاير » في انكلترة . وكانت هذه الأسرة مؤلفة من والدين وستة أطفال، دُفعوا إلى صنوء الدنيا وراء بعضهم بعضاً وبسرعة . وحبتهم الطبيعة بقوى استشفاف خارقة ، وتمثلوا الحياة بأعمق معانيها ، فأحرقتهم بنارها بعد أن أضاءتهم بنورها ، وانطلقت صيحاتهم العبقرية تئن من حقائق الواقع ، وقبح الوجود ، وناءت أجسامهم بعواطف الحياة ، فذووا الواحد بعد الآخر ، ولم يعمر واحد منهم إلى سن الأربعين . ثم دار دولاب الزمن بعد نصف

قرن ليمر من أمامهم ، وإذا به يدور ويلفّ على التّراب الذي أُغلق على أشلائهم ، فكأنهم لم يعيشوا مثلنا نحن البشر ، وإنما مثلوا دوراً أثيرياً على مسرح الأبدية ومضوا . » .

و « شارلوت برونتي » هي واحدة من تلك العبقريات الست التي ضمها بيت « برونتي » ، والتي أثارت بكتابها « جين إير » ، رعشة من رعشات الإبداعية في روح الأدب الانكليزي في القرن التاسع عشر . وقد ولدت في « ثورنتون » سنة ١٨١٦ م ، أي أنها أطلت على الدنيا في الوقت الذي كان فيه الفكر الأوربي يعاني آلام مخاض جديد ، بعدما أثقلته الثورة الفرنسية وحروب نابليون . وكانت تختلط أناته مع أصوات « الحركة الإبداعية » الوليدة ، الملتهبة بالأحاسيس الفردية العميقة ، والمائجة بالوجدانية السوداوية الثائرة . وتفتحت حواسّ « شارلوت » وفكرها ، وبريطانيا تزود الأدب الأوربي بشبيبتها المبدعة ، أمثال « كيتس » ، و « شيلي » و « بيرون » . وكانت الطفلة الثالثة لأب إيرلاندي هو « باتريك برونتي » ، انتقل من موطنه الأول « ثورنتون » ، ليعمل قساً في كنيسة « هوورث » ، ولأم كورنيشية ، (أي من مقاطعة كورنوايل الانكليزية) عرفت عائلتها بالتذوق الأدبي والفني .

وقد أمضت « شارلوت » طفولتها في هذا الركن القصي الهادىء من ريف بريطانيا ، وفي ذلك المنزل الرابض وراء كنيسة « هوورث . Haworth » ، المختفي بين تلافيف الضباب ، تحيط به مقبرة القرية من جهة ، والسهوب الشاسعة من جهة أخرى . وقد توفيت والدتها ولما

تبلغ الخامسة ، فألقيت أعباء البنات الأربع وأخيهن « برانويل » على كاهل الأخت الكبرى « ماريا » ، التي لم تكن لتتجاوز الثامنة من عمرها . وكانوا جميعاً يعيشون حياة تنسجم مع المبادىء الكالفنية المتقشفة ، التي يبثها والدهم : فلا يأكلون اللحم ، لأنه لون من ألوان الترف ، ولا يلبسون الملابس الزاهية الناعمة ، لأنها تدفعهم في المستقبل إلى الاهتمام بملذات الجسد وإهمال ملذات الروح ، ولا يلعبون كما يلعب الأطفال ، لأن والدهم بحاجة إلى الهدوء والصمت في عمله . وبذلك طبعوا منذ طفولتهم بطابع الجد ، والسكون ، والحزن . وقد عُلِّموا أن يناقشوا مفاهيم الموت وما بعده ، وهم ما زالوا يمتصون أبهامهم . ولم يكونوا ليروا من العالم الخارجي سوى المقبرة ، التي تطل عليها نوافذ غرفتهم ، والمستنقعات الشاسعة المحيطة بمنزلهم . فأمامهم كان يمتد صمت الموت ، وحولهم صمت الشيطان . وإن الموت والشيطان هما اللذان سيتنازعان دوماً أجسامهم وأرواحهم ، وسيكون الوالد الصامت الرزين ، بمثابة الإله الفاصل في هذا الصراع الرهيب .

وقد تلقت « شارلوت » دروسها الأولى مع أخوتها على العمة « برانويل » التي كانت تعيش معهم . وكانت تخضع أسبوعياً ، كما يخضع أخوتها لامتحان شفوي يجريه لهم والدهم . وكان الأطفال الستة يقفون أمامه بصمت وخشوع ، وكأنهم ودعوا الطفولة من سنين وسنين .. فيطرح عليهم أسئلة عويصة وعميقة ، وكانوا يجيبونه إجابات متوثبة ، تدل على نضوج مبكر ، وتفكير نابغ . وتقدم لنا « مسز

غاسكل » ، مؤرخة حياة شارلوت والمعاصرة لها، صورة عن هذه المقابلة الأسبوعية : فتقول : « لقد كان الوالد يبتدىء في أسئلته بالصغيرة « آن » ، فيسألها مثلاً : « ما هو أكثر ما تحتاجه طفلة مثلك يا آن ؟ » فتجيبه ابنة الرابعة : « السن والتجربة يا أبتي » . ثم يلتفت وقد هز هذا الجواب أعماق روحه ، إلى ابنته الثانية « إميلي » ، ويخاطبها قائلاً : « ماذا علي أن أفعل يا إميلي ، عندما يسيء أخوك « برانويل » السلوك ؟ » فتجيبه ابنة الخامسة بجرأة وثقة : « تفاهم معه أولاً ، وإذا لم يرعوِ فاجلده » . ثم يأتي إلى « شارلوت » ذات القامة القصيرة والجسد النحيل ، والفم الواسع ، ويسألها : « ما هو أفضل كتاب يا صغيرتي ؟ » فتجيبه ابنة الثامنة : « مما درست ، الكتاب المقدس ، ومما لم أدرس بعد ، الوجود » . وترتسم على وجهه الجامد ابتسامة مغتصبة ، وهو يوجه سؤاله إلى الابنة الرابعة « إليزابيت » ، ويقول لها : « ما هي خير تربية تعطى للمرأة ؟ » وترد عليه ابنة التاسعة قائلة : « تلك التي تجعلها تدير بيتها إدارة حازمة » . ثم يربت بعطف على كتف ابنه المدلل « برانويل » ، رجائه في الحياة ، ويتفرس في وجهه سائلاً : «كيف يمكننا يا برانويل ، أن نفرق بين المواهب العقلية للمرأة والمواهب العقلية للرجل ؟ » فيجيبه طفل السابعة : « بملاحظة الفرق بين تكوينهما الجسمي » . وأخيراً يلتفت إلى الأم الصغيرة « ماريا » التي كانت في العاشرة من عمرها ، والتي تقول عنها « شارلوت » ، بأنها لو قدرت لها الحياة ، لغدت عبقرية نادرة . فقد كانت تمتاز بتفكير متزن ، ومبادىء رواقية ، وأفق فلسفي عالٍ ، فيسألها : . « ما أفضل طريقة ليشغل الإنسان وقته . فكري وأجيبي بتأن ؟ » . فتنظر إليه وهي حالمة ، وبصوت هامس : « بالاستعداد للأبدية » .

وهكذا كانت تنتهي المقابلة الأسبوعية ، ويغادر الاطفال الستة بعدها المنزل ، يرافقهم كلبهم . نحو السهوب . وهنا كانوا يتأملون بصمت ، تلك الأرجاء الغامضة الفسيحة ، فتتعانق أرواحهم الشاردة التي لم تصقلها أيدي البشر ، مع الأرواح الهائمة في هذه البراري التي أهملتها يد الله والبشر ، وتتعاطف في كيان واحد .

لم يؤمن « باتريك برونتي » بالتربية الطبيعية ، التي دعا إليها نبي الإبداعية « روسو » . فبرّر هذه الحياة نصف العفوية ، والحرة إلى حد ما ، التي يعيشها أطفاله ، فأرسل الفتيات إلى مدرسة « كوان بريدج » قرب « برادفورد » . علّها تصقل نفوسهن ، وتنمي تجاربهن ، ولكن سوء التغذية ، والحياة الكئيبة القاسية ، والبرد القارص ، عصفت بتلك الأجسام النحيلة والضعيفة ، فقبض الموت روحي « ماريا » و « إليزابيت » .

وعندما عادت « شارلوت » إلى بيتها في « هوورث » ، كانت قد غدت أكبر الأطفال سناً ، فحملت على كتفيها الضاويتين ما كانت « ماريا » قد حملته : فكانت تعلم أخوتها شؤون المنزل ، وقراءة الكتب ، وتحميهم ، وتقرأ الصحيفة في الصباح لوالدها ، ثم تنكمش بعد ذلك مع أخوتها ، ليسبح الجميع في جو من الخيال والرؤى ، تخلفه لهم خادمتهم « تابي » ، بقصصها عن الأشباح . لقد كان المنزل واسعاً ، وصامتاً ، لا يدخله صديق يؤنس نفوسهم الغضة ، ويدخل بعض السرور والجدة إليها . فكان عليهم أن يملؤوه من خيالهم ، بأصحاب وأصدقاء . وانكبوا على أوراقهم يدونون جولات خيالهم

الواسع ، ومغامرات أصدقائهم الوهميين ؛ وينقلونهم وينتقلون معهم إلى أجواء مختلفة ملوّنة . وكان هؤلاء « الأبطال » الذين ابتدعهم خيالهم ، هم في الواقع صور نفوسهم منعكسة في ألف مرآة ومرآة ... ولم يكونوا ليلعبوا مع الأطفال الآخرين ، ولم تلمسهم في هذه المرحلة من حياتهم ، التي كانوا فيها مستعدين لالتقاط أي تأثير ، أي يد غريبة عن مجتمعهم الصغير ـ الكبير . فالنبضات التي ثبتت ميولهم ، أتت من بعضهم بعضاً : فقد تمكنوا بحبهم لبعضهم ، وبعلاقاتهم فيما بينهم ، أن يخلقوا عالماً كاملاً من عالمهم الناقص . وإلى هذه المرحلة ، تعود قصص شارلوت الأولى ، كقصة « أنجريا » و « الأصدقاء الصغار » ، ولم تكن قد تجاوزت الثانية عشرة من عمرها .

وقرر الوالد أن تأخذ « شارلوت » ثقافة أفضل وأوسع ، في جو أكثر انفتاحاً ؛ فأرسلها في الرابعة عشرة من عمرها إلى « مدرسة رو الرئيسة » . وعندما جلست لأول مرة في غرفة المديرة « مس وولر » أحست بوحشة واكتئاب ، ودهشة ، وانكماش ، وشعرت وكأنها سجينة في هذا المبنى الضيق . وقد كتبت إحدى صديقاتها في المدرسة ، عن انطباعاتها الأولى عنها ، قائلة : « تبدو القادمة الجديدة هزيلة جداً وكأنها في العاشرة من عمرها . وإنها لقبيحة ، بأنفها الكبير ، وفمها الواسع . ووجهها النحيل ... وإن ما يدعو للدهشة ، صغر قدميها ويديها بشكل شاذ وغريب ، حتى إنني عندما ضمت راحتي كفها ، شعرت وكأنني أضم عصفوراً صغيراً .. وهي على ما يبدو قصيرة البصر ، وتبدو وكأنها تبحث دوماً عن شيء ضاع منها ، أو كأني بها حشرة خائفة ، أخرجت فجأة من الظلمة إلى النور .. وحركاتها

حركات حيوان وجل .. وعندما أعطتها المدرّسة كتاباً ، وطلبت منها أن تقرأ فيه ، قربت رأسها منه حتى كاد يلتصق أنفها به . وعندما نبهتها كي ترفع رأسها ، انجذب الكتاب معه ... وأمام هذا المشهد لم نتمالك أنفسنا من الضحك . وكان شعرها متجعداً ، وترتدي ثوباً صوفياً أخضر بالياً ، كان يوماً لعمتها « مس برانويل » .

وعندما فحصتها المديرة « مس وولر » ، وجدت أنها ضعيفة في مبادىء الحساب ، والجغرافية ، والقواعد . ولكنها عندما وضعت في يدها القلم لتكتب انشاءً ، فإن الطفلة غمست أنفها في الورق أمامها ، وملأت صفحة بعد صفحة ، حول قصة ابتدعتها . وعندما هنأتها المديرة على مقدرتها الانشائية ، أجابتها الطفلة بعفوية « لقد كتبتُ أي سيدتي اثنين وعشرين مجلداً من القصص » .

واحتضنتها « مس وولر » ، واهتمت بتغذيتها ، وأطعمتها اللحم الذي لم تذقه سابقاً . فامتلأ جسم الطفلة – المراهقة ، وتوردت وجنتاها ، وغدت شبه جميلة . وعاشت « شارلوت » في هذه المدرسة تكمل ما نقص من ثقافتها ، وتبني صداقات حرمت منها . وقد احترمتها زميلاتها لعالمها الأدبي الغزير ، ولرغبتها الصادقة في الاندماج معهن . وكانت تقص عليهن ، وهن في المهجع ، الأقاصيص التي ابتكرها خيالها عن السهوب المجاورة لمنزلهم في « هوورث » . وكانت عيناها وهي تتكلم تلمع ، ووجهها يتحول إلى قطعة من نار . وفي ليلة – كتبت إحدى صديقاتها عنها في مذكراتها – « ولّدت شارلوت بيننا هلعاً لا يوصف : إذا أخذت تحدثنا بصوت جياشٍ معبّر ، عن رجل يسير بنومه . وقد جمعت في كلامها كل مجالي الفزع التي يمكن لخيال حار

أن يخلقها : كالبحار الهائجة ، والقلاع الحصينة ، والصخور المعلقة ، والشلالات الهادرة المرتفعة ، وجعلت ناثمها هذا يسير فيها ، ويقف على الصخور القريبة من الغيوم ، وهي ترتجف وتهتز تحت قدميه . ووسط الصمت المتوثب ، انفلتت صرخة رعب من زميلة لنا أعقبها إغماء ... وكم بكت « شارلوت » من فرط حساسيتها ، ولأسابيع حرمتنا من أقاصيصها الرائعة ... إنني أحبها ... إن عقلها ، وخيالها ، شعلة متوهجة، يضمهما جسم رقراق نحيل،لا يميل إلى النشاط والحركة؛ ففي أوقات اللعب ، تنزوي في ركن ، وكتابها في يدها ، وترفض اللعب معنا ، وبخاصة بالكرة ، لأن قصر بصرها يعيقهاعن رؤيتها » .

وبعد سنتين من الدراسة عند « مس وولر » أصبحت « شارلوت » مدرّسة لديها . ولكنها لم تكن تحب التعليم ، كما تحب التعلّم : فهو قيد يجمد خيالها ، ويوقف جموح روحها ، ويتطلب منها دوماً ، انتباهاً مركزاً ، وعملاً آلياً ، وكبتاً مستمراً لميولها الأدبية . ولذا فإنها أصيبت بعد عام من التعليم بالسوداوية (الميلانخوليا) . فقل نومها ، واعتورها يأس مرير ، وفقدت إيمانها بالحياة ، وازداد شكها بمن حولها . وكتبت لصديقتها تصف لها حالها : « إنني أقوم بواجبي يا هيلين،خير قيام . ولكن الخيال يسيطر على تفكيري ، ويملأ جوانحي ، ويطغى على عواطفي الحيّة ، وقدراتي التي هي ليست بآلية كما تعرفين . لقد كنت طول يومي هذا ، في حلم ، نصف تعيسة ونصف نشوى : وإنني لأشعر بالتعاسة ، لأنه لا يمكنني أن أتابع أحلامي دون انقطاع ، ونشوى لأن الحقيقة اتضحت لي ، إذ عرفت خط سير حياتي . فهل عليّ أن أقضي أجمل فترة من حياتي وأنا مقيدة بهذا الرباط النفسي ،

محوِّلة ثورتي الداخلية إلى خمود ، متذرعة بالصبر . متظاهرة بالطيبة ، واللطف ، والمجاملة ؟ . هل عليّ أن أبقى مرتبطة بهذا الكرسي ، بينما الزمن يمر ، والزمن الذي يمضي لا يعود ؟ ! إنني أتحرق للكتابة ، وإذا انسكبت روحي على الورق ، فاعلمي يا هيلين ،بأنها ستخلق مني كائناً آخر ، كائناً حياً ، يبني وجوداً رائع الجمال .. ولكن الجرس سيقرع ، والدرس سيبتدىء . » وعندما سعت صديقتها لهدهدة عواطفها ، والتخفيف من تعاستها ، بتأكيدها لها بأن ليس في كل ما يحيطها ما يؤلم هذا الألم ، أو ينغص الحياة كما تتخيل ، أجابتها : « إنني لست مثلك يا هيلين . لو أنك تعرفين شطحات أفكاري،والأحلام التي تراودني ، والخيال والتصورات التي تقضم روحي ، وتجعلني أشعر – مع الأسف – بأن المجتمع حولي فارغ مشوه ، فإنك ستشفقين عليّ ، بل ستحتقرينني .... لا تلوميني .. إنني أملك بعض الصفات التي تولّد تعاستي ، وأكنُّ في قلبي عواطف لا تشاركينني بها ولا يفهمها سوى فريق ضئيل في هذا المجتمع ... لا تظني أنني أفتخر بنفسي لوجود هذه الصفات فيَّ ، بل على النقيض من ذلك ؛ أنا أعمل جاهدة لكبتها وإخفائها ، ولكنها تنفجر أحياناً » . وفي مرحلة القلق العنيف هذه ، وصلت « شارلوت » إلى الشك بالقيم الدينية التي غرسها أبوها في نفسها بقوة وإلحاح ، وقالت : « إنني أود أن أكون أسمى مما أنا عليه ... وإنني لأصلي ، وأصلي يا هيلين ، علّ تلك الحقائق المقدسة تنقذني مما أنا فيه . إنني أرى في الكتاب المقدس الحياة بإشراقها وغروبها ، ولكنني عندما أحاول أن أرشف منها ، تبتعد عن شفتي . آه يا هيلين، إذا كانت عقيدة « كالفن » هي الحقيقة ، فقد غدوت

مهرطقة كافرة .. أنا في شلك قاتل .. وكم أفضل أن أعمل في طاحون ، وأشعر بالوثبة الفكرية الحرة في ذاتي . من أن أعيش في هذه القيود . »

وفي اكتئابها المرير هذا ، وصراعها مع ذاتها ، أرسلت بعضاً من شعرها إلى « روبير ساوثي R Southey » الأديب الانكليزي الكبير ، وسألته هل يشجعها على الإنطلاق في اتجاهها الأدبي . ولكن البوريتاني المتزمت أجابها : « لا يمكن أن يكون الأدب من عمل المرأة ولا يجب أن يكون » . وأرسلت فصلاً من رواية إلى الشاعر الانكليزي « وورث وورث » ، تسأله رأيه ، فقال لها : « بأنه غير قادر على تحديد شخصية المؤلف : أهو كاتب وصايا أم معلمة مخبولة » . وكان هذا كافياً ليطوّح بآمالها . فتركت مهنة التعليم ، وانخرطت مربية لدى عائلة متوسطة الحال ، مقلدة في ذلك أختها « آن » . ولكنها كانت في عملها الجديد أتعس حالاً مما كانت عليه عند « مس وولر » ، إذ أنها ظلت تحلق في أحلامها بين النجوم ، بينما كان الأطفال الصغار الذين أوكلوا إليها ، يسكبون اللبن على المنضدة ، ويغمسون أصابعهم في طعام بعضهم بعضاً ، ويمسحون أفواههم الزفرة ، وأيديهم القذرة بثيابهم أو ثياب أمهم . ويتقاذفون كل ما يقع في أيديهم ، بل ويصيبونها به .

ولم تلبث أن تركت عملها ثانية ، وضاعف إخفاقها فيه من شعورها بمركب النقص ، الذي أخذ يجتاح كالعاصفة روحها . ولم تكن لتفكر في الزواج والاستقرار ، إذ قررت أن تبقى عزباء ، لا لأن الزواج عمل معيب في حد ذاته ، كما قالت ، أو لأن الرغبة الجسدية فيه جرم ، وإنما لأنني أرى أن المرأة التي لا تملك الثروة ، أو الجمال ،

تكون حمقاء إذا جعلته هدفها الرئيسي ، ومحطاً لأمالها . « إن الزواج لم يخلق لمثلي ، لأنني لست جميلة ، ولست غنية » . وكانت تحس إحساساً مفرطاً بقبحها ، فقد قالت : « إذا نظر غريب إلى وجهي ، فإنه سيعمل جاهداً حتى لا يدع عينيه تقعان على هذا الجزء من الغرفة ثانية » . وكان على « شارلوت » وهي في أزمتها ، أن تعمل حتى توقف العائلة على قدميها : فأختها « آن » التي لم تكن لتحتمل النظر إلى وجوه الغرباء من فرط خجلها ، كانت غير راضية من عملها ، و« إميلي » لا ترغب في البحث عن عمل خارج المنزل ، لتعلقها بسهوبها تعلق الأم بوليدها . أما أخوها « برانويل » ، فإنه بعد محاولات مخفقة لبيع قصصه ، أخذ يقضي وقته في الحانات ، حيث وجد من يصغي لنكاته الإيرلاندية ويشاطره الكأس . وسنحت لها الفرصة لتذهب إلى « بروكسل » ، فقررت السفر إليها مصطحبة معها إميلي لتدرس ، ولتقضي هي سنة تتعلم فيها ما يمكن أن تصنع ، ثم تعود لتفتح مدرسة للبنات .

التحقت « شارلوت » وأختها « إميلي » بمدرسة « مستر هيغير Mr - Heger » وزوجه . وكانت في السادسة والعشرين من عمرها . وهنا عانت « شارلوت » الأزمة النفسية الثانية التي ستخلق منها روائية فذة : فقد كانت هذه المرحلة من حياتها ، بمثابة ذرة الرمل التي جمّعت اللؤلؤة إفرازها حولها . فقد تفتح في هذا الوسط نبوغها ، وأثيرت عواطفها . فقد انجذبت « شارلوت » إلى « مستر هيغير »، مع أنه كان أبعد ما يكون عن الجاذبية : فهو رجل متزوج وله خمسة أولاد وهو من أصل جرمني ، وشكله منفّر إلى حد كبير : فهو قصير الساقين ،

ذو رأس مقبب ، وشعر أسود كثيف قد التصق برأسه ، ونظارات تنتصب فوق أنفه ، وتابع من خلالها عينان كأنهما جمرتان متوهجتان ، وكان أسمر البشرة .. إنه مخلوق صغير ، تبدو عليه أحياناً ملامح قط متوحش ، وأخرى حية رقطاء . لقد كان نقيضها في السن ، والميول،والمزاج ، ولكنه كان ذكياً ، وحيوياً ؛ وكان ينفعل للاشيء ، ويفقد كل سيطرة على نفسه ، ويبكي من الحنق في وسط محاضراته . وفي الواقع كان أول مثقف ذكي تلتقي شارلوت به .

وقد قرب « مستر هيغير » شارلوت إليه بصفتها أفضل تلميذة لديه : فأعطاها دروساً خاصة ، وحوّل عقلها الطفل النابغ ، إلى عقل قوي ناضج ، وكشف لها عالماً من الفلسفة ، والعلم ، والفن ، وفتح أمامها آفاق بعد جديد من التجربة الإنسانية .

وفي نهاية العام ، عادت وأختها إلى « هوورث » . ولكن أستاذها رجا والدها أن يعيدها إليه لما لاحظ من إمارات النبوغ لديها . وعادت شارلوت وحدها إلى بروكسل ، وقوة داخلية لا تقاوم تدفعها إلى ذلك . فماذا تمثل لها « هوورث » الآن ؟

لقد كانت في نشوة غامرة ، عندما طلب منها أن تعطيه دروساً بالإنكليزية . إذ ستكون وحدها مع الرجل الذي غدا الكل في الكل في حياتها . ولم تلبث « مسز هيغير » أن أخذت تلاحظ ببرود وجفاء ، بعض الأعراض الخطرة التي تنتاب « شارلوت » في حضور زوجها : فهذه الفتاة الانكليزية الخجلة ، التي لا تكلم أحداً ، ولا تنسجم مع أحد ، يضيء وجهها ويشرق ، وتلمع عيناها ، وتصبح امرأة مرغوباً

فيها عندما تكون بصحبة زوجها . فأخذت تنظم أوقاته بصورة . لا تتلاءم مع أوقات فراغ تلميذته ، وأظهرت لها عدم ترحيبها باستخدامها غرفة جلوس العائلة كما كانت تفعل ، وشرعت تتجسس عليها . ولم تكن « شارلوت » الساذجة عاطفياً لتدرك الأسباب التي قلبت عليها « مستر هيغير » : فقد كانت أبعد ما تكون عن ذلك الحب الذي تتصوره هذه السيدة ، فقد كتبت عن تلك العاطفة قائلة : « الحب — كما أفهمه — عاطفة نبيلة ، سامية ، ومخلصة ، وليس فيها ما هو غير مستقيم » . وفي الحقيقة لم تكن شارلوت تحب أستاذها ذلك الحب الشهواني ، ولم تكن تتطلب البتة مظاهره وانما كانت تريد فقط أن تكون معه ، تستمع إلى حديثه ، وتلتقط نظراته ، وتجمع في أحد أدراجها بقايا السيجارات التي يخلفها وراءه .

وعاشت سنتين أخريين في بروكسل ؛ ولم تبد أية ظاهرة شاذة في سلوكها نحوه ، وكانا يتباحثان في موضوعات شتى حتى في الحب نفسه ، كفكرة مجردة . ولم يكن لدى « شارلوت » صديقات تبثهن ما تشعر . إلا أنها في يوم من الأيام دخلت كنيسة كاثوليكية ، وتحت الضغط النفسي الذي كانت تعانيه ، وقفت أمام رجل الدين ، كطفلة صغيرة ، تعترف له بسرها . وبعدها حزمت أمتعتها وعادت إلى « هوورث » .

ومن « هوورث » كتبت إلى « مستر هيغير » تلك الرسائل الفياضة بالعرفان ، والصداقة السامية الحارة . تلك الرسائل التي اتخذت دليلاً على حبها له . وكانت حمماً من قلب يحترق . فقد كتبت إليه تبثه مشاعرها ، التي تُنْبي عن عاطفة حب غريبة ونادرة ، ناءت بها نفسها ، فتهاوت تحت ثقلها . فقد قالت له : « سيدي ! إن الفقير لا يحتاج

إلى كثير من الطعام ليقيم أوده ، فهو يكتفي بفتات مائدة الغني ، وأنا مثله، لا أحتاج إلى كثير من العطف من أولئك الذين أقدرهم وأحبهم... إنني أشعر بعاطفة إخلاص مطلقة ، ولا أعرف ماذا أفعل بها : فأنا غير معتادة أبداً على الفكرة .. ومع ذلك فأنا أعرف بأن هناك أناساً يفكرون بعقولهم الباردة فقط ، سوف يقولون ، إذا قرأوا ما كتبت ، إنها تهذي . وإنني لأتمنى لهؤلاء أن يعرفوا ليوم واحد فقط الآلام التي عانيتها لثمانية أشهر ،فعندها يمكن أن نرى فيما إذا كانوا لا يهذون أيضاً . إن الإنسان يتألم بصمت طالما له القدرة على ذلك ، ولكن عندما تتهاوى قوته ، فإنه يتكلم ودون أن يزن كلماته » .

ولم تتلق جواباً . لقد كان صادقاً مع أسرته ، ولم يظهر اهتماماً بما كتبت له . إنه لا يرى ، وإنه لا يشعر . ومرة ثانية أخذت القلم وكتبت : « لقد حاولت أن أنسى ولكن دون جدوى . لقد فعلت كل شيء ؛ لقد سعيت كي أشغل نفسي ... لماذا لا يمكنني أن أشعر تجاهك بالدرجة نفسها من الصداقة التي تشعر بها أنت نحوي ، لا أكثر ولا أقل ؟ عندها سأكون حرة ! عندها سأصمت لسنين ! إن لي طلباً واحداً عندك ... تكلم لي يا سيدي عن أولادك ، عن محيطك عمّا يرضيك .. تكلم فقط .. إن كلماتك تعني بالنسبة إليّ الحياة . . إن امتناعك عن الكتابة لي ، ورفضك الإجابة ، هو انتزاع سعادتي الوحيدة في هذا العالم ، وحرماني من امتيازي الأخير » . ولم يكن لرسائلها صدى محبب إلى نفسه . إنه لم يأتلف هذه العاطفة المتأجحة بين حناياها ، وحملها محمل السوء ، كما حملها نقادها من بعده . ولم تصب باليأس ، بل عادت إلى الكتابة إليه لتقول : « لمَ تمنع رسائلك عني ... إذا كنت

لا تشعر نحوي باهتمام ما فقاها بصراحة .. إنها ستكون صدمة لي رغم استعدادي لها ، ولكنها أخف عذاباً من الشك والقلق اللذين أعيش فيهما . » وأخيراً أتاها الجواب ، وفيه يطلب إليها ببرود وجفاء ، ألا تكاتبه لستة شهور ... ولم تفهم من الرسالة ما أراد أن يفهمها إياه . فاحترمت وصيته ، وشكرته بقلب ساذج طيب : « إن رسالتك تغذيني المدة التي تطلب ، ولكن عدني بأنك سترسل إليّ أخرى ، لا عن صداقة — لأنك لا تشعر بها — وإنما لأنك تحمل قلباً رحيماً ، يأبى أن يحكم على فرد بالعذاب الدائم ، بحرمانه من بعض أويقات السعادة ... اعلم يا سيدي ، أنني إذا استسلمت للنوم ، فإنه نوم مضطرب ، يعج بالأحلام التي أراك فيها دوماً ، قاسياً ، جدياً ، غاضباً . » فبعث إليها يرجوها ألا تكتب إليه إلا أخباراً عائلية ، وأن تبتعد عن التفكير فيه ، لأن مراسلتها تغضب « مسز هيغير » . وإذا كانت ملحة في الكتابة ، فلتوجه رسائلها إلى مدرسة الذكور . وصدمت بالحقيقة المرة التي يبدو أنها لم تفهمها طيلة هذه المدة . وامتنعت عن مراسلته ، لأنها لم تكن لتعلم أن هذا يسيء إلى زوجته ، وهي لا تريد أن تكون علاقته بها سرية كما أراد .

لقد أثر حادث بروكسل هذا بعنف على خيال شارلوت ، ففجر ينابيع الحياة في أقاصيصها . إن ما شعرت به لم يكن ذلك الحب المعروف ، وإنما هو ثورة عواطف لا يفهمها الكثيرون ، إنها حب الحب ذاته ، وغيرة هوجاء على الصداقة الصافية ، التي هي أعمق من حب البشر للبشر . وصعّدت التجربة نفس شارلوت ، فانساقت نحو الكتابة ، لا لأستاذها الجليل ، وإنما للأجيال والعصور . فدافعت عن عواطفها

وتصرفاتها في روايتها الشهيرة « جين إير » .. وفيها تخيلت مربية تقع في حب رجل شريف ، ولكنه متزوج من امرأة مصابة بعقلها ... وجعلت هذه المربية التي هي بطلة القصة ، أميل إلى القبح منها إلى الجمال . وبذلك اخترقت التقاليد الأدبية السائدة ، التي كانت تجعل بطلة الرواية أو القصة امرأة جميلة . وقد ناقشتها أخواتها في هذا الموضوع ، فأجابتهن : « إن الكتّاب مخطئون بنظرتهم الدائمة إلى جمال المرأة الجسمي ، وإنني سأبرهن أنهم مخطئون . سأريهم بطلة قبيحة ، وصغيرة الحجم مثلي » . ووصفت شارلوت نفسها المعذبة بأسلوب سلس ، دفّاق . وعبّرت عن ذلك النضال النفسي بين الواقع والتسامي ، بين سلبية الحياة والحياة .. ومن أعماق اليأس والموت ، في صراع « جين إير » مع الظروف ، ومع الهوى ، ومع القدر ،فجرّت «شارلوت» القوة التي أرادتها لنفسها ، قوة الحياة الخارقة المطهّرة لأدران النفس . « فجين إير » ، هي مأساة الفردية ، الفردية القوية التي تزداد إصراراً على البقاء ، كلما صارعتها المحن ، وحطمتها الصدمات ؛ فردية المرأة الثائرة على مفهومات التضحية ، والاستكانة ، والاستسلام . فكأنها في نداء الفردية الذي أطلقته فيها ، كانت تنتقم من مشاعرها تجاه أستاذها ، فقد قالت : « أي جين ! من في العالم يهتم بلك وبتضحيتك ومن يؤذى بما تفعلين ... ؟ اهتمي بنفسك ؛ نعم ! يجب أن أهتم بنفسي . وإنني لأشعر أنه كلما غدوت وحيدة لا أصدقاء لي،ولا سند، كلما ازداد احترامي لنفسي وثقتي بها ... إنني سأحافظ على المبادىء التي لقنتُها لروحي وثبّتُها فيها .. هنا في هذه الحياة الدنيا سأزرع قدمي راسخة ، وسأعيش الحياة الزاخرة التي ارتضيتها لنفسي » .

وكانت رواية « جين إير » أول كتاب نشر « لشارلوت » بمفردها. وكان نقطة التحول في حياتها وحياة « آل برونتي » ،فإلى نجاحه ترجع شهرتها وشهرتهم ، وانتشار مؤلفاتهم . وقد نشرته باسم مستعار لرجل هو « كارير بيل » « Currer Bell » لأنها — كما قالت فيما بعد — لم تكن ترغب أن تعلن عن نفسها بأنها امرأة . لأنه على الرغم من اعتقادها بأن كتابتها ليست من النوع النسائي ، إلا أنها كانت تعرف بأن المجتمع الانكليزي ينظر إلى المرأة نظرة متدنية ، وأحست أن النقاد قد يستخدمون ذلك كمهمار يطعنون به مؤلفها الأدبي . وبعد خمسة أسابيع من نشر الكتاب ، كانت الصالونات الأدبية، وقاعات الموسيقى ، وغرف الشاي ، تتساءل بفضول عن « كارير بيل » ، الذي اخترق التقاليد الاجتماعية ، وثار على التقاليد الأدبية . وكتب الأديب النقادة « ثاكري » عن المؤلف يقول : « إنه عبقرية مغمورة، وإن قيمة الكتاب في وحدة العناصر الفكرية التي وكب منها ». وقدم له نسخة من كتابه « فانيتي فير » . « Vanity Fair » وردت شارلوت الإهداء ، بإهداء الطبعة الثانية من مؤلفها إليه . ولم يلبث الشعب الانكليزي أن عرف أن المؤلف امرأة . وكان فضولياً جداً لمعرفة حياتها ؛ واعتقد بعضهم أنها خليلة لثاكري ، لأن نفسين من نار كنفسيهما لا يمكن أن يعيشا مفترقين .

وبينما كان يرتفع نجم « كارير بيل » في عالم الأدب ، وتنفذ طبعات الكتاب ، كانت شارلوت لا تتذوق لذة النجاح ، لأنها كانت تمر بأفظع مأساة في حياتها الخاصة : فقد توفي أخوها « برانويل » وهو في الحادية والثلاثين من العمر ، بعد ما انساح وراء ملذاته ،

وطرد من أعمال عدة ، وبعد أن قدم للأجيال أفضل ترجمة لـ « أودز» هوراس . وبعد خمسة أسابيع ، لحقت به « إميلي » ، ذات الفم الصامت والرّوح الممزقة . إميلي ، التي صورت بريشة من نار أجواء سهوبها ، في روايتها « مرتفعات وذرنغ » ، حتى قال عنها « مستر لينك » الشاعر الرمزي : « إن من عاش ثلاثين عاماً وهو يرسف في أغلال الحب ، فإنه لا يعرف ما عرفته هذه الفتاة التي لم تعرف الحب » . وبعد شهر ، أصيبت « آن » بالسعال الذي أصاب « إميلي » ، وأودى بحياة الأختين سابقاً . وقد أخذتها « شارلوت » إلى شاطىء البحر علّها تشفى ... إلا أنها أمسكت بيد شارلوت في راحة كفها وهمست لها « تشجعي » . ولفظت أنفاسها ، بعد أن خلّفت وراءها قصتها « آغنس غره » .

انكمشت شارلوت بعد ذلك في « هوورث » إلى جانب أبيها . ولكن ناشري كتبها أقنعوها بالخروج من عزلتها ، وحضور الحفلات التي تقام على شرفها . ولكن وجود الناس ، كان يولد لديها ألماً نفسياً وجسمياً . وكم من المرات تمنت لو كان في إمكانها أن تختفي تحت الأثاث . وكانت عندما تمر بين صفين من المعجبين ، ترتعش . وكان هتاف المجتمع بعبقريتها يؤذي أحاسيسها ، فعادت لتلوذ بعزلتها ، ومنزل أحلامها ومآسيها . وفيه كتبت مؤلفيها الأخيرين ، وظلت مأساة بروكسل ماثلة أمامها . واقتبست موضوعيهما من حياتها : وكان الكتاب الأول « شيرلي » ، وكان تمجيداً لأختها « إميلي » . وقد حمل هذا الكتاب فلسفتها الاجتماعية ، إذ ناقشت فيه مشكلة الرأسمال والعمل ، والإنسان والآلة ، وثارت كما ثار المصلحون الاجتماعيون ،

على فقر العمال وسوء أحوالهم . وانتقدت حياة المرأة في بريطانيا قائلة : « ليس لدى الفتاة في هذا المجتمع من لذة أرضية سوى الزيارات التي لا فائدة منها .. ولا هدف للفتاة سوى الزواج .. فليخرج هؤلاء النسوة من بيوتهن إلى ميدان العمل .. وليصعّدن من أهدافهن ويرفعن من مثلهن » . ورغبت في قصتها « شيرلي » إصلاح الأخطاء الاجتماعية ، وأهمها عدم فهم معظم الناس لحدود العواطف والمشاعر ، وجهلهم للعواطف السامية .. وكانت تقصد في الواقع عدم تفهم المجتمع لحقيقة عواطفها تجاه « مستر هيغير » فالشاب « روبير لور » في قصة « شيرلي » يحب « كارولين » ، ولكنه يتقدم لخطبة « شيرلي » ، ظاناً أن عطفها عليه معناه الحب . وعندما يصارحها بذلك ، تبدي اشمئزازاً وحزناً لسوء فهم سلوكها ، وتخاطبه قائلة : « هل حقاً ما ذكرت أن كل ما أبديته تجاهك يا روبير من طيبة ، لم يكن سوى عملية معقدة للحصول على زوج ؟ ! إن ما قلته يعني أن لديك أسوأ فكرة عني . . آه يا نجمة الصباح هل تسمعين ؟ » وعندها انفرجت شفتا « روبير » عن كلمتي « اصفحي عني يا شيرلي ، ولنعد أصدقاء » ، أجابته : « كنت صفحت عنك لو لم أكن أنا التي يجب أن تطلب الصفح عنها منك ... لقد ارتكبت دون أن أعرف ، عملاً خاطئاً بدفعي رجلاً ذكياً مثلك إلى الاعتقاد بسوء في شخصيتي .. إننا سنعود أصدقاء أيها الرجل ، عندما سيكون لديك الوقت لتقرأ أعماقي ، ودوافعي ، تحت نور الحقيقة . »

أما الكتاب الثاني لشارلوت ، فكان « فيليت » . وفيه تصور حياتها في بلجيكا في « مدرسة المستر هيغير » . وفيه كانت أهدأ عاطفة ،

وأكثر تفهماً لشخصية أستاذها . ولعلّ بعدها عن زمن الحادثة عدّل من تفكيرها . وكان الجو في منزلها ، أثناء كتابتها له ، ساكناً ، واجماً ، حتى أنك كنت تلتقط صوت حركة الساعة في المطبخ ، وأزيز الذبابة . وكانت هي هادئة المظهر ، قلقة الأعماق ، لا تنام إلا نادراً ، وتقطع وقتها بين الكتابة وعمل المنزل .

وفي حالة التوتر الروحي الشديد هذه التي كانت تعيشها ، تقدم لخطبتها قس مغمور ، كان يعمل إلى جانب والدها في الكنيسة . وكان قد أحبها حباً أشفقت عليه منه ، فتزوجته . وعاد بعض حب يطرق باب المنزل الحزين الصامت ، بعدما طرقه الموت مراراً . ومرت الشهور ، وأخذت « شارلوت » تنتظر مولوداً . ولكن الشعلة في روحها كانت قد أحرقت مادة هيكلها : فبينما كانت الحياة تنمو في أحشائها ، كان المرض يرتع في جسمها ، ويتنازع الاثنان غذاءها . وفي سنة ١٨٥٥ لفظت « شارلوت » نفسها الأخير ، وهي تردد لأول مرة في حياتها : « إنني لا أرغب في الموت لأنني سعيدة » . وقد قال عنها « ثاكري » بعد وفاتها : « إنها صورة من « جان دارك » ، تحلّق فوقنا ، وتقلقل حياتنا السهلة ، وأخلاقنا المتساهلة ... إنها مخلوق نقي جداً ، ولطيف جداً ، لا يُلمس لا بأفكاره ولا بجسمه .. لقد كانت تعيش في نفسها للآخرين ، وكأنها كرست ذاتها لملاحظة أولئك الذين يحيطون بها ، ولتحليل شخصياتهم ، والنفوذ إلى بواطنهم . لقد جمعت الواقع والخيال في قصصها ، جمعاً لم تره القصة الانكليزية قبل الآن » . وقد أبّنها الناقد الأدبي « سيدني دوبل » « Dobell » قائلاً :

« قد يكون هناك من يفوقها في الانشاء والتركيب ، وتنظيم الخيال ، ودقة الإدراك ، وسهولة التعبير ، وعمق الفكرة وسموها ، ولكن ليس هناك أبداً من ينافسها في قدرتها على فرض الإيمان بما تكتب .. فقارىء قصصها ، يؤمن بكل ما أتى فيها ، من حرارة عواطفها وصدقها ، واتحاد العناصر المعنوية التي تركبها . لقد قيل أن « جين أوستن » تفضلها ، ولكن « جين أوستن » محافظة تقليدية ، أما« شارلوت» فثائرة راديكالية ، تنسجم مع عصرها . ولدت راديكالية وعاشت راديكالية . لقد كانت عميقة عمق الحياة ، شفافة في أسلوبها شفافية الهواء . جمعت العقل والأحلام ، وبذلك انسجمت مع عصرها ، عصر الوثبات الفكرية والثورات الروحية » .

هيلين كيلر، المرأة والأديبة المعجزة

الفتاة العمياء ، والصماء ، والخرساء ، التي وجدت بتصميمها وإرادتها باباً للخروج من الظلام الدامس الذي كانت تعيشه ، ولم يكن هذا المخرج لنفسها فحسب ، وإنما لباقي الانسانية . فنجاحها في نضالها المرير للخروج من عاهاتها ، ليس نموذجاً متوهجاً بالنور ، وأملاً مجسداً للمعوقين من أمثالها فحسب ، ودافعاً لهم نحو رؤية جديدة للحياة ، وإنما هو تجربة حياتية نادرة ، وتوجيه للبصير أيضاً نحو نظرة مدهشة ، وعميقة ، ولا سابقة لها ، للحياة والعالم . كما أن حياة تلك التي قدمت لها يد العون في نضالها ، وهي معلمتها « آن سوليفان » ، هي نموذج فريد من الصبر ، والدأب ، والإيمان ، والحب ، قد لا يلاقي الانسان مثيلاً له كثيراً في الحياة .

لقد ولدت « هيلين آدامز كيلر » في « توسكومبيا » في ولاية « آلاباما » من الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٨٠ م . وكانت عند ولادتها طفلة طبيعية كغيرها من الأطفال . ولكنها ما إن بلغت العشرين شهراً من عمرها ، حتى أصيبت بمرض عضال ، سماه الأطباء «احتقان

مزمن في الدماغ » ، حرمها من الرؤية ، والسمع ، والكلام . وكان والداها ينظران إليها بإشفاق وأسى . فالمخلوقات البشرية من أمثالها ، أو من يسمونهم « بالمعوقين » ، كان محكوماً عليهم آنذاك ، أن يعيشوا حياة تشبه حياة الحيوان . فكيف يمكن أن يُنتظر منها أن تُدرك ، وهي محرومة من خمسي حواسها ! فالذين حُرموا نعمة البصر وحدها ، أو السمع وحده ، أو الكلام وحده ، كان يمكن أن يُعلّموا كيف يتصلون مع بقية العالم ، ولكن هذه الطفلة العمياء ، والصماء ، والخرساء أي أمل لها في الحياة ؟ !

إنها حيوان صغير ، لا يمكنه أن يفهم ، أو يجعل غيره يفهمه . وكانت تشعر غريزياً ، بأنها مختلفة عن بقية العالم حولها ، وهذا الشعور كان يجعلها في هياج هوجاوي دائم : فكانت ترفس بقدميها كل من يقترب منها ، وتهجم على وجهه ، وتخدشه بأظافرها . ولما كانت غير قادرة على أن تلعب كبقية الأطفال ، فإنها كانت تسلّي نفسها بشد ملابسهم وتمزيقها ، وقص شعورهم . ولم تُجْدِ أية طريقة في تعليمها السلوك الإنساني ، ففي يوم حبست أمها في غرفة المؤونة ، ووقفت أمام الباب تضحك ، وهي تشعر باهتزاز ضربات أمها عليه .

كانت شراً مستطيراً ، وخطراً كبيراً على الآخرين وعلى نفسها : فقد كان لها لعبة ، وأخت رضيعة وكانت تحب لعبتها ، لأنه سمح لها أن تلعب بها ، ولكنها لم تكن لتحب أختها الطفلة ، لأنه لم يسمح لها أن تلعب بها . ففي مرة ، وجدت الطفلة نائمة في المهد المخصص للعبتها ، فقلبت المهد بما فيه ، ولو لم تتلقّ الأم الطفلة ـــ وكانت موجودة

لحسن الحظ – ، فإن الطفلة كانت قد وقعت على الأرض ، وأصيبت بأذى كبير . وفي إحدى المرات الأخرى ، دلقت كأساً من الماء على ثوبها ، وحاولت أن تجففه قرب المدفأة المشتعلة ، ووضعت طرفه على الجمر المحترق ، وإذا بالنار تلتهب في كل ملابسها ، ولو أن مربيتها لم تنقذها ، لراحت طعمة للنيران ، وتسببت في حريق كبير . وقد علّق كثير من أقربائها على الحادث ، قائلين : « مسكينة ، كم كان أرحم لها لو أنها احترقت حتّى الموت ! » .

وأخيراً ، وبعد أربع سنوات من حياة كتلك ، انبلج فجر يوم المعجزة ، عندما أتتها المعلمة التي حوّلتها الى عضو فاعل في عالم الأحياء .

ويرجع الفضل في الواقع إلى « الكسندر غراهام بل » مخترع التلفون ، الذي كان صديقاً للأسرة ، ومكّن الوالدين من الحصول على تلك المعلمة المبدعة ؛ف« بل »كان يشعر بعطف كبير على المعوّقين ، ومن ثم اقترح على « السيد كيلر » والد « هيلين » ، بالكتابة إلى « مؤسسة بيركنز » للمكفوفين ، شارحاً حال ابنته . ورداً على رسالته ، أوصى مدير المؤسسة بـ « الآنسة آن مانسفيلد سوليفان » ، لتكون معلمة للطفلة هيلين ، وكانت قد بلغت السادسة من عمرها .

وكانت « آن سوليفان » قد تخرجت من « مؤسسة بيركنز » وكانت واحدة من العبقريات النادرة ، التي نبتت وأزهرت في تربة من الفقر والمرض : فوالدها كان مدمناً على الخمرة ، وأخوها توفي بمرض السل ، وهددت هي نفسها بالعمى الكامل ، وهي في سن الثامنة عشرة ، لولا أن أنقذت بصرها جزئياً عملية جراحية . وفي

العشرين من عمرها غدت معلمة لهيلين . وكانت قد أصبحت قادرة على أن ترى قليلاً لتقرأ للطفلة ، ولتقودها إلى العالم الجديد .

لكن كيف تبدأ ؟ كيف يمكنها أن تحوّل الأفكار إلى كلمات تفهمها الطفلة ، وهذه الأخيرة لا مفهوم لديها البتة عن لغة البشر ؟ إلا أن « آن سوليفان » وجدت الطريقة . ففي الصباح بعد وصولها ، ناولت « هيلين » لعبتها ، وهي شيء قد اعتادت عليه وأحبته . ثم استخدمت رموز مكفوفي البصر بأن هجّت بأصابعها ، في يد هيلين ، كلمة « لعبة » . وكانت لعبة الأصابع هذه ، مثيرة لهيلين ، فقد هبطت بسرعة إلى والدتها ، لتنقل حركات الأصابع هذه إلى يد أمها . وقد كتبت « هيلين كيلر » في « قصة حياتها » عن هذه المرحلة فيما بعد ، قائلة : « لم أكن أعرف بأنني أهجي كلمة ، أو أن للكلمات وجوداً . كنت فقط أحرك أصابعي تقليداً » . ومع ذلك ، جعلتها « مس سوليفان» تدرك تدريجياً ، أن تلك الحركات لها معنى ، أي أنها « تشير إلى شيء » ، وهذا الشيء تلعب به وتحبه،وحاولت مرة أن ترمي أختها من المهد لأجله . وكان هناك بالطبع حركات أخرى تشير إلى أشياء أخرى ، وشرعت « آن سوليفان » تحملها إليها تدريجياً . وهكذا بدأت تتعرف بعض الأشياء حولها : الكلب الذي يرافقها ، والقدح الذي تشرب به ، والقبعة التي تضعها على رأسها عندما تأخذها أمها برفقتها . كان الأمر بالنسبة إليها لعبة عجيبة ومثيرة . فأي عالم هذا ؟ وكم هو زاخر بأشياء كثيرة ، ولكل شيء فيه اسم . وأخذت تستزيد أسماء وأسماء أخرى . وفي يوم تعلمت مجموعة أخرى من الكلمات : الأم ، الأب ، الأخت . فهي قد عرفتهم طيلة حياتها السابقة ، ولكن دون أن تعرف

أسماءهم . ودخلت في مفرداتها الجديدة كلمة « معلمة » ، وهو اسم هذه المخلوقة الحبيبة التي تلاعبها . وتابعت « هيلين » اللعبة بشوق وشغف : فظمأ الطفلة للمعرفة لم يكن ليروى ، وكانت « مس سوليفان » تغذيه باستمرار . وفي الربيع ، عندما اخضوضرت الحقول ، وغردت الطيور ، وخرجت الحيوانات من أوكارها ، وأزهرت الدنيا ، أعطت المعلمة تلميذتها المكفوفة ، نظرة داخلية إلى أسرار الطبيعة . وعن ذلك قالت هيلين في « قصة حياتها » : « كلما نمت معرفتي للأشياء حولي ، شعرت أكثر فأكثر بلذة العالم الذي كنت فيه » .

ثم فتحت « مس سوليفان » المربية المبدعة ، لهيلين عالماً ممتعاً جديداً ، وواسعاً جداً ، وهو « عالم الكتب » . فقد علمت الطفلة القراءة : بأن قدمت لها بطاقات دونت عليها الكلمات المختلفة ، بأحرف نافرة : كلمات تتضمن أشياء جديدة ، وأسماء جديدة ، وقصصاً ، وقصائد شعرية ، وأفكاراً جميلة ، وقوافي رائعة . ولم يكن بمقدور هيلين بالطبع أن تسمع موسيقا تلك القوافي ، ولكنه كان بإمكانها أن تتحسس بأصابعها ، تكرار الأنواع نفسها من الحروف في نهايات السطور . لقد كانت تلك الحروف النافرة المتكررة أشبه بطراز ثوبها الذي تلبسه يوم الأحد . وبدأت تشعر بأنه لم يكن ضرورياً أن تسمع ، أو ترى الأشياء الجميلة بحواسها ، لأنه يمكنها أن تعرفها دون ذلك ، لأنها تشعر بها . وأفهمتها « آن » بأن حتى أولئك الذين يمكنهم أن يروا أو يسمعوا ، يجب أن يشعروا ، دون رؤية أو سماع ، عدة أشياء في الحياة ، كالأمل مثلاً ، والفرح ، والحزن ، والحب . فمن جملة ما قالته لها : « خذي الحب مثلاً يا هيلين . لا يمكن لأحد أن يراه ،

أو يسمعه ، أو يتذوقه ، أو يشمه ، أو يلمسه ، ومع ذلك فهو موجود ، وقوي ، وجميل ، وحقيقي . وكيف تعرفين ذلك ؟ يمكنك أن تشعري به ، وهذا هو الطريق إلى معرفتك به » . فأجابتها « هيلين » : « نعم يا آن ، أنا يمكنني أن أشعر به ، فأنا أحبك ! » .

وهكذا تفتحت روح هيلين تدريجياً على العالم والحياة ، حتى جاء يوم حدثت فيه معجزة المعجزات فلقد تعلمت هيلين كيف تتكلم . وكان الطريق إلى ذلك طويلاً ، وشاقاً على الفتاة والمدرّسة ، وبدا أحياناً ميئوساً منه . إلا أن « آن » صممت على أن تعلم تلميذتها الكلام : فقد افظت بعض الأصوات ، وطلبت من هيلين أن تمرر أصابعها على لسانها أو شفاهها ، وحنجرتها ، وهي تخرج تلك الأصوات . وعادت هيلين لتمرر أصابعها ، وبالطريقة نفسها على أعضاء الكلام لديها . أي حاولت تقليد الأصوات ذاتها بتقليد الوضعيات والحركات التي اتخذتها تلك الأعضاء ، عند نطق تلك الأصوات . وبعد إخفاقات لا تعد ، نجحت الطفلة ، وهي في العاشرة من عمرها ، من لفظ أحرف الهجاء . ثم جاءت اللحظة المبهرة في حياتها ، عندما لفظت أول جملة مركبة وهي : « إنه دافيء » . وبذلك سقط الحاجز بينها وبين بقية العالم ، فلقد غدت تقريباً كغيرها من الناس ، وخرجت أخيراً من عزلتها ، بل من سجنها القاسي ، وأصبحت مستعدة لتلج عالم التعليم العالي .

وفي سنة ١٨٩٦ ، وهي في السادسة عشرة من عمرها ، دخلت برفقة معلمتها « مدرسة كامبردج للفتيات » في ماساشوستس ، لتعد

نفسها لـ « كلية رادكليف » . وكانت « آن » تحضر الدروس معها ، وتدوّنها ، لتترجمها لها برموز لغة المكفوفين . وكانت « هيلين » تأخذ امتحاناتها إلى البيت ، وتحت إشراف المدير ، الذي تعلم هو الآخر « حروف الهجاء اليدوية » . وكان يهجي الأسئلة لها في يدها ، وكانت هي تجيب بالآلة الكاتبة ، بطريقة نظام اللمس . وقد قال معلموها في بادىء الأمر « لا يمكنها أن تقوم بذلك » ، إلا أنها قامت به ، وبمدة قصيرة نسبياً . وبعد قبولها في « مدرسة كامبردج » ، تقدمت لامتحان القبول « لكلية رادكليف » ، ونالت درجة الشرف باللغة الانكليزية والألمانية . وبعد سنتين ، اجتازت الامتحانات النهائية ، ودخلت « كلية رادكليف » . وفي كل هذا لم تفارق معلمتها ،ولم تفارقها معلمتها .

لم تعد تشعر الآن أبداً بأن عاهاتها هي عوائق في حياتها . فهي مع بقية الطلاب ، وكبقية الطلاب ، يمكنها أن تغوص بشغف في عالم المعرفة الخفي ومكنوناته . فقد قالت : « إنني شعرت في عالم عجائب الفكر هذا ، بأنني حرة طليقة » . ودرست « شكسبير » ، والانشاء الانكليزي ، والأدب الانكليزي على أساتذة كبار . فكان أستاذها في « الانشاء الانكليزي » « تشارلز تاونسند كوبلاند » هو الذي اكتشف عبقريتها ككاتبة . فشجعها في هذا الطريق قائلاً : « إن لديك شيئاً خاصاً تقولينه ، يا مس كيلر ، ولك طريقتك الخاصة في قوله » . واقترح عليها أن تقدم له بعض وظائفها الانشائية عن قصة حياتها . وقبلت الاقتراح ، وهكذا قدمت للعالم وثيقة من أندر الوثائق البشرية ، وثيقة تبين صراع روح ،حجزت بعوائق لاتقاوم ، من أجل أن تدخل العالم اللامحدود ، ونضالاً انسانياً فريداً للتغلب على تلك القيود المروّعة.

لقد شرعت ترى العالم مكاناً ساحراً . زاخراً بحب واسع ، وإحسانات سماوية ، وأن العمى والصمم الحسيين هما لا شيء . ألسنا جميعاً عمياً ، وصماً تجاه الأشياء الأبدية ؟ إن الطبيعة لرفيقة بنا جميعاً ، فقد أعطت الإنسان خمس حواس ، إلا أنها أتبعتها بحاسة سادسة ، حاسة ترى وتسمع وتشعر كل ذلك في دفقة واحدة .

لقد نشرت كتابها الأول « قصة حياتي » في « صحيفة بيت السيدات » أولاً ، ثم في كتاب منفرد عام ١٩٠٢ . وفي الوقت نفسه تخرجت من « كلية رادكليف » مع مرتبة الشرف والثناء . وبالمال الذي حصلت عليه من بيع مخطوطتها ، عاشت هي ومعلمتها « آن سوليفان » في مزرعة في « رنثام » « Wrentham » في ماساشوستس، منصرفة إلى الكتابة والتأمل . وكان عالمها عالماً هادئاً ومثيراً . وكانت تتجول في الغابة ، بعد أن مدت لها آن حبلاً من شجرة إلى أخرى ، حتى يمكنها أن تسير وحدها دون أن تضيع . وكانت تقوم بنزهات مع أصدقائها في البحيرة ، وكانت تقول : بأنها تدرك الطريق فيها عبر رائحة أعشاب الماء والأزهار ، والنباتات على الشاطىء . وكانت تتحسس ضوء القمر خلف أشجار الصنوبر بمسح يدها على سطح ماء البحيرة ، حيث تنعكس ظلال أشجار الصنوبر . لقد حاولت أن تتصور العالم كما هو في الواقع ، ولكن كما قالت : وهل كان هناك من يعرف العالم الواقعي بحق ؟ لقد ترجمت إحساسات الرؤية إلى إحساسات لمس ، ومن هذه الترجمات الجميلة قولها عن غياب الشمس : « كنت أشعر غالباً بتويجات الأزهار تتساقط علي عند هبوب النسيم والرياح . وهكذا كان يمكنني أن أتصور غياب الشمس كوردة ضخمة في حديقة واسعة ،

هز النسيم تويجاتها فتطايرت وانطلقت نحو السماء » . لقد كانت قراءة الكتب ، هي أمتع تجربة لديها « إن الأدب هو يوتوبياي » . ولقد قدمت لها « آن سوليفان » جميع الكتب الكلاسيكية الشهيرة ، مطبوعة بطريقة « بريل » . وكانت أصابعها لا تتوقف عن « النظر » في قلوب أولئك العباقرة الذين خطوا تلك المؤلفات . وهكذا ، فلا حاجة بعد الآن للإشفاق على « هيلين كيلر » ، وهي مقيمة في مزرعتها ، وآن سوليفان إلى جانبها ترعاها بحب وإخلاص ، والعالم كله بصحبتها .

ولكن لم يلبث أن دخل ثالث في هذا العالم المثير ، وكان « جون ماكي J . Macy ».وهو أحد مدرسي الانكليزية في كلية رادكليف . فقد أعجب بآن سوليفان وتزوجها ، وعاش معها ومع هيلين . وقد قالت عنه هيلين بإعجاب وتقدير : « لا يمكنني أن أعدد المساعدات الكبيرة التي قدمها لي جون ، ومهدت لي الطريق ، ولكن أذكر بعضها . فمرة ، وقد تعبت جداً من عملي اليدوي في نسخ مقاطع من « قصة حياتي » ، سهر الليل بطوله ليضرب على الآلة الكاتبة أربعين صفحة من مخطوطي ، حتى تصل إلى المطبعة في وقتها . » لقد كانوا ثالوثاً جميلاً ، لا ثالوث هوى ، وغيرة ، وانتقام ، وإنما ثالوث إيمان ، وتعاون ، وإحسان ، وحب .

وخاضت « هيلين » تجربة حب المرأة للرجل : فخلال عطلة أخذتها « آن سوليفان » وزوجها ، أتي لهيلين بشاب ليكون سكرتيراً لها . وتآلف الاثنان ، وتفاهما ، وتحابا ، وطلبها الشاب للزواج . وفي لحظة فرح غامر انتابها ، نسيت نفسها وقبلت الطلب . إلا أنها

استفاقت فيجأة للواقع . فالحب الجسدي والزواج ، وإنجاب الأطفال ، ومسؤوليات الأمومة ، ليست لها ، فعليها أن تقنع في هذا العالم بحياتها كما هي ، محاطة بأحلامها وكتبها .

ولم يكن أصدقاؤها الذين يزوورونها كثيرين ، إلا أنهم كانوا نخبة رفيعة الثقافة ، إنسانية النزعة ، تمنح قلوبها بصفاء وسخاء لمن تصادق . ومنهم على سبيل المثال : « آندرو كارنيجي » ، و« مارك توين » ، الأديب الأمريكي الشهير ، الذي كان يقول لها ، بأنها رأت من العالم أفضل مما رأى أغلب الناس : « فالعالم يا هيلين ، مملوء بعيون لا ترى ، بعيون فارغة ، وزاخر بعيون تحدّق ولا روح فيها » . ومن أصدقائها أيضاً ناشر كتبها « فرنك دبل ده F · Doubleday » الذي كان بمثابة أب لها بعطفه عليها ، وطيبته معها ؛ و« ألكسندر غراهام بل » الذي كتبت عند وفاته قائلة : « على الرغم من أن الحياة لم تعد كما كانت منذ أن علمت بأن « الدكتور بل » قد غادر الدنيا ، فإن ضباب الدموع لا يزال يتألق مع الجزء منه الذي يعيش فيّ » .

ومع أن الحزن أخذ يغلّف حياتها لوفاة أصدقائها ، واحداً بعد الآخر ، فإنها تابعت عملها التعليمي التربوي للكفيف والبصير معاً . وساحت خلال الولايات المتحدة وهي تلقي المحاضرات : لقد تعلمت كيف تتكلم بوضوح كاف ليفهمها الآخرون . واستقبلت في كل مكان كـ « فلتة خارقة للطبيعة » . وكانت تسليها الصورة التي ترسمها لها الصحف : « فقد عرفتُ عبرها ولأول مرة بأنني ولدت عمياء ، صماء ، خرساء ، وأنني علّمت نفسي ، وأنه يمكنني أن أميز الألوان

وأسمع الرسالات الهاتفية ... وأنني لم أكن أبداً حزينة ، أو متخاذلة ، او متشائمة ... وان نفسي قد شحنت بطاقة سماوية ... لقد كنا نزود الصحف بالحقائق عندما نُسأل عنها ، ولكننا لم نعرف ابداً ماذا سيكون مصير تلك الحقائق في «أيدي الصحافة» . وفي الواقع ، لقد عرف الجمهور كثيراً عن « هيلين كيلر » ، ولكنه لم يشعر تماماً بأنها كانت انساناً قد حُمّل نصيباً من العذاب يفوق نصيب الآخرين ، إلا أنه بالمقابل قد منح نصيباً ضخماً من العبقرية الخالدة . لقد حرمت حاسة الإبصار ، ولكنها وهبت قوة البصيرة .

لقد ساعدتها بصيرتها على ان تستشف مستقبل الإنسانية ، فآمنت بأن خلاص تلك الانسانية سيأتي عن طريق تطبيق ذكي للاشتراكية ، يُوفّر فيه الغذاء للجائع ، والمأوى للمشرّد ، والتعليم للجاهل ، ويوطّد السلام بين الأمم ، وتسود العدالة بين الجميع « ففي العالم اليوم طيش كثير ، ولامبالاة بالانسان ، وفرح قليل .. فلو تمكن الجشعون ان يفكروا بشكل أفضل ، فإنه يمكن للفقير المحتاج ان يعيش بطريقة أفضل » . وفي تأملها حول التقدم الإنساني قالت : « بأنها ليست متفائلة جداً ولا قانطة جداً ... فأنا لست متفائلة لأن هناك شروراً كثيرة ، في العالم ، وفيّ انا . ولست متشائمة ايضاً ، لأن هناك خيراً كثيراً في العالم وفي الله . انا إؤمن فقط بإمكان تحسن العالم ، وان الله قادر على أن يجعل العالم أفضل ، وأنني أحاول ما في وسعي للمساعدة ، وأتمنى أن أقدم أكثر وأكثر . » .

لقد عاشت « هيلين كيلر » في عالمها الجميل ، وحاولت أن تعمل لتجعله أكثر جمالاً . وعندما كانت تعترض ظلال الحزن طريقها ،

كانت تمسح دموعها وتنتظر بصبر ، يوماً مزهراً آخر . ومن أكثر تلك الظلال قتامة في حياتها ، كان وفاة معلمتها « آن سوليفان » ، وكان ذلك سنة ١٩٣٦ . فكأن جزءاً من روحها قد مات . وقد علّق على ذلك « د . ريشار كابوت » قائلاً : « لم تر أرضنا أبداً — على ما أعتقد — قبل ارتباط « هيلين » و« آن » ، صداقة غير عادية كهذه الصداقة ، ولا تلاحماً بين روحين بشريتين كهذا التلاحم . » . ولفترة من الزمن ، بدت هيلين مضطربة وضائعة . إلا أنها ما لبثت أن تماسكت ، وبعون من سكرتيرتها الجديدة « مس بولي تومسون » تابعت عملها في ترجمة العالم من خلال فكرها الحساس ، ذلك العالم الذي كانت تراه من خلال أصابعها . ولقد زارت مرة ستوديو النحاتة « مالفينا هوفمان » وأثناء تنقلها بين التماثيل ، وقفت أمام أحدها ، ومسحته بيدها ، وعرفت أنه تمثال رجل ، ومن ثنيات ثيابه ، وما يحتذيه في قدمه بأنه قس . ومن الذئب الذي جثا إلى جانبه ، والأرنب بين ذراعيه ، والعصفور الذي يعشعش في ثنية قلنسوته بأنه رجل يحب الله ، وصديق للحيوانات . فرفعت طرفها إلى السماء وقالت : « إنه القديس فرانسيس داسيزي » .

كانت « هيلين كيلر » مثل ذلك القديس ، مقتنعة بأن نهاية الطريق الذي تمشيه بصبر ، هو بداية لطريق أجمل ، وكانت تقول : « لا يمكنني أن أفهم الإيمان الضعيف ، الذي يخاف أن ينظر في أعين الموت » فقد كانت متأكدة أن خلف الموت تجثم مدينة الشمس ، التي ستلتقي فيها بأصدقائها الذين غادروا دنياها . وكانت تقول أنه بعد موتها ،

ستكون لأول مرة قادرة على الرؤية الحسية الحقيقية . « فأنا الآن أتابع بفكري رؤية ما وراء كل رؤية ، حتى تقف روحي في ضوء حلزوني متصاعد وتصرخ « الحياة والموت واحد » .

ودوّنت « هيلين كيلر » عدة مؤلفات منها « قصة حياتي » التي أشير إليها ، وقد صدرت سنة ١٩٠٢ ؛ ونشرت بعد عام فقط أي سنة ١٩٠٣ « تفاؤل » ؛ وفي سنة ١٩١٠ « العالم الذي أعيش فيه »،وفي ١٩١٣ « خارج الظلام ، وفي ١٩٢٧ « دياني » ، وفي ١٩٣٨ « مذكرات هيلين كيلر » ، وفي ١٩٤٠ « اتركني لأتملك الثقة » .

تعليق جديد : توفيت هيلين كيلر سنة ١٩٦٨ ، وأُخرجت حياتها في عدة أعمال سينمائية ناجحة .

صاحبة «الأرض الطيبة»
بيرل سيد نستريكر باك
١٨٩٢ - ١٩٧٣

Pearl Sydenstricker Buck

قليلون جداً من القراء العرب الذين لم يطالعوا رواية « الأرض الطيبة » ، أكان بلغتها الأصلية الإنكليزية ، أو بترجمتها إلى العربية أو بلغات أخرى. وقليلون أيضاً الذين لا يعرفون أنها للكاتبة الروائية الأمريكية « بيرك باك » ، التي حازت على « جائزة نوبل » للآداب سنة ١٩٣٨ . ومع أن الرواية تنضح بما فيها ، وتوضح من خلال موضوعها العام ، وتفصيلاتها الجزئية ، بأنه لابد أن صاحبتها قد عاشت في الصين ، وتعمقت في حياتها الاجتماعية ، حتى كتبت بذلك التشخيص الحي لأبطالها ، وعواطفهم ، وسلوكهم ، إلا أن عديدين من القراء العرب قدلايعرفون الكثير عن حياتها . بل لعلهم قد تساءلوا عما دفع أمريكية للعيش في الصين ، ولتناول موضوعات كل رواياتها تقريباً من محيط تلك البقعة الشرقية النائية نسبياً من العالم . أو بتعبير أدق ، لابد أنهم تساءلوا عن سيرة حياتها ، ولا سيما أن حياة كبار الأدباء ، والعلماء ،

والفنانين ، والسياسيين ، والفلاسفة ، والمشاهير في كل باب ، تثير دائماً فضول الناس ؛ ولعلّهم ، لأنهم يشعرون بأن أولئك هم من طينة خاصة غير طينتهم ، فعليهم من ثمّ أن يتعرفوها .

وفي الحقيقة ، إنّ من يتلمس حياة تلك الروائية الأمريكية ، يرى بأنها كانت رواية واقعية ، غنية جداً ، وزاخرة بالتجارب والأحداث كروايتها « الأرض الطيبة » ، بل أشد خصوبة وتشويقاً ومتعة . وربما أدركت هي نفسها ذلك ، أو لعلّها فعلت كما يفعل عادة كثير من الأدباء أو الشخصيات التي كان لها شأن ما في كل مجتمع من المجتمعات ، فعملت على تدوين سيرة حياتها ، وكان ذلك سنة ١٩٥٣ ، أي بعد نيلها « جائزة نوبل » بخمس عشرة سنة ، وأسمتها « عوالمي المتعددة My Several Worlds » .

والمطالع لهذا الكتاب ، يلاحظ بأن « بيرك باك » لم تقص فيه حياتها الشخصية الزاخرة فحسب ، وإنما مزجتها مزجاً حياً وعميقاً ، بالتطورات السياسية والاجتماعية والفكرية التي جرت ، وكانت تجري في أجزاء من أنحاء العالم ، وبصفة خاصة في الصين والولايات المتحدة الأمريكية . وقد عبّرت عن هذا قائلة : « كانت عوالمي قائمة في الطرفين المتقابلين من الكرة الأرضية — وتقصد الولايات المتحدة الأمريكية ، والصين — . وكانت سنو حياتي التي عشتها فيهما هي التي تربطهما . ولقد دفعني العصر الذي ولدت ونشأت فيه ، والمواهب التي جعلت مني أديبة ، كي أعيش بعمق وسعة ، لا في

البيت وضمن الأسرة فحسب،وإنما متوغلة في حياة عدد من الشعوب ». وتريد بذلك ، لا الشعبين الصيني والأمريكي فقط ، وإنما الهندي ، والياباني وعدداً من شعوب الجنوب الشرقي من آسيا ، وبعض شعوب أوربا أيضاً ، إذ أنها احتكت بتلك الشعوب بطريقة أو بأخرى . وهكذا جاءت سيرة حياتها تلك شاهد عيان ، وتاريخاً ملوناً بالأدب ؛ عن أكثر من مرحلة من مراحل التاريخ العالمي في الحقبة المعاصرة .

ولكن قد يكون من أهم ما أبرزت من حياة « عوالمها المتعددة » ، حياة الصين التي عاشت فيها أربعين عاماً ، وخلال مرحلة خطيرة جداً من تاريخ تلك البلاد ، ولا سيما منها الممتدة من أواخر القرن التاسع عشر ، وحتى بدايات ظهور الشيوعية فيها سنة ١٩٣٤ م ؛ تلك المرحلة التي حملت في طياتها تغييراً جذرياً في حياة الأمة الصينية . ومع أنها لم تعاصر مباشرة الحقبة التي سبقت بالطبع ولادتها عام ١٨٩٢ م ، إلا أنها وعتها بعمق ، لا عبر ما قرأت عنها في كتب التاريخ فحسب ، وإنما عن طريق احتكاكها بالشعب الصيني نفسه وبعدد من مفكريه ، وبإتقانها للغته ، وتتبعها الدؤوب لأحداثه وحضارته ، وبشوق ورغبة . فربطت في كتابها ربطاً محكماً بين تلك المرحلة ، التي امتدت من الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، وهي البداية الفعلية لعملية التغيير في حياة الصين ، والمرحلة التي عاصرتها فعلاً ، وعاشت أحداثها وتطوراتها ، بل وتابعت بدقة وخطوة خطوة مجريات الأمور فيها حتى تثبت الشيوعية فيها سنة ١٩٤٩ .

أما المرحلة الخطيرة المشار إليها من حياة الصين ، فيمكن إعطاؤها في جزئها الأول أي في القرن التاسع عشر عنواناً عاماً هو « مرحلة تكالب الدول الأوروبية واليابان على الصين الضعيفة » ، وفي جزئها الثاني ، أي بدءاً من مطلع القرن العشرين،« مرحلة النهضة الصينية المعاصرة » . فالصين تلك البلاد الواسعة الشاسعة ، التي تبلغ مساحتها قدر مساحة أوربا كلها ، والتي كان لها في القديم حضارتها الأصيلة ، الغنية والزاهرة ، وثرواتها الكثيرة ، تلك الثروات التي أثارت في القرن الثالث عشر الميلادي ، لعاب أوربا ، عبر أقاصيص السائح البندقي « ماركو بولو »(١٢٥٤ — ١٣٢٣ م)، كانت قد تقوقعت على نفسها ، وأصيبت حضارتها بالركود ، وهي تتابع حياتها القديمة ، دون أن تنظر إلى ما كان يجري في العالم من تطورات حضارية ، ولا سيما في أوربا . بل وأغلقت نفسها وبشدة ، على ذلك العالم الأوربي ، الذي تعرفته بأنه عالم طامع بخيراتها منذ أن سعى البرتغاليون في القرن السادس عشر نحو دخول أرضها ، وانتهى بهم الأمر أن استقروا في « مكاو » في الجنوب الشرقي من تلك الأرض ، وسيطروا على تجارة الشرق الأقصى ؛ ومنذ أن تبعتهم الدول الأوروبية الأخرى في مطامحهم ، وفي استعمار جنوب شرقي آسيا .

وهكذا كانت الصين في مطلع القرن التاسع عشر ، أي قبل أن تحط « بيرل باك » رحالها فيها بقرن من الزمن تقريباً ، تعيش حياتها الماضية ، وعيون أوربا ترقبها بطمع وجشع ، ولا سيما أنه تبدى لهذه القارة بوضوح ، أن اقتصاد تلك البلاد قد أصابه الوهن ، وتفشى

الفساد والرشوة في مجتمعها ، واضطرب تنظيمها المالي ، ورزح شعبها العامل في الزراعة بصفة خاصة ، تحت وطأة الضرائب المنهكة والابتزاز ، واضطرب حبل الأمن والعدالة ، وانتشر قطاع الطرق وتعاطي الأفيون ، واتجه حاكم كل مقاطعة من مقاطعاتها للاستقلال عن السلطة المركزية ، وتدهور حال الجيش ، الذي كان لا يزال يستخدم الأسلحة القديمة ، ووسائل القتال البالية .

وكان على رأس الحكم في العاصمة « بكين » « أسرة تشينغ » (١٦٦٤ — ١٩١٢) . وهي أسرة منشورية ، ينظر إليها الصينيون على أنها أسرة مغتصبة للحكم ، وغريبة عن أصالة الصين . وعندما حاول الامبراطور « تاوكوانغ » (١٨٢١ — ١٨٥٠) أن يمنع شعبه من تعاطي الأفيون بهدف إصلاح أحواله ، ووضع حداً من ثمّ لتجارة تهريبه من الهند ، التي كانت تمارسها انكلترة ، شنت هذه الأخيرة حرباً على الصين ، عرفت بحرب الأفيون (١٨٣٩ — ١٨٤٢) ، انتهت بانهزام الصين ، واستيلاء انكلترة على جزيرة « هونغ كونغ » ، التي لا تزال تحت سيادتها حتى الآن ، وفتحت للتجارة الأوربية خمسة موانىء صينية ، وفرضت على الصين غرامة حربية مرهقة جداً ، وشرع التبشير الديني يأخذ طريقه تدريجياً إلى البلاد .

وكانت « حرب الأفيون » تلك بداية التدخل الأوربي السافر بشؤون الصين ، ذلك التدخل الذي كان يطمح بمزيد من فتح الموانىء الصينية لتجارته ، وبالسيطرة على الأجزاء الساحلية الهامة من البلاد . وهكذا سرعان ما تسابقت الدول الأوربية على التهام الفريسة ، التي

تفاقم ضعفُها أثناء حكم الامبراطور « هسين فنغ » (١٨٥١ — ١٨٦١) . اذ اندلعت في أيامه حرب أهلية عنيفة ، واستطاع داعية ديني يدعى « هونغ تسيوتشوان » أن يؤلف حوله بآرائه الدينية الخليطة من البوذية والبروتستنتية المسيحية ، الفلاحين الذين أنهكتهم الضرائب ، فأعلنوه امبراطوراً باسم « تين وانغ » أي « الملك السماوي » ، وأطلقوا على أنفسهم اسم « التاي بينغ » ، وجعلوا « نانكين » عاصمة لهم ، وتسلطوا على ثماني مقاطعات ، وسموا امبراطوريتهم المستحدثة « مملكة السلام الكبير السماوية » . وسعت هذه الحركة للامتداد نحو الجنوب، وفي جو من المذابح والتخريب . وجاءت كارثة فيضان نهر «هوانغ هو» وتغييره لمجراه سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٤ ، لتزيد الطين بلة ، ولتنشر الدمار والمجاعة .

ورأى الأوربيون مرة أخرى ، أن الفرصة سانحة لدس أنوفهم ، وتحقيق مطامعهم . فاتخذت فرنسا وانكلترة بعض الذرائع الواهية لاحتلال « كانتون » سنة ١٨٥٧ م ، ثم الوصول إلى العاصمة « بكين ». وانتهت الحرب بإجبار الصين على توقيع معاهدات « تيان تسين » التي استفاد منها كل من انكلترة ، وفرنسا ، وروسيا ، والولايات المتحدة ؛ تلك المعاهدات التي يطلق عليها اسم « المعاهدات غير العادلة » أو « غير المتكافئة » ، والتي فتحت بموجبها موانىء جديدة لتجارة الغرب ، وفرض على الصين التبادل الدبلوماسي ، والحرية الدينية ، وتعريفات جمركية لصالح الغرب . ولم تلبث انكلترة وفرنسا أن عاودتا الحرب سنة ١٨٥٩ بحجة الإخلال بما اتفق عليه ؛ وفي هذه المرة دخلتا بحملة حربية مشتركة العاصمة « بكين » ، وأحرقتا القصر الامبراطوري الصيفي ونهبتاه .

وقد كتب أحد قادة الحملة وهو الضابط الانكليزي « غوردون » ، الذي عرفه العرب فيما بعد في مصر والسودان ، قائلاً : « كان الجند مصابين بحمى النهب والسلب ، وإنه لمشهد مروّع من الخراب الشامل ، يتجاوز طوقي وصفه » . ونال الأوربيون في « معاهدة بكين » ١٨٦٠ ، امتيازات أوسع ، وغرامات حربية أوفى . واغتنمت روسيا الفرصة ، فاستولت على الجزء الشمالي الشرقي من الصين ، الذي أسمته بـ « المقاطعة البحرية » حيث أنشأت فيه ميناء « فلاديفوستاك » الشهير .

وفي خضم تلك المآسي التي كانت تعانيها الصين ، توفي الامبراطور ليخلفه على العرش طفل في الرابعة من عمره . وكان على رأس مجلس الوصاية ، أمه الامبراطورة الشهيرة « تسوهي » أو « دويجر » كما كانوا يطلقون عليها ، وكما تسميها كاتبتنا « بيرل باك » . وقد أخذت هذه الامبراطورة ، مع أركان حكمها بمبدأ ضرورة « تحديث الصين » ، والأخذ من الحضارة الغربية ، لتعود للصين قوتها وفعاليتها . فابتدأت بتنظيم الجيش على النمط الأوربي ، وأنشأت أسطولاً حربياً ، ومدت السكك الحديدية ، وأرسلت البعثات العلمية إلى الولايات المتحدة وأوربا ، وفتحت المدارس الحديثة وبخاصة للبنات ،وأدخلت بعض مظاهر الصناعة الأوربية ، وتمكنت أن تقضي على « حركة التايبينغ » ، فعادت الوحدة المبدئية للبلاد ، وإن بقي اضطراب حكام المقاطعات قائماً . إلا أن هذا الاتجاه التجديدي ، لاقى مقاومة شديدة من أكثرية الشعب ، ولا سيما أنه آتٍ من « الأجانب» ، الذين أطلق عليهم الصينيون اسم « الدخلاء » و« الشياطين » . وكان كره الشعب لهم قد

تفاقم بعد أن نهبوا القصر الامبراطوري المقدس ، وهدموا المعابد ، واعتدوا بتبشيرهم الديني المسيحي على دين الأجداد ، وبعد أن قامت فرنسا بانتزاع « طونكين » منهم على إثر حرب بهذا الاسم (١٨٨٤ — ١٨٨٥ م) .

وظهر للصين عدو اسيوي إلى جانب الأوربيين ، وهو « اليابان » ؛ وكانت تلك البلاد قد خرجت هي الأخرى من انغلاقها على نفسها ، وتفتحت على الحضارة الأوربية وقلدتها ، فعاشت « عصر النور » أو « الميجي » كما أسمته ، الذي جعل منها قوة اقتصادية وفكرية وعسكرية ، تضاهي الدول الأوربية ، فغدا لها هي الأخرى أطماعها بالصين الضعيفة ، فقامت الحرب بينهما (١٨٩٤ — ١٨٩٥) ونالت منها الاعتراف باستقلال كوريا ، وضمت إليها جزيرة فورموزا وجزراً أخرى ، وفرضت عليها غرامة حربية ضخمة .

ذاك كان الجو الاستعماري الملتهب في الصين سنة ١٨٩٢ ، عندما حُملت صاحبة « الأرض الطيبة » من بلادها الولايات المتحدة الأمريكية وهي لا تزال طفلة رضيعة ، لا يتجاوز عمرها الأشهر الثلاثة ، لتُزرع في أرض الصين . حملها إليها والداها ، اللذان كانا قد سبقاها إلى سكنى هذه الديار باثني عشر عاماً . إذ كانا يعملان بالتبشير الديني على المذهب البروتستني البريزبيترياني . وكانا — كما قالت عنهما ابنتهما — متحمسين جداً لعملهما هذا ، حتى تركا موطنهما الولايات المتحدة الأمريكية ، وأهليهما ، ونذرا نفسيهما له بتفان عجيب . وتضيف « بيرل باك » إلى ذلك قائلة : « إذا كنت قد نشأت وترعرت

في الصين ، إلا أنني ولدت ، وصدفة في الولايات المتحدة الأمريكية . فأمي التي كان لها من العمر ثلاث وعشرون سنة عندما انتقلت إلى الصين مع والدي ، رزقت بسرعة بأربعة أولاد . إلا أنها فقدت ثلاثة منهم بالأمراض المدارية المنتشرة في الصين ، فنُصحت أثناء حملها بي بالسفر إلى الولايات المتحدة ، ولبيت الأسرة في ولاية « فرجينيا الغربية » ؛ فوضعتني هناك في بيت جدي الجميل والواسع في « هيلزبورو » ، في السادس والعشرين من حزيران سنة ١٨٩٢ م » .

وكان والدا « بيرل » متعلمين تعليماً عالياً ومثقفين ثقافة رفيعة : فقد تخرجت أمها من « مدرسة بيل وود للأناث » الشهيرة آنذاك في « كنتكي » ، وأبوها من « جامعة لي » في واشنطن ، هذا إلى جانب ثقافة عامة وواسعة ، تناولاها من مطالعة الكتب المتنوعة ، ولا سيما الدينية المرتبطة بعملهما التبشيري . وكان والداها يتقنان اللغة الصينية الماندرانية ، ويجيد والدها الألمانية ، لأنه كان من أصل ألماني قبل هجرة أسرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية . وقد اختار لهما « مكتب التبشير » الذي يتبعانه ، مكاناً لعملهما مدينة « شيكيانغ » ، وهي ميناء على نهر « يانغ تسي » ، عند اتصاله بالقناة الكبرى التي تصل هذا النهر بنهر « هوانغ هو » .

وتتحدث « بيرل » عن طفولتها الأولى في الصين بتفصيل كبير وتؤكد أنها كانت سعيدة فيها ، بين أخ يكبرها سناً بأحد عشر عاماً ، ووالدين يغدقان عليها الحنان والعطف ، وخدم من الصينين ، يمنحونها من الرعاية والدلال الكثير ، حتى إنهم كانوا يقومون خلسة بكل ما

تفرضه عليها والدتها من أعمال ، كعقوبة على بعض الذنوب التي كانت تقترفها . وكانت الأم تغضب من هذا الأمر لأنها كانت تعتقد بأنه يفسد تربيتها ، ولذا عملت على تكليفها بأعمال لا يمكنهم أن يقوموا بها ، كإلزامها مثلاً على البحث عن معنى كلمات معينة في القاموس الانكليزي وتدوينها . بل إنها تذكر أنه عندما أراد والدها مرة أن يجلدها لأنها قالت كذباً بأنها لم تكسر مجرفة البستاني في حديقتهم وكانت قد كسرتها فعلاً ، انبرى البستاني الطيب ، وتحمل هو مسؤولية كسرها ليبعد عنها العقاب . ولكن ذلك لم ينفعه وينفعها ، لأن الوالد كان قد رأى الحادث بنفسه ، فطبق عليها عقاب الجلد الخفيف .

ولم يكن العالم الذي عاشت فيه « بيرل » في الصين عالماً صينياً بحتاً ، وإنما عالماً آسيوياً ، أوربياً ،أمريكياً: فالأرض صينية ، ومعظم من حولها من الصينين ، إلا أنها وهي في طفولتها المبكرة تلك ، عرفت الشيء الكثير عن «الهند» ، وذلك من أسرة الطبيب الهندي الذي كان يسكن بجوارهم . فقد كانت تجلس ساعات وهي تصغي بشغف للقصص التي يرويها أفراد الأسرة عن طفولتهم في الهند ، وحياتهم ، وعاداتهم ، وديانتهم ، ومعتقداتهم . والأمر ذاته عن « اليابان » ، حيث كان في الجوار سيدة يابانية تعيش مع زوجها الانكليزي . كما كان بين صديقاتها ، أطفال من الفيليبين ، وأندونيسيا ، وبورما ، وكوريا . وتعلق على ذلك قائلة : « وهكذا أدركت عالماً كانت الصين في مركزه ، وحولها هذه الشعوب ، وكلهم كانوا أصدقاء لنا » . كما كان هناك أسرة انكليزية وفرنسية وإيطالية . وهؤلاء الأوربيون

الغربيون هم الذين كان يسميهم الأطفال الصينيون من أصدقائها بـ « الأجانب » ، وكانوا ينظرون إليهم على أنهم قاموا بأعمال شريرة في آسيا ، وأنهم أعداء لهم ، وأقوياء ، وقد أساؤوا للصين « بالمعاهدات غير المتكافئة » التي فرضوها عليهم . وحتى لا يجرحوا عواطف صديقتهم « بيرل » كانوا يستدركون بخجل قائلين : « ولكن هؤلاء البيض الأجانب ، هم غير الأمريكيين ، إذ أن هؤلاء لم يأخذوا أرضنا ؛ وهم يرسلون إلينا المساعدات أثناء المجاعة . »

وهكذا شعرت « بيرل » منذ الطفولة المبكرة ، وبشكل مبهم ، ماذا كان يجري في الصين . وتعلّق على قول صديقاتها ذاك ، فتقول : « قبلت بفرح هذا التمييز للأمريكيين ، إذ أشعرني بأنني لست جزءاً من هؤلاء الأوربيين الغربيين المسيئين .. فنظرت أنا أيضاً إليهم على أنهم أعدائي . وكنا إذا ما لعبنا لعبة « الشرطة واللصوص » ، كانت تلك اللعبة انعكاساً للحرب التي لا تنتهي بين الصين وحلفائها الآسيويين الطيبين من جهة ، ويمثلون « الشرطة » ، وبين « اللصوص » من جهة أخرى ، الذين يتمثلون بقوى الغرب الاستعمارية . وفي هذا الصراع كان يأتي دوماً دوري في ذروة المعركة ، فأقدم الطعام والعون — بصفتي أمريكا — للصينيين ، الذين كان النصر حليفهم دوماً » .

أما عالم « بيرل » الأمريكي ، الذي فُصلت عنه ، فلم تفتقد في تلك الأجواء انتماءها إليه ، إذ كان يحدثها عنه بشغف ، وحب ، ولهفة ، والداها : فيصفان لها الشوارع الهادئة في قراه ، والمنازل الواسعة المتناثرة بين الأشجار ، والذهاب إلى الكنيسة أيام الآحاد ، لعبادة الله

في كنائس قديمة وجميلة . ويحدثانها عن الناس الذين يخضعون للقانون ، وعن الأطفال الذين يطيعون آباءهم ، ويتعلمون في مدارس منظمة ، وعن الأطباء الذين يشفون المرضى ، وهم ليسوا بكثيرين ، ويرسلونهم إلى مستشفيات نظيفة وجميلة . ولا أحد هناك يصاب بالكوليرا ، أو الزحار ، أو التيفوس ، أو يموت من الطاعون الدملي . ولا يُرى مصابون بالبرص يتسكعون في الطرقات ، ويزعجون المارة وأصحاب الحوانيت ، كما هو عليه الأمر في « شيكيانغ » . وتعلّق « بيرل » على تلك الأقوال قائلة : « ولذا فإنني لست ملومة إذا نشأت ولديّ أوهام حلوة كثيرة عن بلدي » .

وفي سن السابعة أرسلت إلى المدرسة الصينية مع لداتها من الصينيات وكانت تشعر أنها فرصة لا تقدر بثمن أن تذهب إلى المدرسة ، إذ ستكون وزميلاتها عضوات ضمن « أرستقراطية » المتعلمين . وكانت الامبراطورة « تسوهي » قد شجعت على فتح مدارس البنات تلك . وكانت « بيرل » قد تعلمت وعُلِّمت ، قبل الالتحاق بالمدرسة ، الكثير عن التربية في المجتمع الصيني . وعرفت أن « المعلم » في الصين يأتي بعد الآباء في تربية الفرد ، في سني الطفولة والمراهقة . ولا يقع على عاتقه التربية الفكرية للطفل ، وتنمية معارفه فحسب وإنما التربية الأخلاقية أيضاً . فالتربية في الصين ليست تعليم القراءة ، والكتابة ، والحساب ، والتاريخ ، والأدب،والموسيقى فحسب ، وإنما تعليم الطفل تنظيم نفسه ، وتدريبه على السلوك القويم اللائق . أي تدريبه على آداب السلوك تجاه جميع الأشخاص في المجتمع ، وفي مختلف أحوالهم

وعلاقاتهم . وهذا النوع من التربية الأخلاقية ــ الاجتماعية ــ بحسب « بيرل » ــ كانت تولد لدى الطفل الأمن النفسي الداخلي . فالطفل يتعلم في البيت أولاً كيف يسلك تجاه مختلف الأجيال ، من أجداد ، وآباء ، الأكبر فالأصغر ، وتجاه الأعمام والعمات ، وفي المدرسة تجاه المعلم ، والأصدقاء ، والأشخاص الرسميين ، والجيران وغيرهم من المعارف . فهذه التربية تمثلتها هي الأخرى ، ويبدو أنها كانت متطابقة مع تربية والديها لها إذ قالت : « وهكذا تعلمنا نحن الصغار أين نجلس عندما ندخل الغرفة : فلا نأخذ مقاعد الأكبر سناً حتى نصبح نحن الأكبر سناً . وفي كل سنة تُضاف إلى عمرنا ، عرفنا كيف نحصل على الامتيازات الملائمة لتلك السن . وإذا طالبنا بها قبل أوانها ، كنا نحن الخاسرين في أعين الآخرين . ولذا كنا صبورين ، إذ أن الزمن سيحمل إلينا كل ما نتطلع إليه . » وتعقّب « بيرل » على ذلك ، موازنة بين حياتها تلك ، وحياة أولادها الذين ربوا في موطنهم أمريكا ، قائلة : « كم كان سهلاً علي أن أعيش في ذلك العالم ، حيث كنت أعرف ماذا عليّ أن أصنع وكيف أتصرف ، دون أن أُنبّه إلى ذلك أو أُوبخ ، كما يحدث اليوم مع أولادي في هذا العالم . فكم هو مُربك لأطفالي الأمريكيين اليوم ألا يعرفوا مثلاً فيما إذا كان الانسان الراشد يرغب في أن يُنادى باسمه الأول أو بكنيته . فأنا أعرف أسرة ، ينادي الأطفال فيها والديهما باسميهما الأوليين ، وأنا أشعر أمام ذلك ، باضطراب وتشوش في قلوب أولئك الأطفال ومشاعرهم . إن العلاقات غير واضحة لهم ، فهم لا يعرفون مواقعهم

من الأجيال : فهم يعلمون أنهم ليسوا براشدين ، ويعلمون أن الراشدين ليسوا أطفالاً ، ومع ذلك فإن الحدود بين الطرفين غير واضحة ... لقد تعامت في عالمي الطفولي الأول مثلاً ، عدم الجلوس حتى يجلس الأكبر سناً ، ولا البدء بالطعام حتى يبدأ ، ولا يُحتسى الشاي حتى يرفع الكبار فناجينهم . وإذا لم يكن هناك مقاعد كافية ،نقف،وعندما يتكلم الأكبر سناً نجيب باحترام وكما يجب.هل شعرنا بأننا مقيدون ؟ أنا متأكدة من أننا لم نفعل ، ولا خطرت هذه الفكرة في بالنا . كنا نعرف أين نحن ، ونعرف بأننا سنكون يوماً الأكبر سناً . » .

وجاءت المدرسة فثبّتت تلك التربية الاجتماعية الأخلاقية لدى « بيرل » : فمن المفروض في المتعلم أن يكون« إنساناً أخلاقياً أميراً » بالمعنى الكونفوشيوسي . ومن ثم قد يُتسامح مع الجاهل الأمي إذا ارتكب شراً أو أمراً طائشاً ، ولكن لا يمكن الصفح أبداً عن المتعلم إذا اقترف ذنباً ، أو حاد عن سواء السبيل .

وكان على « بيرل » أن تتعلم ما تقدمه لها المدرسة الصينية من مواد درسية ؛ وكانت قد تعلمت اللغة الصينية مبكراً جداً بل تقول بأنها تعلمتها قبل تعلمها لغتها الانكليزية . وفي الوقت ذاته، كان عليها أن تحيط بدروس بلادها أمريكا ، والتي لا تعلمها المدرسة الصينية . كالتاريخ والأدب الأمريكيين ، وتاريخ الأدب في أوربا وانكلترة ، والأدب الكلاسيكي اليوناني والروماني . وكانت والدتها هي التي تقوم بتعليمها هذه المواد ، بصبر وأناة . وبالإضافة إلى ذلك ، كان هناك أستاذ صيني مسن ، يعلمها الصينية الماندرانية في البيت ، وبعد

الظهر ولساعتين يومياً . ومع هذه الكثافة التعليمية ، تقول « بيرل » بأنه كان لديها وقت كاف للّعب والأحلام، وزيارة صديقاتها الصينيات في بيوتهن ، واستقبالهن في بيتها . وكانت تلهو معهن على سفح التل الممتد أمام منزلها ، وفي الاصطبل حيث يضع والدها حصانه الأبيض . وكانت تقضي في الشتاء ساعات طويلة في غرفتها ، وهي تقرأ روايات « تشارلز ديكنز » المحببة إليها . وقد بدأت بقراءتها في سن السابعة ، وأولها كانت رواية « أوليفر تويست » . وكانت تشعر بسعادة كبيرة وهي تعيش مع أبطاله ، بل وتتجسد بعضهم في شخصها .

وكان والداها منشغلين في تعليمهما ووعظهما ، وفي الوقت ذاته ، كانا يستقبلان الصينين في بيتهما ، إذ لم يكن لديهما — بحسب قول ابنتهما — شعور بالتمييز العرقي ، كما كان عند بعض الأوربيين . فحكمهما على الانسان ، هو حكم على شخصيته وتعقله لا على عرقه أو طائفته . وكانا بدورهما يدعيان إلى بيوت الصينين ، ويسهمان معهم في أعيادهم واحتفالاتهم ، بل إن عملهما نفسه كان يتطلب منهما هذا الاختلاط . وكانا يشاركان أيضاً هما وأولادهما ، الأوربيين في الجوار ، حفلاتهم وأعيادهم ، كما كانا لا يتركان عيداً أمريكياً إلا ويحتفلان به مع أولادهما . وكان والد « بيرل » كثير التنقل بحكم عمله ، ولم تكن والدتها لترافقه بل تبقى مع أولادها . وإذا فكرت بمرافقته ، فإنها كانت تأخذهم معها ، ولم يكونوا كثراً ، إذ لم يتجاوز عددهم الثلاثة : بيرل وأخوها الأكبر وأختها الصغرى .

وتعلّق « بيرل » على عالم طفولتها ذاك بقولها : « هكذا نشأت في عالم مزدوج : عالم أبيض صغير مؤلف من والديّ بصفة خاصة ، وعالم صيني كبير غير نظيف جداً ، إلا أنه كله حب .. لم يكن هناك اتصال حميم بين هذين العالمين ، ولذا فعندما أكون في عالم الصين ، أشعر بأنني صينية قلباً وقالباً : أتحدث باللغة الصينية ، وأتصرف تصرف صينية ، وآكل كما تأكل صينية،وأتقاسم أفكار الصينيين وعواطفهم . وعندما أكون في العالم الأمريكي أغلق الباب بينهما ... كما نشأت نتيجة تعليمي المزدوج ، وأنا أعتقد بألا وجود للحقيقة المطلقة ، وإنما هناك حقيقة كما يراها كل شعب ، فهي متعددة الوجوه في تنوعها . ونجم عن ذلك ، بأنني غدوت غير قادرة على الانتماء والانحياز إلى جانب واحد من أية مشكلة . » .

وقد بدا هذا العالم الطفولي الأول لـ « بيرل » عالماً ثابتاً كالشمس والقمر ، وكل طرقه سلاماً وأماناً وسعادة . ولم تر فيه الكثير مما يؤذي مشاعر طفلة في سن السابعة ، سوى ما رأته من أحوال الشعب الصيني الفقير في سنة المجاعة . وقد عملت وهي في تلك السن على مساعدة والديها في التخفيف من آلام من كان يتوافد عليهم من أولئك الجياع . لقد رأت أطفالاً ميتين من الجوع ، تنهش جثثهم الكلاب . وتعلق على ذلك بقولها : « لقد تعلمت الكثير من هذه التجربة المؤلمة المبكرة : تعلمت بأنه يمكن القضاء على آلام الانسانية إذا وجدت الإرادة لفعل ذلك . ومن تلك المعرفة اكتسبتُ الأمل الدائم في الحياة ، والتخلص من اليأس . كما تعلمت ألا أخاف الموت،فمن الأفضل للإنسان أن يتعرف تلك الأحزان العميقة التي لا يمكن تجنبها،مبكراً . لأن الحزن والألم يأخذان عندها مكانهما الحقيقي في الحياة،فلا يخافهما الانسان ».

إلا أن عالم طفولتها ذاك الهادىء والثابت ، اضطرب سنة ١٩٠٠ م، عندما بلغت الثامنة من عمرها . إذ أن عالميها المختلفين اللذين ربطتهما بوجودها انفصما : فأخذ الزوار الذين كانوا يطرقون بابهم ، يقلّون جداً ، بل كانت تمضي أيام دون أن ترى صديقاً صينياً واحداً يقرع الباب . وغدت صديقاتها في معظم الوقت صامتات ، ولم يعدن يلعبن معها بالمرح السابق ، وانقطعن عن تسلق التل من الوادي . وحتّى زميلاتها في المدرسة ، لم يعدن يرغبن في مقاسمتها المقعد ، هذا علماً بأنها كانت قبل ذلك محبوبة جداً منهن ، وكن يغمرنها بالود والهدايا . وعجبت في بادىء الأمر من هذا التغير في السلوك ، ثم لم تلبث أن شعرت بأنها مظلومة ، لأنها لم تر في تصرفها ما هو سبب لهذا الجفاء . إلا أن أمها عملت على شرح الأمر لها. وبينت لها أن ما يجري لا علاقة له بها أو بالأمريكيين وإنما « بالبيض الغربيين » ، أي الأوربيين اللذين أساؤوا جداً للصينين ، وكانوا قساة معهم ، فأخذوا أرضهم وموانئهم وأكدت لها بأن الأمريكيين لم يفعلوا ذلك . إلا أن « بيرل » عرفت بحسها الداخلي ، المرتبط بأحاسيسها السابقة ، بأن الصينين قد نظروا إلى كل « البيض » على أنهم « أجانب » و« شياطين » وهي منهم ، وأنهم جميعاً مسؤولون عما حدث . أما ما حدث ، فإنه قامت سنة (١٩٠٠ م) ، جميعة سرية صينية تدعى « جمعية الملاكمين » . (البوكسرز) ، وأثارت الحقد ضد الأوربين والأجانب بعامة ، وضد المبشرين بالمسيحية ، وأظهرت مقاومتها للإصلاحات الغربية ، ويبدو أنها كانت تُغذّى من الامبراطورة نفسها . وقام بعض أفرادها فقتلوا

عدداً من المبشرين كما قتلوا السفير الألماني ، وحوصرت دور السفارات في بكين ،واقتلعت السكك الحديدية التي مدها الغربيون . وأتت فرقة عسكرية أوربية مشتركة بقيادة مارشال ألماني ، وهاجمت الصين ، وتقدمت إلى بكين ، ورفعت الحصار عن السفارات بعد قتل ، ونهب ودمار ، ومعاملة لا إنسانية . وكان قيصر ألمانيا « غليوم الثاني » قد زود مارشاله بالكلمات الآتية : « أيها الألمان تصرفوا بحيث أن كل صيني يسمع باسم ألمانيا في المستقبل ، ستصطك ركبتاه من الخوف ، ويفر بعيداً لينقذ نفسه ». وانتهى الأمر بتقاسم جديد لموانىء للصين بين الدول الأوربية حتى غدا معظم الساحل الصيني بيدهم ، وفرض على الصين غرامة مالية كبيرة جداً ينوء بها كاهلها .

هزّ ذلك الحدث السياسي الكبير عالم طفولة « بيرل » السعيد الآمن. فقد أخذت تشعر بعدم الاطمئنان ، بل وبالخوف ، على الرغم من أنها كانت في السابق تشعر بظلم كبير عندما كان يدعوها الصينيون ، وهي مارة في الطرقات بـ « شيطان أجنبي صغير » ، وكذلك إذا ما رأوها والدنيا تمطر ، لأن باعتقادهم أن الشياطين تخرج عندما تمطر السماء . إلا أنها لم تكن تنزعج كثيراً ، لأنها كانت تعرف بأنها ليست شيطاناً ، وأنها آمنة في وسط عالمها الصيني . أما بعد هذا الحدث ، فقد أخذت تشعر بظلم حقيقي ،إذ أدخل الصينيون قومها الأمريكيين مع المسيئين مع أنهم لم يفعلوا ما يسيء — بحسب اعتقادها — ، وجعلوا أسباب كرههم لها ، بياض بشرتها ، وزرقة عيونها ، وشقرة شعرها ، وأن خوفهم من العرق الأبيض وكراهيتهم له أصبحا يهددانها ويهددان كل البيض بالخطر .

وطلبت السفارة الأمريكية من أسرتها أن تغادر « شيكيانغ » ، وتنتقل إلى « شنغهاي » ، حيث المدينة ذات طابع أوربي ، والحماية الأوربية للبيض أفضل .

وعاشت « بيرل » مع والدتها في شنغهاي لمدة سنة كاملة ، بينما عاد والدها إلى « شيكيانغ » يتابع عمله التبشيري . وكانت والدتها خلال هذه السنة تخشى الاحتكاك بالصينيين وتخافهم . وفي سنة ١٩٠١ قررت الأسرة كلها السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث أقامت « بيرل » في بيت جدها لأمها ، الذي كانت قد ولدت فيه، في فرجينيا الغربية . وكان المكان كله جمالاً وسلاماً، وكانت سعيدة جداً فيه ، إذ لا حرب ، ولا ثورة ، ولا كراهية ، ولا بغضاء . وفي هذا المكان هناك جدها ، وأخوالها ، وخالاتها ، وأولادهم ، وكلهم يعيشون في أمان . وتقول بأنها أحست في هذا الجو العائلي الكبير بأنها ليست وحيدة في هذا العالم ، وإنما ضمن عشيرة كبيرة تحميها ، وأن جدها هو منبع حياتها لأنه والد أمها .

وعندما عادت مع أسرتها ثانية إلى الصين سنة ١٩٠٢ ، كانت قد غدت في العاشرة من عمرها . وقد رجعت إلى حياتها التعليمية السابقة ، وعاد أستاذها الكونفوشيوسي يعلمها القراءة والكتابة بالصينية الماندرانية والمبادىء والتعاليم الأخلاقية . وفي الوقت نفسه عادت والدتها تتابع تعليمها الدروس الأمريكية . وكانت تعرّفها الفن والموسيقا الأوربية ، أو بالأحرى تتابع هذا الأمر معها ، لأنها كانت تفعل ذلك من قبل . وكانت تريها نسخاً من أشهر اللوحات الفنية ، وتعرض لها تراجم

أشهر الفنانين . وتعلّمت « بيرل » كما تعلّم أخوها أيضاً ، كيف تعزف لباخ ، ومندلسون ، وهايدن ، وبيتهوفن ، على البيانو الانكليزي الصغير الذي أرسل لهم من شنغهاي . ولم تتوان والدتها عن تعليمها كلّ شيء عن أوربا : جغرافيتها ، وشعوبها ، وتاريخهم ، وسمات كل شعب وانجازاته .

لقد انغمست في دراستها ، ولكنها ظلت — بحسب قولها — تعاني من قضية نظرة الصينيين إليها،وللأمريكيين،وللبيض عموماً . وكانت تسعى أن تقنع نفسها دوماً بأنه لا ذنب لأبناء وطنها فيما حدث ، وأن اللوم يقع على كاهل الدول الأوربية في هذه النظرة العرقية المعادية لدى الصينين . ثم تعاود محاسبة نفسها كعادتها في تقليب الأمور على عدة وجوه ، وتعترف بأن الأمريكيين كانوا بين البيض عندما سرقت « المعاهدات غير المتكافئة » الكثير من الصين ، فهم لم يقفوا في وجه الأوربيين بل شاركوهم . ثم تعود ثانية فتنحاز إلى الجانب الصيني وتسوّغ موقفه قائلة : « ظنّ هؤلاء البيض بعد هزيمة « البوكسرز » أنهم لقنوا الصين درساً لن تفيق منه أبداً ، أي لن تتمرد بعد ذلك على حكم الرجل الأبيض وصلفه . إذ سُمح لهؤلاء البيض أن يدخلوا ويخرجوا إلى الصين على هواهم ، وأن تتجول سفن سلعهم ، وأساطيلهم الحربية كيف تشاء في مياه الصين وموانئها ، وأعطي المبشرون الحرية الكاملة في العمل : يفتحون المدارس التبشيرية الأجنبية ، ويعلمون كل ما هو أجنبي ، وينشؤون المستشفيات ، ويستخدمون فيها الطب الغربي ، ويبشرون بدين ، يرون أنه الدين الوحيد الحقيقي ، وهو

مغاير لدين الصينين .. لم يكن كل هذا ليسرني ، بل كنت أشعر بغصة في نفسي .. إن البيض لم يسعوا للحوار والتفاهم وإنما للقوة والعنف .. نحن لم نفهم الآسيويين ولم نسع لذلك .. فنحن في الواقع وراء « بيرل هاربور » و« القنبلة الذرية » .

وظل الخوف في قلب « بيرل » من ردة الفعل الصينية ، ولا سيما عندما قال لها أستاذها الصيني يوماً : « باركك الله أيتها الأخت . ولكن اعلمي أن العاصفة لم تهدأ ، وعندما ستنفجر ، يجب أن تكوني بعيدة عن هذه البلاد . يجب أن تعودي إلى وطنك وتبقي هناك، ولا ترجعي مرة أخرى ، إذ ستُقتلين أنت وكل من هم من عرقك الأبيض . » وسألته مذعورة : وهل هناك مرة ثانية لما حدث ؟ فأجابها بهدوء : « ستكون مرات حتى تتحقق العدالة » .

لقد علّمها أستاذها الصيني كثيراً من الأمور والحكم ، ولكن أهم ما تعلمته هو قاعدة الحياة الإنسانية ، أي أن لكل حادث سبباً ، وليس هناك من أمر يجري صدفة ودون ما سبب . ولذلك كانت تبحث دائماً عن السبب في كل أمر ، وقد يكون بعيداً في غياهب الزمن ، ولكنه من المؤكد هو موجود . وفي تلك السن المبكرة نسبياً ، آمنت أن معرفة التاريخ بالتفصيل ما أمكن ، هو أمر أساسي لفهم الحاضر والاستعداد للمستقبل . فالقدر إذاً ليس خرافة عمياء ، أو لا يمكنَ رده ، أو أن على الانسان أن ينتظر بغباء ما سيحدث . القَدَر لا يتغير ـــ هذا صحيح ـــ ولكن بمعنى واحد ، وهو أن سبباً ما موجوداً يولده ، وهو خفيٌ عنا ، ولكن لابد أن يُستقصى ، وبذلك يمكن للإنسان أن يشكل عالمه إذا لم يستسلم للجهل .

وفي ١٩٠٥ بدأت « بيرل » تتجاوز مرحلة الطفولة إلى المراهقة : فلم تعد تلعب كما كانت تفعل أمام المنزل ، وتوقفت عن أخذ الدروس من أستاذها الصيني الذي كان قد توفي بطبيعة الحال وشرعت تكون صداقات من عرقها الأبيض ، وإن لم تتوقف عن زيارة صديقاتها الصينيات . ولكنها لم تكن تود أن تدعوهن إلى بيتها خشية أن يخضعهن والدها للوعظ والتبشير ، فيعتقدن أنها تستغل صداقاتهن لهذا الغرض . وكانت تجلس طويلاً معهن ، وتصغي لأحاديثهن ، ولا سيما هموم الفلاحات المجاورات . وكانت تستمتع بتلك الأقاصيص المتنوعة ، فقد كان لديها ظمأ لا يُروى للمطالعة، و سماع قصص الناس . وكان عالم الكتب مساعداً لها على إنماء حياتها الداخلية الخيالية وإخصابها . وكانت تقرأ في هذه المرحلة بالذات لتتعرف عالمها الأمريكي ، الذي آمنت بأنها لابد عائدة إليه يوماً . فقرأت « مارك توين » وغيره من الكتاب الذين كانت تصلها كتبهم ، وهم بحسب قولها ، كانوا قلة إذ كان ما يصلها من الكتب الأمريكية ضئيل . ولكن كان عندها فيض من الروايات الانكليزية . وكانت تصرف كل قرش لديها على شراء الكتب . فقرأت كل ما كتب « تشارلز ديكنز » ، و« ثاكري » ، و« جورج إليوت » ، و« ولتر سكوت » ، وشعراء انكلترة ، وبخاصة « شكسبير » . وكانت تطالع بعض الدوريات الأمريكية ، التي كانت تصل مجموع الأسرة ، لتجعلهم على معرفة واتصال بما يجري في عالمهم أمريكا .

وفي سنة ١٩١٠ قررت الأسرة أن ترسل « بيرل » إلى الولايات المتحدة لتتابع دراستها في كلية من كلياتها . إلا أن والدتها رأت أنها لا تزال صغيرة السن على الكلية على الرغم من بلوغها الثامنة عشرة من عمرها ، ولذا فمن المستحسن أن تنتسب إلى مدرسة أمريكية داخلية في الصين ، فتتعود الحياة الأمريكية ، وتنال فيها ما ينقصها من المعرفة . فهكذا أرسلت أولاً إلى مدرسة في « كولنغ » وهو مصيف جميل . ولكن بعد دوام ثلاثة أشهر ، أحست هي ووالدتها بأنها لم تتعلم شيئاً يزيد عما كانت قد تعلمته . فنقلتها والدتها إلى مدرسة داخلية أمريكية في « شنغهاي » . وفي هذه المدرسة لم تتعلم شيئاً ذا بال ، على الرغم من وجود مدرسين صالحين . ويبدو أنها لم تنسجم مع طرائق التعليم فيها ، وهي التي اعتادت على طريقة والدتها فيه . كما أن تفكيرها الديني الحر الذي تعلمته في المنزل ، ومن دراساتها الصينية ، ومن أستاذها الكونفوشيوسي ، جعل زميلاتها يتهمنها بضعف دينها المسيحي ، ولذلك سعت المديرة لأخذها للكنيسة يومياً . ولكن الجو القاتم في الكنيسة جعل والدها يطلب من الإدارة ، قصر الأمر على أيام الآحاد . ولكن « بيرل » إذا لم تستفد الكثير من العلم في تلك المدرسة فإنها — كما قالت — اطّلعت على مجتمع خفي ، دنيّ ومعذب . وذلك عندما استعانت مديرة المدرسة بها — وقد رأت نشاطها وحيويتها — في بعض المشروعات الخيرية الهامة التي كانت تمارسها . ومنها « مشروع الأمل » الذي خصص لمساعدة الإماء من الفتيات الصينيات . ويضم بيتاً أنشيء للإماء اللائي كان أسيادهن يظلمونهن . وكانت السلطات

البلدية تدعمه إلى حد تحرير أولئك الإماء من ملاّكهن . وكان عليها أن تعلّم هؤلاء الفتيات اللائي فررن من بيوت أسيادهن ، الخياطة ، والحياكة ، والتطريز ، مع أن تلك الأعمال لم تكن لتروق لها . إلا أن والدتها كانت قد علمتها إياها ، لاعتقادها بأنها جزء هام من تربية المرأة ، فعلى المرأة أن تعرف كل فنون البيت . وكانت تقول لها : « حتى لو كان لديك دوماً خدم ، فيجب أن تعرفي كيف تعامينهم القيام بالعمل بشكل حسن ، فالبيت هو مكان تعلم صنع البيت » . أما مصدر تلك الاماء من الفتيات الصينيات فكان أهلهن : إذ كانوا يبيعونهن أيام المجاعات ليخدمن في بيوت الأثرياء بدل أن يمتن جوعاً ، بينما يتركون الأولاد الذكور إلى جانبهم ليحملوا اسم الأسرة أعبائها . وكان معظم هؤلاء الفتيات ، يعاملن معاملة قاسية لا رحمة فيها في تلك البيوت ، من قبل سيداتهن وأسيادهن : فكن يجلدن بالسوط ، ويُحرّقن ، أو يُغتصبن إلى غير ذلك من أنواع العذاب . وكانت « بيرل » تبكي ــ كما تقول ــ وهي تعمل في هذا المشروع ، تبكي وجود مثل هذه الشرور في الدنيا . وتعلق على تجربتها تلك بقولها : « لقد حزمت أمري بعد تلك التجربة المريرة ، على أن أنذر نفسي كلية لتخليص ضحايا الشر والقسوة ،وهذا المبدأ ظل يلازمني طيلة حياتي ، وأوجد عندي ضميراً واضحاً للسلوك . أنا أعرف بأنه لم يكن من السهل علي دائماً تطبيقه ، لأنني لست من طبيعة مبادرة ومهاجمة . » .

وأشركتها مديرتها أيضاً في عمل إنساني أكثر خطورة وصعوبة ، وهو بيت للعاهرات المسنات ، وبعض الشابات ممن لهن أطفال . وهذه المرة ، كان هؤلاء من العنصر الأبيض ، ومن الأوربيات والأمريكيات وكن فقيرات معدمات ، ومريضات ، ووحيدات . وأسوأ حالاً من الإماء الصينيات . وقد حاولت « بيرل » كما ذكرت ، أن تخفف عنهن ، وتعلمهن . إلا أنها كانت بعيدة عنهن .

إن تلك النشاطات في العالم الصيني الشنغهائي الأدني ، لم ترض والديها ، ولذا قررت والدتها ألا تعود إلى المدرسة ثانية . وهكذا رجعت إلى منزل الأسرة لتستعد لرحلتها إلى الولايات المتحدة .

لقد كانت « بيرل » قد صممت منذ طفولتها أن تكون « قاصة قصص » ، لأنها كانت تحب — كما ذكر سابقاً — سماع القصص مهما كان نوعها ولونها ، ومن ثم كانت مولعة بقراءة الروايات المختلفة . إلا أن أستاذها الصيني بلبل تفكيرها حول هذا الموضوع ، إذ كان يقول لها دوماً « لا يوجد كاتب شهير يركز كتاباته على إنتاج الروايات : إذ لا يمكن النظر إلى الرواية على أنها أدب ؛ فالرواية وجدت فقط لتسلية الكسالى والأميين ، أي أولئك الذين لا يقدرون الأسلوب الأدبي الحقيقي المترابط مع مستوى أخلاقي فلسفي » . وتعلق « بيرل » على ذلك قائلة : « إن تثبيط الهمة هذا ظل يلازمني طيلة سنوات تكويني الروائي الأول . ودعمته مشاعر والديّ الدينية ، اللذين كانا ينظران هما الآخران إلى قراءة الرواية ، على أنها مجرد تمضية وقت ، وملء فراغ . ومن ثمّ فإن آمي كانت تخفي خلال طفولتي

الروايات التي كنت أحصل عليها لأقرأها ، وكنت أجهد لأعثر عليها . وهكذا شببت وأنا أشعر أن كتابة الروايات عمل دنيّ ، وأن الرواية ليست أدباً ؛ بل كنت أحس أحياناً بيني وبين نفسي بالخجل من اهتمامي المستمر بقراءتها . وظل هذا الشعور معي ، حتى بعد أن تم نشر « الأرض الطيبة » .

وفي خريف ١٩١٠ ، غادرت « بيرل » الصين إلى بلادها أمريكا ، برفقة والديها وأختها الصغيرة . وكان أخوها قد سبقها منذ مدة طويلة ، حيث التحق هو الآخر بالجامعة ، وتخرج منها ، وعمل في بلده . وقررت الأسرة أن يكون السفر إلى أمريكا ، لا بطريق البحر ، وعبر المحيط الهادىء ، وإنما بطريق البر ، عبر الأرض السيبرية فأوربا . وذلك لأن والدتها كانت مريضة ، وإصابتها بدوار البحر لمدة شهر ، اذا ما ركبت السفينة في المحيط الهادي ، سيعرض حالتها الصحية الهشة للتدهور والخطر . كما أن والدتها المثقفة ، كانت حريصة على تعريف ابنتها بأوربا بشكل محسوس ، ولا سيما سويسرة التي كانت تحبها ، وهولاندة التي أتى أجدادها منها ، وألمانيا منبع أجداد أبيها . وبالفعل ، زارت « بيرل » روسيا ، وبولونيا ، وبرلين ، وفرنسا ، وانكلترة ، وأمضت الأسرة أشهراً في سويسرة قرب « نيوشاتيل » ، حيث أرسلتها أمها إلى مدرسة فرنسية لتقوية لغتها الفرنسية .

والتحقت « بيرل » مباشرة بالكلية التي اختيرت لها ، بمجرد وصولها إلى الولايات المتحدة ، وكانت كلية « واندولف ماكون » في الجنوب . وتم اختيارها لأنها تعلم البنات ، المنهاج نفسه الذي يعلّم للبنين ؛ فوالدة « بيرل » كانت تؤيد بشدة مساواة المرأة بالرجل .

وكان مقر الكلية في « لينكبورغ » حيث يقيم أخوها . ولم يكن في الكلية أي تدريس لتدبير المنزل وهذا ما كانت تريده الوالدة .

ووجدت « بيرل » في الكلية بعض الصعوبة في بادىء الأمر ، في الانسجام مع الحياة الأمريكية الجديدة عليها ، إلا أنها ما لبثت أن تأقلمت وغدت — كما قالت عن نفسها — « أمريكية » . وكانت تقضي معظم وقتها في القراءة في المكتبة ، وفي قراءة الكتب الكثيرة التي كانت تحبها . وكانت تنفر من الرياضة البدنية ومسابقاتها ، . والرياضيات ، واللغة اللاتينية ، والفيزياء . وكانت متفوقة في دراستها ، وأغدقت عليها درجات الشرف ، بل ودخلت مسابقة القصة القصيرة ، ومسابقة أفضل قصيدة ، وفازت في الاثنتين . وتخرجت بعد أربع سنوات من الدراسة ، وكان ذلك سنة ١٩١٤ ، ونذر الحرب العالمية الأولى يلوح في الجو العالمي .

وجاءها الخبر من الصين بأن والدتها مريضة بمرض لم يعرف الأطباء له علاجاً ، ويبدو أنه مرض « اللوكيميا » ، إذ تقول : بأن الدم يفقد كرياته الحمراء ، ويموت المريض تدريجياً بفقر الدم . فقررت أن تعود إلى الصين لتكون إلى جانبها ، ولتعمل معلمة هناك . إلا أن « مكتب التبشير البريز بيتريانى للبعثات الخارجية » التي يعمل والدها معه ، أعلمها أن الحرب على وشك الاندلاع ، ومن الصعب الانتقال في مثل تلك الظروف . ولذا عملت في كليتها « مساعدة مدرسة » لمادة علم النفس . وكان عملها ذاك هو أسهل عمل يمكنها أن تتركه في أي وقت ، لو تمكنت من السفر . ولما زادت حالة والدتها سوءاً ،

رجت المكتب التبشيري أن يدبر لها سبل الانتقال مهما كانت الأحوال . وهكذا عادت إلى الصين سنة ١٩١٤ ،وفي هذه المرة عبر المحيط الهادىء .

وفي الصين عملت في التدريس في مدرسة التبشير للبنين ، وفي الوقت ذاته كانت تشرف على تدريب مابين سبع عشرة وعشرين امرأة صينية ، على أنواع مختلفة من الأعمال في المدارس الأخرى . وكرست نفسها للأمرين : التعليم ورعاية صحة أمها . فتعرفت على مرضها ، ووسائل العناية بها وبغذائها . وقد استمتعت بالتعليم ، لأن طلابها لم يكونوا أطفالاً ، بل إن بعضهم كان متزوجاً ولديه أولاد . كما إن إيمان الصينين بقيمة العلماء والعلم جعل تعليم هؤلاء الشباب متعة خالصة لها : إذ كانوا متلهفين لتعلم كل ما يستطيعون تعلمه ، لأن الدراسة الأكاديمية كانت هي مفتاح النجاح في المجتمع الصيني ، ومنذ القديم . وقد ساعدها على القيام بمهمتها أن حركة فكرية حديثة قامت في الصين آنذاك ، تنادي بضرورة الكتابة باللغة العامية التي يفهمها كل الشعب ، لا اللغة الماندرانية الخاصة بطبقة العلماء فقط . يضاف إلى ذلك ظهور حركة ترجمة لأدب الغرب ، كروايات ديكنز ، وكونان دويل ، وفكتور هوغو ، وروبير لويس ستيفنسون ، وتولستوي ، وسيرفانتس وغيرهم . وأخذ المفكرون الصينيون الحديثون ينظرون إلى الرواية الصينية ، ولأول مرة ، على أنها أدب رفيع ، وليست تسلية لعامة الشعب فحسب ، أو لفرق التمثيل والمسرح. وهذا كلّه سهل مهمتها التعليمية الغربية . وكانت تقتنص فرصة تحسن صحة والدتها لتقوم بجولات في أنحاء الصين ،بين آونة وأخرى .

وكانت أحداث كثيرة هامة قد حدثت في الصين أثناء غيابها السنوات الأربع في الولايات المتحدة: فقد قام الطبيب الصيني « سُن ياتسن » (١٨٦٦ — ١٩٢٥) ، وهو من الجنوب ، وقد اعتنق ، البروتستنتية ، ودرس في المدارس الأمريكية في « هونو لولو » ، وفي المدارس الانكليزية بـ « هونغ كونغ » و« كانتون »، وبقي مدة في طوكيو ، بتكوين تجمع من الشباب الصيني الواعي ، والراغب في إصلاح حقيقي في الصين ؛ وأصدر هذا التجمع برنامجاً سياسياً لهذا الإصلاح منذ سنة ١٩٠٤ ، وأوضحه سنة ١٩٠٧ ، و« بيرل » لا تزال في الصين . وأعلن فيه ، ضرورة قيام ثورة تطيح « بأسرة مانشو » الغريبة عن الصين ، وقلب نظام الحكم المستبد إلى نظام ديموقراطي ، وإقامه جمهورية ديموقراطية ، وتحرير البلاد من الغزو الأجنبي . ونشر دعايته بين الفلاحين الذين زاد بؤسهم نتيجة الموسم السيء سنة ١٩١٠ ، وهو أسوأ موسم رأته الصين من أربعين عاماً . ووضع « سن ياتس » أسس « الحزب الوطني » (الكوو — مينغ — تانغ) . وهكذا اندلعت الثورة في الصين سنة ١٩١١ ، وبيرل « في الولايات المتحدة ، وأُعلن « سن ياتس » رئيساً موقتاً للجمهورية الصينية في « نانكين » . إلا أن قائد الجيوش « يوان شي كاي » ، الذي كان من الصعب أن تتابع الثورة خطواتها دون تدخله إلى جانبها ، تفاوض مع الامبراطور ومع « سن ياتسن » والثائرين ، وانتهى الأمر بأن حصل على استقالة الامبراطور في ٢٢ شباط ١٩١٢ وبذلك سقط النظام الامبراطوري . وقبل « سن ياتسن » الانسحاب من المعركة لصالحه ، وانتخب « يوان شي كاي » رئيساً للجمهورية . ولكن الثورة التي كان يحلم بها « سن ياتسن »، وخطط لها، والذي دعي من أجلها بـ « أبي الصين الحديثة»، لم تحدث.

إذ كشف « يوان شي كاي » عن أطماعه الشخصية ، فتخلص بانقلاب عسكري من « المجلس الوطني » سنة ١٩١٣ ، ومدد مدة حكمه عشر سنوات ، وحاول إصلاح الامبراطورية على طريقته ولمصلحته ، وبدا أن نمط الحكم الامبراطوري الاستبدادي سيعيد نفسه .

كانت « بيرل » واعية ما كان يحدث منذ أن وضعت قدمها في الصين ، إلا أن ما يجري لم يؤثر على سير حياتها . و أخذ والداها وصاحباتها يلحون عليها بفكرة الزواج . ولكن عندما تكرر خروجها مع شابين أمريكيين ، انتقدتها البعثة التبشيرية التي تعمل معها . وفكر والدها بتزويجها من رجل صيني محترم ، ولكنها كانت تعرف أن أسرته لن تقبل بأمريكية . وعلى الرغم من تفكيرها الجدي بهذا الأمر الحيوي بالنسبة لوالديها ، فإن مشروعها في أن تكون روائية ، كان يلحّ على ذهنها أكثر من قضية زواجها ، إلا أنها كانت تشعر بأنها لم تكن مستعدة للكتابة بعد . فقد قالت ، وهي التي زخرت نفسها بتجارب عديدة ، وقد تكون مخطئة في تقديرها هذا الأمر : « كنت أحس بأنني خاوية .. وهذا هو الوضع الطبيعي للشباب ... ولا أظن أن كاتباً حاول كتابة رواية قيمة قبل الثلاثين من عمره ، وقبل أن يكون قد توغل في أعماق الحياة وحده . لأن الكاتب الذي يبحث عن مادة روايته ، كما يبحث الصياد عن صيده عندما يذهب إلى البحر ، لن يكتب رواية جيدة . إذ يجب أن يحيا بزخم ، وعفوياً ، ولا هدف معين له سوى هدف الحياة نفسها ، قبل أن تصبح تلك الحياة مادة صالحة لروايته ... ولقد قمتُ برحلاتي الأخيرة في الصين لا لأجد

مادة للكتابة ، وإنما لأعيش حياة أغنى وأخصب . لقد حُصرت في الماضي في حياة ضيقة ، فأردت أن أكسر الطوق حولي كما يفعل كل الشباب ، ويجب أن يفعلوا . أردت أن أخرج من محيط طفولتي ، ومن كوني ابنة والديّ ، وأحقق مكاني وسط الغرباء عني . كنت أريد أن أعيش في الصين بحرية .... »

وفي سنة ١٩١٧ ، تزوجت « بيرل » من « جون لوسينغ باك » . وهو أمريكي شاب ، يعمل في « مكتب التبشير البريز بيتّرباني » الذي تعمل فيه ، وهو مختص بالزراعة . وتقول : بأن مجال اختيارها لزوجها كان محدوداً جداً: فقد ربيت بعيدة عن بلدها وشعبها،ومن ثم فقرارها كان نتيجة المصادفات التي لا يمكن تفسيرها إلا بما يقوله رجال الدين بأن الوقت قد حان للزواج . وهذا الأمر عندما يحين في حياة أي انسان طبيعي ، فإنه لا يمكن تفاديه ، أكان الآباء هم الذين دبروه أم غيرهم . ولم يؤيد والداها هذا الاختيار ، إذ صمتا عندما أبلغتهما قرارها ، وأدركت من صمتهما عدم موافقتهما . ولما سألت والدتها عن السبب – ولم تكن لتجرؤ أن تفعل ذلك مع والدها – أجابتها بأنها تشعر أن هذا الرجل ، على الرغم من أنه من النوع الطيب دون شك ، ولكنه لا يصلح لأسرتهم المثقفة ، إذ لم تكن اهتماماته الفكرية واضحة . وعندما ذكرت لوالدتها بأنه خريج كلية أمريكية ، أجابتها بأنه خريج كلية زراعية ، وليست هذه هي نوعية التربية والتعليم اللذين درجت عليهما الأسرة . وعندما ردت عليها « بيرل » بأنها تظن ، أنها – أي أمها – ووالدها أصبحا يفكران كما يفكر والدان صينيان ، أي لابد أن يرضي الزوج الوالدين أولاً ، كان خطاب

الوالدة لها : « لا ابحن نفكر فيك فقط .. فنحن نعرف بأنه لا يمكنك أن تعيشي إلا مع شخص يفهم عما تتكلمين . » إلا أن « بيرل » صممت على موقفها وتزوجا باحتفال صغير ، وغدت « بيرل سايدنستريكر » ، « بيرل باك » ذلك الاسم الذي عرفت به في كل رواياتها .

وانتقلت « بيرل باك » إلى بيتها الخاص المؤلف من أربع غرف في مدينة « نان سوشو Nansuchou » في مقاطعة « أنهوي Anhwe » ، في شمالي الصين ، وتبعد عدة أميال عن مقاطعة طفولتها « كيانغ سو ». وكانت المنطقة غريبة عليها لأنها لم تعش في شمالي الصين قبلاً . إلا أن العالم الذي انتقلت إليه كشف لها عالماً جديداً لم تكن تعرفه بعمق ، وهو « عالم الفلاح الصيني » الذي سيملأ معظم رواياتها . ولم تلبث أن تآلفت مع محيطها الجديد، وكونت صداقات مع الصينيات، وشرعت ترافق زوجها في زياراته للريف ، إذ كان من مهماته أن يعمل على إصلاح ذلك الريف . وكانت تظهر عجبها ودهشتها ، كيف يمكن لأمريكي لا يعرف الكثير عن الزراعة في الصين ، أن يعلّم المزارعين الصينين ما كانوا يفعلونه لأجيال طويلة ، وهم يستخدمون سمادهم الطبيعي المخصب الذي لا يعلوه سماد ، ووسائل ريهم ، ويحصلون على تلك المنتجات الزراعية الرائعة ، ودون استخدام الآلة الحديثة ، التي يراد إدخالها عليهم . وكانت ترى أن لدى الأمريكي ما يتعلمه أكثر مما يُعلّمه . وكانت تتحدث بصفة خاصة مع النساء والأطفال ، وتستوضح قضاياهم ومشاكلهم . وبذلك كان كلما يمضي عليها يوم في تلك المنطقة ، يزداد تأثرها بحياة الفلاحين وأسرهم في القرى ، ولا سيما تلك القضية الأسرية الشائكة والخطيرة ، وهي قتل بناتهن أثناء المجاعة ،

أو بيعهن . ورأت أن قلة ضئيلة من البيوت فقط لم تُقتل فيها بنت . وكانت جدة البنت أو أبوها هما اللذان يأمران بالقتل ، ويجري القتل خنقاً بعد الولادة مباشرة ، في معظم الأحوال .

وعاشت « بيرل باك » حياة تصفها بأنها حياة سلام وأمن على الرغم من الحرب العالمية الأولى ، الدائرة في العالم . إلا أن حياتها تلك انتهت يوم قرر زوجها — وتسميه في كل كتابها بـ « الرجل الذي هو في البيت » — الانتقال إلى « نانكين » ليدرس في جامعتها ، إذ أنه لم يحصل على النتائج التي كان يتوخاها في عمله التوجيهي الزراعي . فإذا لم ينجح في تعليم الفلاحين عملياً الطرائق الحديثة في الزراعة ، فليعلمهم إياها نظرياً على الأقل ! .

ورغم حزنها لمغادرتها تلك المدينة ، والبيت الذي أسسته ، إلا أنها سعدت بانتقالها إلى « نانكين » مدينة التاريخ الصيني ، القديمة والأصيلة ، ولا سيما أن فيها جالية أمريكية ، تعيش في أحياء جميلة وتخلق لنفسها عوالمها الخاصة . كما أنها غدت أكثر قرباً من والديها حيث كان بإمكانها أن تزورهما كثيراً إذ لا تتجاوز المسافة بينها وبينهما الساعتين بالقطار .

وفي « نانكين » رزقت بطفلتها ، ويبدو أنها لم تكن بصحة حسنة . وكانت الحرب العالمية الأولى التي دخلتها الصين سنة ١٩١٧ إلى جانب الحلفاء ، قد انتهت . إلا أن الأحوال في الصين عادت إلى الاضطراب ، على الرغم من أن « سن ياتسن » حاول مرة أخرى القبض على زمام الموقف بعد وفاة « يوان شي كاي » سنة ١٩١٦. فكان أن أعلن حكومة

انفصالية سنة ١٩١٧ في كانتون . إلا أن الحرب الأهلية عادت ١٩٢٠ واضطر للهجرة إلى اليابان سنة ١٩٢١ .

وفي هذه الأجواء ، وفي سنة ١٩٢١ توفيت والدة « بيرل باك ». وتركت وفاتها أثراً عميقاً جداً في نفسها . وفي هذه المرة ، شعرت بحاجة ملحة للكتابة عنها : لقد أرادت أن تبقى أمها حية . وتقول في هذا المجال : « لقد فكرت ، وقلت لنفسي ، يجب أن أكتب عنها من أجل أولادي لتكون لديهم صورة عنها . لم أكن لأعرف أن هذه الصورة التي رسمتها لها من ذاكرتي ، ستكون أول كتبي ، حتى إنني لم أفكر فيما كتبت على أنه كتاب إلا مؤخراً . وعندما كتبته وضعته في صندوق وختمته ، ورفعته فوق رف عالٍ ، لينتظر حتى يكبر أولادي ويقرؤوه . لم أكن أتخيل أبداً بأن وضعي له في هذا المكان المرتفع سيجنبه اكتساحات الثورة ، التي اندلعت على رؤوسنا بعد بضع سنوات . فقد كان الملك الوحيد الذي بقي لي من بيتي الذي نهب عن بكرة أبيه . وذهب معي إلى أمريكا ، ووضعته مرة أخرى في بيتي لينتظر ، لأنني عرفت أن ابنتي الكبرى لن تتمكن من قراءته ، لأنها كانت « الطفلة التي لن تنمو » ــ كما كتبتُ عنها في كتابي الحامل لهذا العنوان ــ . وعندما اشتدت الحاجة المادية للأسرة، فكرت بأمي ، وكيف كانت تود دائماً أن تقدم يد المساعدة ، فنشرت الكتاب تحت عنوان « المنفى » . وكان سابع كتبي المطبوعة ، إلا أنه كان أولها كتابة . وعندما كتبته شعرت بأن عليّ أن أستمر في الكتابة . فدبجت مقالة صغيرة تعبر عن بعض تجارب عالمي في ذلك الوقت ، وأرسلتها إلى مجلة « أطلانطيك » الشهرية ، وكان عنوانها « في الصين أيضاً » .

وكانت هذه المجلة تقبل عادة أعمال المبتدئين من الكتاب ، فنشرتها لي . وأتبعتها بمقالة أخرى في مجلة « الفوروم » بعنوان « الجمال في الصين » . وصممت « بيرك باك » بعدها على كتابة الرواية الحقيقية ، ودون أن تقول لأحد ، هذا إلى جانب عملها في التعليم في الجامعتين الوطنية والمسيحية . ولم تكن أحوال الصين حسنة ، فقد عاد « سن ياتسن » سنة ١٩٢٢ ، وطلب معونة روسيا بعد ثورتها الشيوعية ، فقدمت له العون المالي والخبراء ، واضطر أن يقبل الشيوعيين في حزبه. وكان الشيوعيين الصينيون قد كونوا حزباً خاصاً بهم منذ ١٩٢١ . فأعاد تنظيم « حزبه الوطني » سنة ١٩٢٣ . والتف حوله الصينيون مرة أخرى ،وتمكن من دخول بكين سنة ١٩٢٥ ، إلا أنه توفي في العام نفسه،تاركاً حزبهو أهدافه في أيدي عديله « تشانغ كاي تشيك » .

ولم تكن أوضاع « بيرل باك » الخاصة أحسن حالاً : فقد كان عليها أن تنقل والدها إلى بيتها بعد وفاة والدتها ، وهي تعرف بأنه لن يكون مرتاحاً في الإقامة معها : فهو لا يستلطف صهره ، ويزعجه بالطبع ألا يكون هو سيد البيت كما اعتاد دائماً ، ولا سيما وأنه غدا في السبعين من عمره . وفي الوقت ذاته ، ظهر لها أن زوجها قد أخفق في تدريس الزراعة للصينيين ، وكان عليها أن تجد حلاً . فاقترحت عليه ضرورة تعرف الزراعة في الصين بعمق ، وكذلك الحياة الريفية . وهيأت معه استبيانات عن الحياة الريفية للفلاحين ، وأوكلت الأمر للطلاب ليجمعوا هم المعلومات، ويستنتجوا ما يلزم . وبالفعل جمعت

المادة في كتاب عن « الاقتصاد الزراعي الصيني » ، نشرته فيما بعد جامعة شيكاغو ، وأثار انتباه « معهد العلاقات الباسفكية » واهتمامه . وكان مقدمة الدراسة أوسع للحياة الريفية في الصين . ويضاف إلى القضيتين السابقتين اللتين عانت منهما « بيرل باك » . قضية ابنتها المعوقة ، التي كانت تنغص حياتها . ولذلك تركت عملها في الصين سنة ١٩٢٥ وانتقلت إلى الولايات المتحدة ، ورافقها زوجها . وأُعلمت هناك من قبل الأطباء ، ألا فائدة ترجى من حالتها . ولكنها لم تُضع هذه السنة هباءً ، فقد انتسب زوجها إلى جامعة « كورنل » ، وعملت هي على تحضير درجة الماجستير في الجامعة نفسها ، وأقامت في مدينة « إيثاكا » .

وتقول « بيرل باك » عن تجربتها الجديدة : « لقد تعلمت في هذه السنة ، ماذا يعني الفقر في مجتمع فردي كالمجتمع الأمريكي . لقد كسبت حياتي في الصين بالتعليم ، أما هنا فأنا لا أكسب شيئاً . كان علينا أن نعيش على مرتب زوجي وحده ، ونحن الاثنان ندرس ... كنت أشتري بيضاً لفردين فقط . ابنتي وزوجي ، وقطعة محددة من من اللحم في الأسبوع . وبدلاً من شراء الخضر والثمار من البقاليات ، اتفقت مع مزارع في الجوار يحضرها لي بثمن بخس . وكنت أكتفي بقليل من الحليب ، وبرغيف من الخبز . وكنت حريصة على الاحتفاظ بمال ضئيل أدفعه لجارتي كي تجلس مع ابنتي مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع أثناء غيابي في الجامعة ، هذا مع العلم أن أستاذي كان قد أعفاني من حضور بعض المحاضرات . وعندما كانت تنام الطفلة وينصرف

زوجي إلى كتبه ، كنت أذهب سيراً على الأقدام ، وخلال الغابات ، إلى الجامعة والمكتبة . كنت نهمة للقراءة ، وسعيدة بالكتب الكثيرة المتوافرة في المكتبة ، وبالتفكير بحرية » .

ومع كل التقتير المادي الذي عاشته ، شعرت بالحاجة للمال : فلم يكن لديها معطف للشتاء ، وكان عليها شراء بعض الأشياء الضرورية لتأخذها معها إلى الصين حين العودة . ففكرت بكتابة قصة ونشرها . ودبجت قصة أسرة صينية عاد ابنها إليها مع زوجة أمريكية ، وأرسلتها إلى « مجلة آسيا » . فقبلت ، ومنحت مقابلها مئة دولار . وقررت أن تكتب قصة ثانية ، ولكن عملها الكتابي كان بطيئاً جداً لمشاغلها المتعددة ، فلم تنهها بسرعة . إلا أنها دخلت مسابقة القصة القصيرة في الكلية ، وفازت بالجائزة ، وقيمتها (٢٠٠) مئتا دولار ، وكان موضوعها « أثر الغرب في حضارة الصين » . وفي الوقت ذاته انتهت من قصتها التي ابتدأتها ، ونشرتها هي الأخرى في « مجلة آسيا » . ، وبذلك غدت غنية ، واشترت كل ما تحتاجه .

وعادت سنة ١٩٢٦ – ١٩٢٧ إلى الصين ، ومعها هذه المرة ابنة أخرى تبنتها ، وكان لها من العمر ثلاثة أشهر ، تبنتها لأن الميتم الذي وضعت فيه استغنى عنها ، إذ وجد بأنها لم تكن لتكتسب الصحة اللازمة . إلا أنه كان عليها أن تجابه التطورات السياسية في الصين . فقد انقسم الحزب الوطني » الذي أسسه « سن يانسن » ، ورئس « تشانغ كاي تشيك » فئة المعتدلين ، وتمكن في سنة ١٩٢٧ من اخضاع تحرك شيوعي في كانتون ، وبعنف ، واستولى على هانكيو وشنغهاي ، ووضع يده في يد الرأسمالية الصينية ،وأخذ يتقدم نحو نانكين . وأعلمتها

أختها بأنها ستلجأ إليها مع أسرتها ، لأن سلوك جيوش الثوار كان سلوكاً عنيفاً ضد الأجانب أو العناصر البيضاء . وبالفعل وفدت إليها أختها وأسرتها ، إلا أنها أخذت تشعر بالخوف يتملكها . وفي ٢٧ آذار ١٩٢٧ ، تقدم الثوار نحو نانكين ، وأعلمت العناصر البيضاء جميعها بأن هناك خطراً على حياتها . وتعلّق « بيرل باك » على ذلك اليوم الذي أسمته بالمرعب قائلة : « اليوم كان علينا أن نتعذب من أجل أولئك الذين لم نعرفهم أبداً ، أولئك الامبرياليين الاستعماريين ، أولئك الرجال البيض من أوربا وانكلترة ، الذين شنوا الحروب وقبضوا على الغنيمة ، وطالبوا بأرض ليست أرضهم ، أولئك الرجال الذين عقدوا المعاهدات غير المتكافئة ، وأصروا على أن يكون لهم حقوق خاصة في الصين . إنهم بناة الامبراطوريات . كنت دائماً خائفة من أولئك الرجال البيض لأنهم هم الذين جعلونا محط كره آسيا لنا . وإن التاريخ ليسقط ثقيلاً علينا اليوم : على أبي المسن الطيب الذي لم يفعل إلا كل خير لكل صيني اجتمع به ، وبنتي الصغيرتين اللتين لم تعرفا موطناً إلا هذا البلد ، حيث تقيمان فيه اليوم ، وهما معرضتان لخطر الموت . » .

وكان جيرانهم الصينيون رفقاء بهم ، فعملوا على تخبئتهم في بيت مجاور . وهوجم منزل « بيرل باك » ونهب ، وسرت الإشاعات بأن جميع المساعي لإنقاذ العناصر البيضاء قد باءت بالفشل . وبقيا يومين مختبئين ، والجيران الصينيون الطيبون يقدمون لهم كل ما يحتاجونه . وفي اليوم الثالث أخرجوا من مخبئهم ، إذ أن القنصلية الأمريكية هددت بضرب المدينة إذا لم يفرج عنهم . وحُمِلَت جميع العناصر البيضاء في

مركب خاص أعد لهم . وبالفعل نُقلت هي ومن هم على شاكلتها في المركب إلى « شنغهاي » . وقد عبرت عن حالها تلك قائلة : « لم يكن علي إلا ملابسي القديمة .. فأنا الآن دون عمل ، ودون واجبات .. أنا مجرد لاجئة .. لم أكترث لما ضاع مني .. إلا أنني شعرت بأن جذوري قد اقتلعت بقسوة ، ولن أستطيع أن أزرعها ثانية بعمق .. » .

وفي شنغهاي ، قررت أن تغادر الصين إلى اليابان مع أسرتها وأسرة أختها ، وإلى مدينة « ناغازاكي » بالذات . وفي اليابان كانت سعيدة ، فالحياة سهلة ونظيفة وجميلة . وتجولت في أنحاء البلاد لتتعرفها وتتعرف شعبها . وفي اليابان كتبت كتيباً صغيراً نتيجة يوم جميل قضته في ميناء « كوبة » سمته « في يوم متألق » .

إلا أن « تشانغ كاي تشيك » دعا العناصر البيضاء التي غادرت الصين للعودة إليها ، لأنه تمكن من إبعاد الشيوعيين الروس الذين تغلغلوا في الصين ، ووضع حداً للشيوعية الصينية سنة ١٩٢٧ ، بل تقدم نحو الشمال ودخل بكين سنة ١٩٢٨ .

وعادت « بيرل باك » إلى الصين ، وقضت بضعة أشهر في شنغهاي التي لم تكن تحبها ، وكتبت خلالها قصة ، باعها لها عميلها في الولايات المتحدة . وكانت قد عملت على إيجاد عميل لها في نيويورك يلاحق لها عملية نشر ما تكتب ، إذ كان يضنيها الانتظار الطويل ، انتظار القبول أو الرفض لما تكتب .

ومن شنغهاي عادت إلى بيتها في نانكين . وكانت أسرتها أول أسرة أمريكية تعود ، وكان والدها قد سبقها إليها ، وأقام عند عائلة صينية ريثما ترجع ابنته . وهي نفسها أقامت مع أسرتها لمدة شهر عند عائلة صينية صديقة ، ريثما ترتب منزلها ، وتعيده قابلاً للإقامة المريحة . ولم تجد في ذلك البيت الذي نُهب إلا المخطوط الذي كتبته عن أمها . ولم يكن لديها في البيت الذي تقيم فيه أية وسيلة من وسائل الترفيه ، إذ لا ماء ، ولا كهرباء . وعادت في بيتها تلاحظ ما يجري حولها : كانوا يريدون أي الحكومة ، أن يبنوا مدينة جديدة في نانكين ، فأخذوا يهدمون الكثير من المنازل القائمة . وآلمها هذا الأمر ، لأن الحكومة – بحسب رأيها – لا تفهم شعبها ، بل إن المثقف الصيني نفسه الذي درس في الغرب لم يكن يفهم شعبه . « فهؤلاء المثقفون – في نظرها – لم يعودوا ينتمون إلى الشرق ولا إلى الغرب . . فهم ضائعون » . وقد عبرت عن فكرة المدينة الجديدة في كتابها « الطريق الجديدة » ، وعن موقف المثقف الصيني من الشعب ، وإخفاقه في إفهامه ما يريد في كتابها « فصل في شنغهاي » .

وفي سنة ١٩٢٩ ، انتقلت « بيرل باك » إلى الولايات المتحدة لتضع ابنتها المعوقة في مدرسة دائمة ، لأنها رأت أن المستقبل في الصين غير مطمئن ، فهناك حروب وثورات ، ولابد للطفلة التي لا عون لها ، من ملجأ تقيم فيه . وخلال الأشهر القليلة التي قضتها في بلادها ، علمت وهي في نيويورك أن روايتها : « ريح شرقية : ريح غربية » قد قبلت للنشر ، وكانت قد أرسلتها إلى عميلها منذ سنة . وأعلمها

الناشر بأنه قبلها لا لأنها رواية جيدة جداً ، وإنما لأنه رأى فيها ملامح كاتب يمكن أن ينمو ويكون له مستقبل .

وعادت إلى الصين لتعمل بأمل جديد في رواية «الأرض الطيبة ». لقد أحست أن بيتها خاوٍ بعد رحيل ابنتها وأختها ، فرأت أن تشغل نفسها بالكتابة . وكانت عناصر الرواية واضحة في ذهنها منذ زمن ، إذ أخذتها من حوادث حياتها وتجاربها . وكانت تستمد طاقة الكتابة وحرارتها ـ كما قالت ـ من الغضب والحنق اللذين شعرت بهما من أجل الفلاحين في الصين ، وعامة الشعب الذي أحبته وأعجبت به . وتضيف قائلة : « لقد اخترت مسرحاً لكتابي شمالي البلاد ، ومدينة الجنوب « نانكين » . وكانت المادة كلها بين يدي ، والشعب أعرفه كما أعرف نفسي . إن ذلك المسرح كان محور كل كتبي : خليط بين الشمال والجنوب ... وقد سئلت مئات المرات هل شخصيات لرواياتي هم « أناس حقيقيون » ، وكنت أجيب : بالطبع إنهم حقيقيون .. قد خلقوا من غبار الذاكرة . وتنفسوا من الحب ، ومع ذلك فلا أحد منهم عاش خارج كتبي كما عاش في رواياتي . » .

ومع انصرافها للكتابة في روايتها الجديدة ، فإنها كانت تعلّم بعد الظهر في الجامعة المستحدثة التي أنشأتها الحكومة . وعندما كانت تعود في الساعة الرابعة ، كان لديها ضيوف على الشاي ، ومعظمهم من مثقفي الصين ومفكريها ، ومن الأصدقاء الصينين القدامى ، ومن الأمريكيين والانكليز الشباب ، ومن « مدرسة اللغة » التي افتتحت في نانكين ، بالتعاون مع البعثات التبشيرية . وكان لديها وقت أكبر في

الصيف حيث يقضي والدها شهرين مع أختها في الجبال ، وبذلك يكون البيت أكثر خواءً . وقررت ، ولديها الوقت الكافي ، أن تترجم الرواية الصينية « شوي هوشوان » التي أسمتها فيما بعد « جميع الناس أخوة » ، لأن العنوان الصيني لا معنى له بالانكليزية ، فهو يشير إلى اللصوص والقراصنة الذين كانوا يتجمعون على الأنهار والبحيرات .
وعملت لمدة أربع سنوات في ترجمة ذلك الكتاب الضخم ، وكانت تخصه بالساعات التي لم تكن قادرة فيها على الكتابة برواياتها ، أو التي لم تكن تعلّم فيها . وتقول عن ترجمتها لهذا المؤلّف : « كانت تجربة عميقة ، فعلى الرغم من أن الكتاب قد كتب منذ خمسة قرون ، فإن مسرح الحياة الصينية بقي نفسه لم يتغير . فقد رأيت في فرار الشيوعيين إلى الشمال الآن صورة عما كان من أمر المتمردين المتوحشين ، والمستائين الذين ثاروا ضد الحكومة زمن الامبراطورية . وقد تساءلت هل صحيح أن الصورة هي نفسها ؟ كلاّ ، إن هناك اليوم ما هو أكثر خطورة من الماضي : فأولئك اللصوص والثوار لم يكونوا منظمين تحت لواء غريب . كانوا مجرد متمردين صينين غاضبين ضد صينيين آخرين يحكمونهم حكماً ظالماً ؛ وكان لديهم شعور بالعدالة جعلهم يعملون على تقديم العون لإنسان طيب خيرّ ، وبالمقابل ، تحطيم طاغية مستبد ، أكان شخصية حكومية رسمية أم قروياً متنمراً . إلا أن الشيوعيين الصينيين اليوم هم جزء من حركة عالمية ، فعندما يتحالفون مع الشيوعيين الروس ، فهو أمر لم يُرَ في ماضي الصين أبداً . » .

وتابعت « بيرل باك » كتابتها في « الأرض الطيبة » ، وأتمتها في ثلاثة أشهر وجعلت موضوعها صراع فلاح صيني وزوجه من أجل الأرض والسلام ، ورقنتها مرتين على الآلة الكاتبة . وعندما انتهت منها شعرت بشكوك حول قيمتها . وكانت تود لو يطلّع عليها أحد ليقدم لها رأيه فيها . وكان أخوها آنذاك في الصين ، مبعوثاً من شركته في نيويورك ليراقب « حركة التعليم الجماهيري » التي أخذت طريقها للصين . وقد ذكرت له كتابتها لتلك الرواية ، ولكن لم تجرؤ أن تطلب منه قراءتها لأن لا وقت لديه ،وكذلك والدها؛ ولذلك فإنها أرسلتها إلى نيويورك ، ووطدت نفسها على الانتظار .

لقد كانت مؤمنة في تلك المرحلة من حياتها ، ومن تاريخ الصين ، إيماناً قوياً « بالفلاح الصيني » وقدرته العجيبة على مجابهة الحياة ، وفي الوقت نفسه بطيبته ، ودهائه الحذر ، وحكمته ، وضبط نفسه . فقد اتضح لها كما قالت : « أن الفلاح الصيني الذي يكوّن ٨٥٪ من شعب الصين ، هو فئة بشرية رفيعة جداً ، وأنه خسارة للإنسانية ألا يكون له صوت لأنه أمي . فهذه الفئة الناضجة جداً ، والمتمدنة على الرغم من أميتها ، وبعض مظاهر بدائية في حياتها ، يرجع سببها فقط إلى العزلة الفكرية عن تيارات الفكر الحديث التي فُرضت عليها ؛ هذه الفئة ، يعمل مع الأسف المعاصرون من الشباب ، الذين قطّعوا جذورهم ، على ما يسمونه « تربيتها » ، أو إلزامها على أن تتقبل بل وتأخذ كل مظاهر الحضارة الغربية مهما كانت .

لم يرتح فكر « بيرل باك » بعد انتهائها من « الأرض الطيبة » ، بل قررت مباشرة أن تكتب رواية أخرى هي « الأم » . وفيها صوّرت حياة فلاحة صينية . وكانت تأمل من تلك الصورة ، أن تمثل حياة أية امرأة مثلها في أي مكان ، امرأة لم تمنح أي شيء سوى تجربتها وفهمها . وتقول « بيرل » : في كل أنحاء العالم توجد امرأة مثل هذه المرأة ، وبالملايين . وكنت أظن عندما كتبتها ، بأني لن أجد في موطني أمريكا مثلها ، ولكنني عندما عدت إليها ، وجدتها فيها أيضاً : وجدتها في عديد من المزارع ، وفي « الجنوب العميق » حيث هي زنجية على الغالب ، وفي صحارى الولايات الغربية ، حيث عليك أن ترحل أميالاً لتجد مخلوقاً بشرياً آخر ، وفي جبال « انكلترة الجديدة » . إن هذه المرأة في الصين ، بعيدة جداً عن تفهم القراء لها في بلدي ، وكذلك عن أفكار النقاد والمحررين ، فهي شيء غريب ... إلا أن القراء في فرنسا ، وإيطاليا ، وبلدان أخرى ، حيث المرأة الفلاحة قوية وحية ، عرفوها في كتابي ، وفهموها . إن أكبر مكافأة للكاتب في أي مكان ، أن يجد قارئاً يفهمه . وأتذكر ناقداً شريفاً في نيويورك قال لي يوماً عن كتابي « رواق النساء » ، بأنه لم يدرك عما يدور . وتساءلت لماذا يا ترى ، بينما كتبت إليّ نساء من جميع أنحاء العالم يبدين تفهمهن لكل ما أتى فيه ؟ لا يمكن أن يكون هذا إلا أنه لم يعش مع المرأة الريفية كما يجب أن يعيش ليفهمها . » .

وكان عام ١٩٣١ عاماً حافلاً بالأحداث بالنسبة ا « بيرل باك » . فقد توفي والدها في الثاني من آذار من هذا العام ، وهو في الثمانين

من عمره ، وفاض نهر « يانغ تسي » على كل البلاد بشكل لم يعرفه أحد من سكان البلاد قبلاً . وفيها استولت اليابان على منشوريا . وقد يكون من أهم الأحداث الخاصة بالنسبة لها هو وفاة والدها ، وبذلك انقطع آخر خيط في طفولتها ، وكان عليها أن تعيش في عالم الاضطراب والصراع وحدها . ولم تكن قد كتبت قصة حياته ، إلا أنها كتبتها بعد، سنوات من وفاته ، في كتاب « الملاك المحارب » و« صورة روح » . وتقول بأنها كتبت هذا الكتاب لأن بعض القراء الأمريكيين أبدوا إعجابهم بكتابها عن أمها « المنفى » ، وخشيت أن يُظن بأنها لم تحب أباها كما أحبت أمها ، مع أنها كانت تحبه بحرارة وتقديس .

وفي العام نفسه ، وقبل وفاة والدها ، صدرت أول طبعة لرواية « الأرض الطيبة »،وتسلمت أول نسخة منها،وأرتها لوالدها الذي هنأها، وسألها من أين كان لها الوقت لكتابتها ؛ وتصفح الرواية ولكنه اعتذر عن عدم إمكانه قراءتها .

وبعد هجوم اليابان على منشوريا ، أخذت تتقدم في شمالي الصين حتى نهر يانغ تسي ، وهاجمت شنغهاي . وأوصاهم القنصل الأمريكي بضرورة إقصاء النساء والأطفال عن نانكين ، ولا سيما أن الشعور ضد الأجانب لا يزال عنيفاً وحاداً . وأخذت « بيرل باك » ابنتها وذهبت إلى « بكين » . وكانت تتمنى دائماً الذهاب إلى هذه المدينة العريقة لتقوم ببعض أبحاث في الطبعات القديمة للكتاب الذي ترجمته ، عسى أن تجد فيها بعض صور سمعت عنها . وسعدت لبضعة أشهر في بكين ، بين البحث في التاريخ ، والاجتماع مع رجال ونساء من

كل أنحاء العالم . إلا أنها وهي في بكين أدركت أن عليها أن تغادر الصين آجلاً أم عاجلاً ، لتقيم نهائياً في بلدها الولايات المتحدة الأمريكية لأن الحروب والثورات لم تعد تسمح للعناصر البيضاء بالبقاء . فـ « تشانغ كاي تشيك » كان لا يزال يحارب الشيوعيين الذين انسحبوا ستراتيجياً إلى الشمال الغربي . وكانوا لا ينفكون عن تنظيم الفلاحين في صفوفهم ، ولا سيما أنهم أعلنوا سيعملون على ضد اليابان ، وأنهم لن يحاربوا أخوانهم الصينيين « فالصينيون لا يحاربون الصينيين » ، ومن ثم فإنهم مستعدون للانضمام لمن يسمون أنفسهم بالوطنيين ، لمحاربة اليابان .

ومنحتها الهيئة التي تعمل معها سنة ١٩٣٢ فرصة سنة لتقضيها في الولايات المتحدة . و كانت تخشى انتقالها النهائي إلى موطنها أمريكا : « إن تغيير البلدان تجربة ساحقة للإنسان ... إن التحرك من مجتمع قديم ومستقر وثابت — وهذا ما كانه المجتمع الصيني ، والذي بقي عليه ، على الرغم من الثورة والحكومات التي تتالت — إلى مجتمع جديد مائج وهائج كما هو عليه المجتمع الأمريكي ... هو أكثر من تغيير بلدان .. إنه تغيير عوالم ومراحل زمنية » . لم تكن « بيرل باك » متهيئة لمجتمعها الجديد : فقد ترك والداها أمريكا سنة ١٨٨٠ ، ولم يعيشا فيها مدة كافية ليفهما تطورها .. صحيح إنها عاشت أثناء سنوات الكلية فيها ، ولكن لم يكن لها بيت خاص ، ولم تصبح جزءاً مندمجاً من المسرح الأمريكي .. فهي لا تعرف عادات شعبها ، وبنيته ، وطباعه .

وهكذا عاشت « بيرل باك » سنة (١٩٣٢) في حلقة من الأعمال الأدبية والاجتماعية ولا سيما في نيويورك ؛ وتعرفت بكثير من

النقاد والأدباء ؛ إلا أنها لاحظت بأنه لا توجد دائرة أدبية بالمعنى الأوربي أو الصيني . أي لاحظت أن الكتاب الأمريكين متباعدون عن بعضهم ويعملون كل وحده ، وبعيداً عن أي مركز يجمعهم . ورأت أن هذا يمثل ضياعاً كبيراً ، عندما لا تتمكن الأفكار المبدعة أن تلتقي وتناقش بحرية وبسهولة الأفكار والقضايا المطروحة على الساحة ؛ فالأدمغة بحاجة دوماً لشحذ الأدمغة ، في تبادل فكري حر وحاد .

إلا أنها بالإضافة إلى فعالياتها تلك ، فإنها كانت في أوقات فراغها تتجول في الطرقات ، وتزور السينمات والمسارح .. وتعرفت عن كثب مشكلة « التمييز العنصري » التي تعانيها بلادها ، وصدمتها بقوة ، وتذكرت موقف الصينين من البيض،ومعاملتهم لها « كشيطان » . وآلمها أن يكون شعبها الذي تخيلته بأنه الشعب الذي كان من أول من أقر حقوق الانسان ، أن يرتكب هذه الإهانات تجاه الآخرين .

وعادت إلى الصين في السنة نفسها ١٩٣٢ ، التي كانت تمثل سنة « الكساد الكبير » أو « الأزمة الاقتصادية العالمية »،التي عانت منها الولايات المتحدة الأمريكية ما عانت ؛ ولو أن « بيرل باك » تعلق عليها ، بأنها لم تشعر بها بعمق ، ولم تحس بها ، إلا عندما عمل « فرانكلن روزفلت » على إعادة تنظيم مالية الدولة واقتصادها .عادت إلى الصين عن طريق أوربا ، وكان صيتها قد سبقها إليها : فزارت انكلترة ، ودعاها المفكر « سدني وب » وزوجه إلى مائدته ؛ ومن لندن انتقلت إلى السويد . وبدأت تتحسس القلق الذي كان يسود أوربا الغربية بالذات من ظهور « هتلر » . ومن السويد انتقلت بالطائرة ، وهذه

لأول مرة ، إلى « أمستردام » . وفي هولاندة بحثت عن جذور أمها في أوترخت ، وتعرفتها ؛ ومنها إلى فرنسا عبر بلجيكا . وأنهت رحلتها في إيطاليا ، حيث توقفت في البندقية ، ومنها أخذت الباخرة إلى الصين بطريق البحر الأحمر . وفي الباخرة خططت لروايتها « الأبناء» التي تبرز شخصية هامة في الصين عاشت عبر معظم تاريخها ، وهي شخصية « القائد الحربي » ؛ فقد كانت تعرفه « بيرل باك » لأنها عاشت تحت حكمه لعقود .

وعندما رجعت إلى نانكين وإلى بيتها ، وجدت أن الهوة زادت عمقاً بين البيض والصينيين . وأن الأوضاع السياسية في الصين سيئة ، واليابان تزداد تقدماً في الأرض الصينية . وأخذت تشعر أكثر فأكثر أنّ البيت الذي تقيم فيه لم يعد بيتاً لحياة عائلية سعيدة ،لأن المسافة التي تفصلها عن زوجها غدت كبيرة ، وغدا الاتصال والتواصل بينهما شبه مستحيل ، على الرغم من الجهد الذي بذل لرأب الصدع خلال السنوات السابقة . فالاختلاف العميق بينها وبينه ،والذي أدركه والداها قبل الزواج والذي جعل أمها تحاول صدها عن ذلك الزواج ، استفحل أمره ، ودخلت فيه « الطفلة التي لن تنمو » ، وماذا يجب أن يفعل لها . وبكلمة موجزة ، تكسرت الجسور بين الطرفين ، وغدا الوقت ملائماً جداً لترك الصين . وهنا لا تذكر « بيرل باك » شيئاً عن الموضوع النقدي الذي نشرته عن « هيئة التبشير الخارجية البريزبيتريانية» سنة ١٩٣٣ ، والذي من أجله اضطرت للاستقالة من عملها .

وقررت أن تزور المناطق الجنوبية الشرقية من آسيا قبل عودتها إلى موطنها الأول .فتنقلت أولاً في الأجزاء من الصين التي لم تكن قد رأتها ، وبصفة خاصة جنوبها . ثم انتقلت إلى الهند الصينية، وزارت كمبوديا ، ثم سيام ، ومنها إلى الهند فأندونيسيا . ووضعت أهدافاً لرحلتها الاستطلاعية الطويلة تلك ، ومنها تعرف الشعوب في تلك البقاع ، تلك الشعوب التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار ، والكشف كيف سيكون المستقبل ؛ وبالنسبة للهند كيف ستحصل على حريتها . وبعد سنوات من مغادرتها الهند ، كتبت كتابها « تعال يا حبيبي » .

وعادت مرة أخرى إلى نانكين مع كل ما جمعته من معرفة وتجربة. ويبدو أنها كانت مترددة في مغادرة الصين نهائياً . إلا أنها حزمت أمرها أخيراً ، وغادرت البلاد في ربيع ١٩٣٤ ، وقد تركت بيتها كما هو ، وكأنها ستعود إليه .

وفي بلادها ، قضت صيفها الأول في نيويورك ، إلا أنها رأت أنها لن تفهم « موطنها الجديد » إلا إذا غدت جزءاً من أرضه ، وليست مجرد زائرة في مدينة . وهذا يعني إنشاء بيت ، والبيت يعني منزلاً . وبلادها واسعة شاسعة ، فأين سيكون ذلك المنزل ؟ ووجدت أنها لن تتمكن أن تعيش في الجنوب ، حيث التفرقة العنصرية على قدم وساق ؛ وكانت تفكر بأن يكون في ذلك البيت أولاد كثيرون ، ولذا عليها أن تختار مكاناً أميناً لهم . وبعد تفكير ، اختارت موقعاً المناظر فيه متنوعة : الزراعة والصناعة متجاوران ، والبر والبحر ، والجبال ليست بعيدة عنه ، والمدينة والريف متحابان . اختارت ولاية «بنسلفانيا»

حيث الأصالة والتاريخ . وفيها انتقت بيتاً حجرياً على سفح تل ، والأشجار حوله ، ويقوم وسط مزرعة ، وتملكته . وقضت السنة الأولى في ترميم البيت الذي اختارته ، وتعرفت من خلال ذلك على جميع العاملين في بنائه ، وبذلك خطت خطوات نحو تفهم شعبها .

وكان عليها — كما قالت — أن تُعلِمَ جيرانها بأن البيت الذي شيدته ستسكنه مع زوج طلق زوجه كما أنها هي طلقت زوجها . وبالفعل انتقلت « بيرل باك » إلى مدينة « رينو» في ولاية نيفادا لتطلب الطلاق من زوجها ، ولتتزوج من « ريتشار . ج . والش » . وكان المحرر الأول في « مجلة آسيا » التي كانت تصدر شهرياً ومنذ ١٩١٧ . وكان يصدرها قنصل أمريكا في الصين « ويلار ستريت » . وقد نشرت لـ« بيرل » عدة مقالات وقصصاً ، وظلت مثابرة على الكتابة فيها . ويبدو أن علاقات حميمة قامت بينها وبين المحرر ، فقررت أخيراً الانفصال عن زوجها والزواج منه . وكانت تعرف أن المجتمع لا ينظر نظرة مستحبة إلى الطلاق ، ولذلك عندما أراد أخوها في الماضي طلاق زوجه ، رجته أن يتم ذلك بعد وفاة والديها ، لأن هذا سيكون صدمة صاعقة لهما . وقد رافقتها إلى «رينو» والدة زوجها المقبل ، وكانت صديقة لها . وتقول « بيرل » : « إنه كان يوماً مجيداً ، إنه أعظم يوم في حياتنا نحن الاثنين . يوم ، حاولنا تأجيله لعدة سنوات تحت تأثير أن الطلاق عمل فظيع .... ولكن النظرة إلى الطلاق قد تغيرت عن السابق فكرةً وقانوناً ، وغدا الأمر أكثر إنسانية » وتحاول أن تسوّغه علمياً قائلة : « إن علم النفس الحديث يؤكد اليوم أنه من المستحيل

تواصل فردين جسمياً عندما يصبح تواصل الفكر والقلب مستحيلاً . ولا يمكن لأي قانون أن يبقي الانسان في سجن الزوجية ، الذي قد يكون أكثر إرهاقاً وتعذيباً من الباب المغلق والقضبان الحديدية . » وتستطرد ، فتقول : « إن طلاقاً واحداً مقبول اجتماعياً وأخلاقياً باعتباره اعترافاً بخطأ ارتكب في سن الشباب ؛ إلا أنه يجب أن توضع موانع وعوائق في وجه الطلاق الثاني والثالث ، لأنه إذا سعي في هذا الاتجاه ، فإن هذا دليل على نقص الجدية في الحياة الأسرية ، وعلى هذا الفرد ألا يتزوج البتة لأنه لن يكون سعيداً في الزواج » .

وتعقّب على زواجها من ناشرها قائلة : « من المعروف أنه أمر غير مستحب أن يتزوج الناشر من المؤلفة ، والعكس صحيح ، إذ سيختلط العمل مع الحياة اليومية .. إلا أن هذا الأمر لم يثبت أنه صحيح بالنسبة لنا ، فشكراً لله . فنحن لنا منافع واحدة ، وهوايات واحدة ، وميول واحدة ، وكان هناك تعاون دائم بيننا ، ولا مكان للتنافس » .

ورأت « بيرل » بعد أن تزوجت من ناشرها ، أن بيتاً دون أطفال ليس ببيت . ولم يكن لديها في بيتها الجديد سوى الابنة التي تبنتها سابقاً ، وقد بلغت من العمر إحدى عشرة سنة . ولذا اتفقت معها ومع زوجها على تبني طفلين من الذكور ، وبعد سنتين أخريين على تبني طفل وطفلة ، وكانت سن كل طفل تم تبنيهما له لا تزيد عن عدة أسابيع . لقد كانت تحب الأطفال منذ ساعة ولادتهم وحتى يبلغوا المئة عام ! — كما كانت تقول — . وأضافت بأنها استمتعت جداً بأن تكون أماً لهذا الحشد من الأطفال ، لأنها تؤمن بالأسرة الكبيرة

التي رأتها في آسيا وفي الصين بالذات ، والتي رأت بعض صورة عنها في بيت جدها . كما كانت تؤمن بأن الحب هو الذي يجعل الأطفال يتمتعون بالصحة الجسمية والنفسية ، وأن الأسرة الكبيرة هي التي توفر لهم هذا الحب ، وتحتضنهم ، وتعوضهم عن والديهم إذا ما افتقدوهما .

وبعد أن استقرت في بيتها مع أطفالها وزوجها ، تابعت نشاطها الكتابي في جو من السعادة والطمأنينة . وفي سنة ١٩٣٨ ، علمت بأنها قد منحت جائزة نوبل للآداب . وتقول عن نفسها بأنها لم تصدق ما قيل حتى قامت باتصال مع ستوكهولم أكد لها النبأ . فعلى الرغم من الشهرة التي نالتها حتى ذلك التاريخ من نشر كتابها « الأرض الطيبة » وكتبها الأخرى ، وارتفاع مبيعاتها منها ، فإنها كانت لا تزال تشك بقيمة نفسها روائية بارعة . وتروي أنها عندما أقام ناشر « الأرض الطيبة » حفلاً على شرفها في نيويورك ، وحضره كثير من الأعيان ، ونخبة من الأدباء ، وطُلب إليها أن تقول كلمة ، فإنها تبنت الكلمات المتواضعة التي كان قد كتبها الروائي الصيني القديم « شيه نينّان ، Shih Nainan » الذي ترجمت كتابه الضخم تحت عنوان «جميع الناس أخوة » . فقد كان هذا الروائي قد أظهر تواضعه الجم أمام زملائه العلماء في مقدمة كتابه ، وأكد أن كتابه الواسع ليس سوى نوع من القصة السردية . وختم تلك المقدمة بقوله : « كيف يمكنني أن أعرف أن أولئك الذين سيأتون بعدي ، ويقرؤون كتابي هذا ، ما الذي سيفكرون به .. فأنا لا أعرف! فحتى أنا الذي سألد في منسوخ

آخر لا أعرف ما سأفكر به ، ولا أعرف إذا كنت أنا نفسي سأقرأ هذا الكتاب » . وبذلك تكون « بيرل » في كلمتها تلك ، قد تبنت رأي العلماء الصينيين القدماء بأن الرواية ليست من الأدب الرفيع ، بل هي ليست من الأدب أبداً وانتقصت من قيمة قواها الأدبية ... ويبدو أن هذا الشعور هو الذي راودها عندما أعامت بجائزة نوبل ، حتى أصيبت – بحسب قولها – بالدهشة والعجب .. حتى إن الدهشة جعلتها تتساءل لماذا أعطيت لها تلك الجائزة ! وتمنت لو أعطيت للكاتب الأمريكي الكبير « تيودور درايزر » (١) الذي كانت معجبة جداً به ، إذ كان في ذهنها أكثر من مجرد روائي ، إذاستطاع بأسلوبه « العملاق » أن يجسد شيئاً أمريكياً عميقاً . وكانت ترى أنه يسير نحو الشيخوخة ، وهي لا تزال شابة نسبياً ، ويمكن أن تنتظر جوائز في

---

(١) Theodor Dreiser : روائي أمريكي ، ولد في Terre Haute في ولاية إنديانا سنة ١٨٧١ ، وتوفي في هوليوود سنة ١٩٤٥ . وقد ولد لأبوين فقيرين ، ومتعصبين للكاثوليكية ومن أصل آلماني. عمل أولا بالصحافة، وكان لهذا أثره على عمله كروائي فيما بعد . ابتدأ هذا العمل سنة ١٩٠٠ ، برواية «Sister Carrie » . ثم توسع في طرح موضوع الاستقلال الاقتصادي والجنسي للمرأة في رواية « جيني غيرها ردت » سنة ١٩١١ . ورسم قسوة الصراع من أجل الحياة في كتابه « المالي » سنة ١٩١٢ ، وفي « تيتان » (١٩١٤) ، وأظهر إفلاس ما فوق الانسان في « العبقرية » سنة ١٩١٥ . وفي روايته « مأساة أمريكية » سنة ١٩٢٥ ، درس نفسية قاتل . وينظر إلى « درايزر » على أنه مؤسس مذهب « الطبيعية الأمريكية » ، وشبهت روايته « سيستركاري » برواية « نانا » لإميل زولا الفرنسي . وواقعيته يرافقها رؤية عظيمة لقوى القدر التي تسيطر على مصير الانسان . وكان يحلم باصلاحات اجتماعية توصل الانسان إلى مستقبل أفضل . وتتميز رواياته بأنها شديدة الحيوية ، ويشاهد هذا بصفة خاصة في ترجمته الذاتية ، وفي قصص الرحلات : « مسافر بعمر أربعين عاما (١٩١٣) » وفي عطلة في بلاد هورير Hoosier» (١٩١٦) ، و Hey , Rub – adubdub (١٩٢٠) و « كتاب عن نفسي » (مجلدان ١٩٢٢ – ١٩٣١) .

المستقبل . وتتابع « بيرل باك » حديثها عن تلقيها نبأ منحها جائزة نوبل قائلة : « إذا كانت لدي في الماضي بعض شكوك حول قدراتي الأدبية ، فإنها تضاعفت بل وتثلثت . ويرجع ذلك إلى أن زملائي الأدباء من الرجال ، قد صبوا علي نقداً قاسياً جداً . فقد صرحوا بأن ليس هناك امرأة أديبة في أمريكا تستحق جائزة نوبل إلا اللهم الأديبة المسنة « فيلا كاثر » (١) ، وإنني أقل الناس استحقاقاً لها ، لأنني لم أكتب سوى بعض الكتب ؛ ومن الصعب أن ينظر إليّ على أنني أمريكية ، إذ عشت معظم وقتي في ذلك الجزء البعيد من العالم ، وأنني كتبت عن الصين دون أمريكا ، وأخيراً فأنا لا أزال شابة . وهكذا كنت مضطربة جداً عندما تلقيت النبأ ، بل تمنيت لو رفضت تلك الجائزة . فقد آلمني جداً أن يقف زملائي ضدي في هذه المناسبة ... ولكنني تمالكت نفسي ، ولم ألبث أن جهزت نفسي للسفر إلى ستوكهولم

---

(١) Villa Sibert Cather : روائية أمريكية ، ولدت في ونشستر في فرجينيا سنة ١٨٧٦ ، وتوفيت في نيويورك سنة ١٩٤٧ . إن نجاح قصتها الأولى « جسر الاسكندر » (١٩١٢) ، شجعها على ترك الصحافة للأدب . وأكدت الروايات التالية مواهبها : « أيها الرواد » (١٩١٣) و « أغنية القبرة » (١٩١٥) و « أنطونيا » (١٩١٨) . والموضوع المشترك في تلك الروايات ، هو الحياة القاسية للمهاجرين الذين وفدوا من أوربا وسكنوا الغرب الأمريكي ، وشجاعتهم . إلا أنها في رواياتها التالية كانت أقل تفاؤلا : « سيدة ضائعة » (١٩٢٣) ، و « بيت الأستاذ » (١٩٢٥) . فقد أحزنها الحاضر ، والتفتت نحو ماض تقليدي ، وسعت لاحياء الحضارة الاسبانية في الجنوب الغربي في كتاب « الموت يأتي من أجل رئيس الأساقفة »(١٩٢٧)، والحضارة الفرنسية في كندا في القرن السابع عشر في كتاب « ظلال على الصخرة » (١٩٣١) . وقد اعتنقت الكاثوليكية ، وإن أسلوبها في الكتابة جميل ، ورواياتها مؤلفة تأليفاً رائعاً نالت « جائزة بولتيازر » سنة ١٩٢٢ .

لاستلام الجائزة التي منحت لي على غير انتظار ، إذ لم أعرف أبداً بأنني كنت مرشحة لها .. ». «ولابد لي أن أعترف أن نقدهم القاسي لم يصبوه سابقاً بهذا الشكل على غيري .. ولابد لي أن أعترف أيضاً بأنني كنت شديدة الحساسية لهذا النقد ، وظللت أتذكره بمرارة ، رغم مرور السنين العديدة عليه .. بل تولد عندي منذ ذلك الوقت ، تردد كبير في الاختلاط مع الكتاب الأمريكيين وتحمل مسؤولياتي الخاصة بينهم. ان الاجتماع معهم كان يحيي دائماً عندي تلك الذكريات المؤلمة عن خريف ١٩٣٨ ، عندما كنت لا أزال جديدة وطرية العود في بلدي ، وكلي أمل ولهفة لحياة أدبية متفتحة ، وكلي تقدير وتقديس للأدباء الذين هم أكبر مني سناً ، وأخصب عطاءً في الحقل الذهبي للآداب الأمريكية . ولكن لابد لي أن أذكر أديباً كبيراً منهم سبقني إلى جائزة نوبل ، وبث القوة والثقة في نفسي ، وهو الأديب .. « سنكليرلويس » (١) . فقد التقيته في مأدبة أدبية ، وكان يجلس إلى

---

(١) Sinclair Lewis : روائي أمريكي ، ولد في « سوك ستر Sauk center » في ولاية منيسوتا سنة ١٨٨٥ ، وتوفي في روما سنة ١٩٥١ . عرف برواياته الساخرة ، وغالباً الكاريكاتورية للبورجوازية الأمريكية . من كتبه : « الشارع الرئيسي Main Street » (١٩٢٠) و « Babitt » (١٩٢٢) ، و « Elmer Gantry » (١٩٢٧) وهي لوحة لبعض مظاهر الدين التجارية في الولايات المتحدة .و« عمل فني Work of Art » (١٩٣٤) .. ومن أفضل رواياته : « أروسميث Arraw Smith » (١٩٢٥)، وفيها دراسة عن البحث العلمي ، وتعالج بالذات موضوع الصراع بين المثالية المجردة للعلماء ، ومادية أولئك الذين يستثمرون اكتشافاتهم .. وله روايات عديدة أخرى . إن أعمال « سنكلير » تمثل صوراً فوتوغرافية لأخلاق الأمريكيين واهتماماتهم الاجتماعية والاقتصادية فيما بين الحربين العالميتين وما بعد الحرب العالمية الثانية . وهو أول كاتب أمريكي ينال جائزة نوبل ، وقد حصل عليها سنة ١٩٣٠ .

جواري ، ولقد تحدثت معه قليلاً .... لأنني وجدت نفسي منكمشة أمام كاتب كبير مثله ... فعندما جاء دوري للحديث أمام الحضور ، وقفت وليس في ذهني سوى ذلك النقد اللاذع الذي سمعته من بعض الأدباء الذين جلسوا ليلتها أمامي . فأعدت على مسامعهم ، دون أن أتذكر اليوم الكلمات التي قلتها بالضبط ، ما كنت قد كررته مراراً بأنني تعلمت بأنه لا ينظر عادة إلى الروائي على أنه وجه أدبي ، وإن الروايات والقصص ليست إلا لتسلية العامة ، وملء الفراغ ، وبعض جمل أخرى من هذا القبيل . ولم يعجب « سنكلير » ما قلته ، فعندما عدت إلى مكاني بجواره ،التفت إلي بحركة غاضبة وقال :— وإنني لأتذكر كل كلمة قالها يومئذ ، لأنها نزلت كالبلسم على روحي الجريحة — : « كان عليك ألا تقللي من قيمة نفسك كروائية ، وألا تحطي من شرف مهنتك . إن للروائي وظيفة نبيلة » . وتحدث ببلاغة وفهم عميق لتلك الوظيفة ، وكأنه أدرك كل ما كنت أشعر به .. وأضاف : « على الكاتب ألا يبالي بما يقوله الآخرون .. ويجب ألا تهتمي بالناس وما يقولونه .. لقد تمنيت في الماضي لو أنني لم أكتب كتابي « الشارع الرئيسي » من شدة ما تكلم عنه الناس وكأنه كتابي الوحيد .. عليك أن تكتبي كثيراً من الروايات ، واتركي الناس يقولون ما يقولون . فعليهم اللعنة » .. وكان هذا برداً وسلاماً على نفسي . وقال لي أيضاً : « لا تدعي أحداً يقلل من قيمة حصولك على جائزة نوبل . إنه حادث هام جداً ، وهو أكبر حادث في حياة كاتب ، فاستمتعي بكل لحظة منه ، لأنه سيكون أجمل ما تحتفظ به ذاكرتك » .

وذهبت « بيرل » لتسلم جائزة نوبل برفقة زوجها وأخته . ومرت في طريقها بالدانيمارك . ورفضت زيارة ألمانيا رغم الدعوة التي وجهت إليها . ونسب إليها في الصحف الدانيماركية أنها قالت : « لا أتمنى أن أزور بلداً لا يسمح لي فيه أن أفكر وأتكلم بحرية » . وعندما سئلت عن الصين في « كوبنهاغن » وما يجري فيها ، أجابت : إنني لا أرى فيها سلاماً لسنين عديدة قادمة ، قد تصل إلى خمسين . إن ما تحتاجه الصين اليوم هو ، فوق كل شيء ، حكومة مركزية قوية ، قادرة على كسب ولاء الشعب وإخلاصه ، ولا أظن أن « تشانغ كاي تشيك » أهل لذلك ، فقد أضاع فرصته » . وسئلت : هل لا تزال الصين فقيرة ؟ أجابت : « نعم ! رغم تصريحات الدبلوماسيين في الخارج . فعامة الشعب فقير كما كان . وأضافت : لا أقول إن جميع الموظفين الرسميين فاسدون ، وإنما كثير منهم هم كذلك وأقل ما يمكن أن يقال إن أكثرهم لا يهتم بمصلحة الشعب . »

وقد علّقت على أجوبتها تلك قائلة : « كان بإمكاني تجنب هذا الكلام ، ولكنني أعتقد أنه لا يمكن تجاهل هذه الحقائق ... ولقد اعتدت دائماً أن أتكلم بأمانة وصدق » .

وقد شعر الصينيون القوميون الرسميون في السويد بأنهم قد أهينوا من تلك الأجوبة ، فاستنكفوا عن حضور حفل تسليم جائزة نوبل لها . وقد علّقت على سلوكهم هذا تجاهها قائلة : « أنا آسفة لعدم حضورهم ولكن كان من الصعب علي أن أقبل حضورهم مع ابتسامة تجهل

ونفاق . ليس لي اهتمام ومصلحة بالسياسة ، ولكنني أعتقد أن الحكومات توجد لغاية واحدة وهي الارتقاء بحياة شعوبها . فهل هناك سبب آخر لوجودنا ؟ ! »

وكانت الأيام الأربعة التي قضتها « بيرل » في ستوكهولم من أجمل وأمتع أيام حياتها . « لقد جاءت الجائزة - كما قالت - في وقت كنت بحاجة ماسة إليها . فقد كنت أمر بالمرحلة الصعبة في حياة الكاتب ، أي عندما ما كان رد فعل الجمهور الأمريكي الذي يمنحه عادة لأي واحد قد اكتشفه ومدحه ، قد استقر . وعندما يكون الثناء والمديح كثيراً جداً وغير مميز ، وبالتالي يقابله نقد معارض ومعادٍ كثير جداً وغير مميز أيضاً . لم يُدِر المديح رأسي ، وإن كان كثيره قد سرّني ولامس أوتار قلبي ، إلا أن قسوة النقد غير العادل ، الذي كان نوعاً من القذف بالحجارة ، والذي غدا تقليدياً بمجرد أن بدأ ، حطم موقتاً ثقتي بنفسي . إن الدفء الذي قابلني به الشعب السويدي ، مع نبله وهدوئه رمم نفسي وأعاد الثقة إليها . فكم هو جميل أن تُستقبل ، لا بتزلف ، وإنما باحترام وعطف . فأنا أعزُّ هذه الذكرى » . وقد قابلت الأديبة الروائية ملك السويد ، وولي عهده ، أثناء الاحتفال ، وألقت كلمة في حفلة العشاء الملكي ، تقبلت فيها الجائزة . وكذلك ألقت كلمة أمام « الأكاديمية السويدية » ، وكانت عن « الرواية الصينية » وهو موضوع لم يكن يعرف الغرب عنه كثيراً ، وقد نشرت فيما بعد في كتيب صغير . والتقت بالأديبة السويدية الكبيرة « سلمى لاغرلوف » ، وأفهمتها بأن ما كتبته عن أمها وأبيها هو الذي جعلها

تصوّت إلى جانب منحها جائزة نوبل . وبذلك عرفت « بيرل » بأنها منحت الجائزة لا عن روايتها « الأرض الطيبة » فحسب ، وإنما عن مجموع أعمالها .

وغادرت « بيرل باك » ستوكهولم في ١٣ كانون الأول ١٩٣٨ عائدة إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

ورغم سعادتها في بيتها بين زوجها وأولادها ، فإنها كانت تتابع بقلق ما يجري في العالم والصين . فقد أعلنت الحرب العالمية الثانية ، وتابعت اليابان هجماتها على الصين ، وأخذ الشيوعيون الصينيون يهاجمون اليابان بحرب عصابات شديدة ؛ وانضمت قوات « تشانغ كاي تشيك » ، بعد أن نزلت اليابان في شانغهاي ، وطردته من نانكين ، إلى الشيوعين الصينين ضد العدو المشترك اليابان . ومع ذلك فقد استطاعت اليابان أن تسيطر على المراكز الحيوية في الصين . ولكن دخول الولايات المتحدة الحرب سنة ١٩٤١ بعد هجوم اليابان على « بيرل هاربر » ، خفف الوطأة على الصين . كل تلك الأمور كانت تحز في نفس أديبتنا . إلا أنها مع ذلك ، وخلال الحرب ، لم تتوقف عن تلقي زيارات كثيرة ، ومن جميع أنحاء العالم ، ومن أنحاء بلادها : من كتاب ، وأدباء ، وناشرين ، وصحفيين وسياسيين . وتعدد في كتابها « عوالمي المتعددة » كثيراً من تلك الأسماء اللامعة آنذاك ، ومنهم « جواهر لال نهرو وأخته وحفيدتاه ، « وجوزه دوكاسترو » البرازيلي صاحب كتاب « جغرافية الجوع » ، و« جرترود باتل لين » محررة مجلة « رفيق امرأة البيت » ، التي كانت من الشخصيات الكبيرة في أمريكا ، وتنال أكبر أجر فيها .

ومع أن « بيرل باك » التي غدت الآن « بيرل والش » لم تكن تعمل خارج منزلها ، ولم تكن لتميل إلى أي عمل خارجه وخارج عملها الكتابي ، فإنها قامت بنشاطات اجتماعية هامة . فقد سعت لافتتاح بيت أطلقت عليه اسم « بيت الترحاب » ، ليضم الأطفال الذين ينتظرون التبني ، ولا سيما أولئك الأطفال الذين ولدوا من عناصر غير بيضاء ، لأن مؤسسات التبني المنتشرة لم تكن لتقبل بهم ، لأنه لا إقبال على تبنيهم . وكانت تسعى مع من عاونها في هذا المشروع كي تجد أسراً صالحة تستقبلهم لديها . ولقد قبلتهم أولاً في بيتها ، ثم تعاون معها الطيبون من الجيران ، ولم يكن العمل سهلاً عليها .

وخلال الحرب ، زارت كل أنحاء أمريكا لتعرف شعبها أكثر فأكثر . ولكنها لم تنقطع عن التفكير في إيجاد وسيلة تمكنها من تعريف شعبها بالطرف الآخر من المحيط الهادي ، أي بآسيا . وكانت تقول : « إن الهدية الوحيدة التي حملتها إلى شعبي في أمريكا هو معرفتي بآسيا ، وبصفة خاصة بالصين واليابان ، لا عبر حياة سنوات طويلة عشتها هناك فحسب ، وإنما عبر دراسة مركزة ، ورحلات علمية ، وملاحظات دقيقة ، كتبت كتباً كثيرة عنها ؛ ولكنها مع الأسف لم تصل إلا إلى عدد ضئيل من الأمريكيين ... هل وصلت تلك المعرفة إلى العقول القيادية في بلدي ؟ نعم وصلت . ولكن في ديموقراطية كديموقراطيتنا نادراً ما تشغل العقول القيادية مكاناً ذا تأثير دائم . وإن الرجال الذين هم في الكونغرس ، وحتى في البيت الأبيض ليسوا عادة هم عقولنا القيادية ، لأنهم ليسوا هم المفكرين . إذ لا وقت لديهم للتفكير ولا حتى لرحلة تأملية . ففي أية ديمقراطية ، الشعب وحده هو الذي يجب أن يُعْلَم . ولكن كيف ؟ » .

ووجدت الأديبة وسيلتين لذلك : أولها أن تتابع وزوجها إصدار « مجلة آسيا » التي كان ممولها قد توفي ، عن طريق شرائها والعمل فيها . وقد رأت زيادة في عدد قرائها أثناء الحرب العالمية الثانية ؛ إلا أنها أخذت تخسر في نهاية الحرب ، وغدا من الصعب الاحتفاظ بها بعد خمس سنوات من العمل فأغلقت سنة ١٩٤٦ .

وثاني الوسيلتين تأسيسها سنة ١٩٤٠ « جميعة الشرق والغرب » ، والهدف هو كما ذكر سابقاً ، تعارف الشعب الأمريكي بالشعوب الآسيوية . فقد رأت أنه حتى تلك المجلة (آسيا) لا يمكنها أن تربي الشعب الأمريكي على معرفة آسيا أو تُعلمه عنها . فهو يتعلم عن طريق السماع أكثر مما يتعلم عن طريق القراءة ، والأفضل من الطريقين ، عبر الرؤية المباشرة . ففكرت أن تحضر له رجالاً ونساءً من آسيا يحدثونه ، ويشرحون له تاريخهم وحضارتهم ، وبذلك يتم التعارف بطريقة مباشرة ودون وسيط . وهكذا أوجدت ذلك التنظيم الصغير ، المعفي من الضرائب ، وافتتحته في واشنطن بحفلة عشاء ، وأتبعته باجتماع موسع في نيويورك . وبالفعل استحضرت رجال أدب وسياسة ، وفرقاً تمثيلية ، وفنانين ، ولكنها اضطرت سنة ١٩٥٠ وبعد عشر سنوات لإيقاف نشاطات تلك الجميعة ، ، « مع أنها — كما قالت — كانت تعلّمني أنا الكثير ، إذ عرّفتني أناساً عديدين ، أمريكيين وآسيويين » . أما السبب الأول لإيقاف عمل تلك الجميعة ، فهو عدم وجود تمويل كاف يُصرف للمحاضرين والمحاورين ، علماً بأن الدولة لم تقدم لها أية مساعدة مادية . « أما السبب الآخر — فكما تشرحه

الأدبية نفسها — فقد ظهر متأخراً جداً ، وكنت أخافه وأتوقعه منذ ١٩٤٦ ، عندما أعلن ممثلنا في « مؤتمر سان فرانسيسكو » ، وبحضور كثير من الآسيويين البارزين ، بأن السياسة الأمريكية في المستقبل لن تهتم باستقلال الشعوب المستعمرة في آسيا . وكان ذلك صدمة قاسية للشعوب الآسيوية ، التي مجدت « جورج واشنطن » لأنه حارب، من أجل حرية بلده ، واستخلاصها من القوة الاستعمارية ؛ والتي احترمت « أبراهام لنكولن » لأنه حرر الرقيق الأسود ؛ والتي كانت ترى في دستورنا الأمريكي ، وصك الحقوق ، آمالاً ومُثُلا . فقد عرفت الآن بأن كل ذلك ، كان للأمريكيين فحسب وليس لكل العالم . »

وتضيف « بيرل والش » سبباً ثالثاً لإيقاف نشاط الجميعة فتقول : « وقد أيدني في عملي ذاك — أي إيقاف نشاط الجميعة — الجو الغريب الذي ساد بلدي بعد سنة ١٩٤٦ ، حيث العلماء الحقيقيون ، والرجال الطيبون ، قد أُفقدوا سمعتهم وأعمالهم لمجرد معرفتهم وفهمهم للمناطق في آسيا التي انضوت تحت الشيوعية . فعلى الرغم من أن « جمعية الشرق والغرب » لم ترسل أبداً شيوعياً ، أو وجهاً سياسياً إلى أية جماعة أمريكية ، فإنه غدا من الخطر اليوم ، إعلان الإيمان بأخوة الشعوب ، ومساواة العروق البشرية ، والمناداة بالتفاهم الانساني ، وفي المعنى العام للسلام ،أي بكل تلك المبادىء التي رُبيت عليها،وآمنت بها ، ويجب أن أبقى مؤمنة بها ، ودون خوف ، حتى الموت . لقد أغلقتُ الجمعية ، لأنني لم أرد أن أُخضع أصدقائي الآسيويين إلى الاتهامات الكاذبة ، والملفقة ، والشاكة ، والمزيفة ، السائدة في زمننا. ومع ذلك ، فأنا شاكرة لتلك السنوات العشر التي تلاقينا فيها وجهاً

لوجه ، مواطنين صالحين من آسيا ، ومواطنين خيِّرين من الولايات المتحدة ... ولابد للبذرة أن تنمو يوماً . »

وغدت « بيرل والش » عضوة في « أكاديمية الفنون والآداب » في الولايات المتحدة ، وقد منحت كرسي الأديب « سنكلير » بعد وفاته . وتضم الأكاديمية كبار الفنانين الأمريكيين من رسامين وأدباء وكتاب ومعماريين وغيرهم.ولقد أدهشها أثناء وجودها في الأكاديمية، بأنه عندما عملت تلك المؤسسة على اختيار مئة مؤلِّف ، تمثل ينابيع الحضارة الانسانية ، لم يكن من بينها كتاب آسيوي واحد ، وعندما سألت عن السبب ، قيل لها بألا أحد يعرف شيئاً عنها ! !

وفي الواقع كان للأديبة الأمريكية اهتمامات كثيرة بقضايا بلدها : كقضية الزنوج ، والتّربية والتعليم ، ولا سيما التعليم الإلزامي ، والمرأة وتطورها ، والشباب وطرق تربيتهم وتصرفاتهم ، والتبني ومؤسساته ، والمعوّقين . وقد كتبت كتاباً صغيراً أسمته « عن الرجال والنساء » .

وقد أُخرج عدد من رواياتها في السينما ومنها « الأرض الطيبة » و « بذرة التنين » . وعندما انتشرت « الإذاعة » وأصبح لها روادها ، أرادت أن تدلي بدلوها فيها ، وأن تكتب القصة لها . ولما كان العمل جديداً عليها ، فقد انتسبت « لجامعة كولومبيا » كي تتعلم كيف تصبح كاتبة ممتازة للإذاعة . ومع ذلك ، فإنها لم تكتب أية قصة لها ، وإنما بعض مسرحيات أثناء الحرب . ولما انتشر التلفزيون ، تساءلت أيضاً ، كيف يمكن لروائي مثلها أن يستخدم وسيلة الإعلام الساحرة هذه !

وهكذا كانت حياة « صاحبة الأرض الطيبة » حياة طويلة زاخرة ، لا بالكتابة الروائية فحسب ، وعن بلاد كان العالم في عصرها لا يعرف الشيء الكثير عنها ، وإنما بأعمال كثيرة ، أرادت من خلالها أن تحقق بعض مُثُلها عملياً ، ولا سيما قضية التقارب بين أمريكا وآسيا . كما كانت تلك الحياة مملوءة بتجارب كثيرة ، وغنية جداً بأفكار تربوية ، ونقدية ، وسياسية ، يمكن أن ينسج حولها بحوث كاملة .

تعليق جديد :

وقد عاشت« بيرل باك والش» بعد الانتهاء من كتابها « عوالمي » عشرين سنة أخرى في بلادها أمريكا ، إذ توفيت سنة ١٩٧٣ وهي في الواحدة والثمانين من عمرها .

* * *

الفهرس

٢٥٠٠ ط١/١١/١٩٩٦

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٦

سعر النسخة داخل القطر

١٧٥ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل

٣٥٠ ل.س